نحو وعي سياسي واستراتيجي وتاريخي

الكتاب الثالث - الجزء الثاني

قراءة في فكر علماء الاستراتيجية

كيف تفكر إسرائيل؟

أ.د/ حامد ربيع

إعداد

أ.د/ جمال عبد الهادي مسعود

الشيخ/ عبد الراضي أمين سليم

دار الوفاء

قراءة في فكر

علماء الاستراتيجية

كيف تفكر إسرائيل ؟

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠

ت :٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

نحو وعي سياسي واستراتيجي وتاريخي

الكتاب الثالث - الجزء الثاني

قراءة في فكر
علماء الاستراتيجية
كيف تفكر إسرائيل ؟

أ. د. / حامد ربيع

إعداد
أ. د. / جمال عبد الهادي مسعود
الشيخ / عبد الراضي أمين سليم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾

[الأعلى: 9-12]

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فهذا هو الجزء الثانى من كتابنا «الثالث» ضمن سلسلة «نحو وعى سياسى واستراتيجى وتاريخى». تحت عنوان «كيف تفكر إسرائيل» للدكتور حامد عبد الله ربيع، ويتكون هذا الجزء من أربع فصول:

الفصل الأول: المنطق العسكرى .. والحرب القادمة.

المبحث الأول: ميدان المعركة

المبحث الثانى: الحرب المقبلة.. والشرق الأوسط.

المبحث الثالث: منطقة الشرق الأوسط والإدارة العربية والحقائق الجديدة.

المحور الأول: الجسد العربى.. وعناصر قوته.

المحور الثانى: حرب لبنان.. وتطور الفكر اليهودى.

المبحث الرابع: ميلاد المجتمع العربى الجماهيرى والتخطيط للتعامل مع المنطقة.

الفصل الثانى: مفاهيم اليهود للسيطرة على المنطقة.

المبحث الأول: مفاهيم الليكود – جابوتنسكى.

المبحث الثانى: الأصول الفكرية.. والمبادئ الستة.

المبحث الثالث: الأصول الفكرية .. وعملية بناء الدولة اليهودية الكبرى.

الفصل الثالث: السلاح الصاروخى.. واختلال موازين القوى.

المبحث الأول: عملية المساندة الإقليمية.

المبحث الثانى: السلاح الصاروخى وموازين القوى فى الشرق الأوسط.

المبحث الثالث: التطوير الإسرائيلى للسلاح الصاروخى.

الفصل الرابع: الإسلام.. وعملية التخريب من الداخل.

الخاتمة

هذا .. وإن مهمتنا فى هذا الكتاب هى مهمة المؤرخ؛ الذى يقوم بجمع - المادة - التاريخية، وتبويبها وترتيبها، تمهيداً لإخضاعها للتقويم والتحليل، مع استخلاص النتائج، والوقوف عند رؤوس العظات والعبر، والله من وراء القصد.

جمال عبد الهادى - عبد الراضى أمين

الفصل الأول

كيف تفكر إسرائيل

المنطق العسكرى الإسرائيلى والحرب القادمة

المبحث الأول

ميدان المعركة القادمة
بين العرب وإسرائيل

تحت هذا العنوان كتب د. حامد عبد الله ربيع:

«الذى نعيشه فى هذه اللحظة يذكرنا بعمليات خلط مشابهة، حدثت فى كلا النموذجين السابقين، وبصفة خاصة قبل اندلاع حرب الخليج، حتى أن أى مُحلل محايد لم يستطع إلا أن يتساءل وهو غير مصدق إلى أين؟ من كان يتصور تحالفا بين إيران وإسرائيل ومن كان يستطيع أن يتصور ليبيا ترسل قذائفها إلى طهران لتدك بها بغداد؟ ومن كان يستطيع أن يتوقع استمرار حرب ضروس بهذه الوحشية خلال ثمانية أعوام؟ نفس الغموض لابد أن نطرحه اليوم، هل انتهت حقيقة حرب الخليج؟ وكيف حدثت هذه المجازر التى يتحدث عنها الجميع برعب فى لبنان؟ وهذه الانتفاضة فى أرض فلسطين، وما مصيرها، وما معنى هذا التصريح الذى خرج به علينا رئيس الحكومة الإسرائيلية بخصوص إجراء انتخابات فى الضفة والقطاع؟ ما معنى ذلك؟ نحن نعلم أن المخطط الإسرائيلى أساسه تهويد بصفة خاصة الضفة، وطرح مصيرها للاستفتاء العام بعد أن تكون الحكومة الإسرائيلية قد ضمنت مقدما نتيجة الاستفتاء بطلب أهالى الضفة الانضمام إلى إسرائيل، هذا المخطط كشفنا عنه منذ عدة أعوام فى دراسة جماعية أجريناها لحساب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ عام 1984، لا تزال تغط فى النوم فى مكاتب المنظمة، فما هى علاقة هذا الذى يطرحه المسؤول الإسرائيلى بالمخطط الصهيونى، الذى يعود إلى مناقشات مجلس الوزراء عندما كان لايزال بن جوريون يترأس جلساته؟

تساؤلات يجب على كل مفكر أن يطرحها، ولا يجوز أن تخدعنا بذلك الخصوص تصريحات الرئيس «بوش»، ولنتذكر قبله الرئيس «كارتر» وكيف تلاعب بكل أقوله، ولنتذكر أيضا أن إسرائيل جزء من الأمن القومى الأمريكى، ومهما حدث من جانب إسرائيل فهى سوف تظل وإلى فترة قادمة غير منظور نهايتها أداة للدبلوماسية الأمريكية، ليس فقط مع العراق بل وكذلك مع مصر.

مظاهر أخرى ترتبط بهذا الواقع الجديد، ازدياد عزلة دمشق، وقد أضحت موضع توجيه سهام عنيفة ليس فقط من العدو التقليدى، حزب البعث العراقى، بل ومن القوى لما يُسمى بالتحرر الوطنى اللبنانى، وعلى وجه الخصوص فرنسا، ضاربة عرض الحائط بالموقف الأمريكى، ولم يقتصر الأمر على ذلك، ففى نفس الفترة نلحظ الضربات تحت الحزام، ليس فقط من الجانب الإسرائيلى، بل وكذلك من الجانب الأمريكى سواء ضد مصر أو حتى ضد العراق، وذلك دون الحديث عن الصرخات المتتالية من الجانب الإسرائيلى تارة عن مفاعل نووى سوف يهدد أمن إسرائيل وتارة أخرى عن سلوك مصرى غير مقبول، وتارة ثالثة عن مواقف بالنسبة للقضية الفلسطينية، ولا يمكن أن تقبل أى مراجعة، حتى ولو فرضها منطق التعايش أو نصوص القانون الدولى.

فما معنى ذلك؟

مما لاشك فيه أننا تعودنا فى منطقة الشرق الأوسط ومنذ قرابة قرن ونصف قرن على التناقضات والتضارب فى منطق التعامل، ولكننا لم نعرف هذا التسارع المتتابع فى خلط الأوراق، سوى فى مواقف محدودة: إحداهما قبل حرب 1967، ثم ثانيها قبل حرب الخليج عام 1980، ومهما حدث من جانب إسرائيل، فلن تتخلى واشنطن عنها كأداة حاسمة لحماية مصالحها فى المنطقة، لو لم توجد إسرائيل لخلقتها واشنطن.

على كل فليس هذا بيت القصيد ما نقصده فى هذه الصفحات هو أنه فى مثل هذه اللحظة الحاسمة بتناقضاتها، يجب علينا أن نعود إلى العقل الإسرائيلى، ونتساءل كيف تفكر القيادات المسؤولة فى هذه الدولة، وكيف تنظر إلى المستقبل وبصفة خاصة من خلال النخبة العسكرية؟.

إسرائيل هى عدو المنطقة، وهى مصدر جميع المآسى التى يعيشها الوطن العربي منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية، هذه الحقيقة طالما صرخنا بها ضد أولئك الذين يتحدثون عن آخر الحروب فى المنطقة، وهؤلاء الذين صفقوا وهلّلوا خلف الرئيس السادات يعترفون اليوم بهذه الحقيقة. واجبنا الأساسى ليس أن نعرف فقط كيف يفكر الرئيس «بوش» وأعوانه، ولكن أيضا أن نعرف كيف تفكر إسرائيل؟ لقد كانت النقطة الإيجابية الوحيدة، بل واليتيمة فى سياسة الرئيس السادات هى الرغبة فى الوصول إلى عقل الدولة اليهودية، ومع ذلك فحتى اليوم لا نعرف شيئا عن إسرائيل. **فهل هكذا تقاد المعارك المصيرية؟** لانريدأن نذكر تفاصيل بهذا الخصوص، فليس هذا موضعها، ولكننا نضع أمام الرأى العام المسؤول صورة واضحة لـ: **كيف تفكر المؤسسة العسكرية فى تل أبيب؟**

فى مجموعة من الدراسات التى نشرها مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل أبيب، ورغم أن هذه الدراسات ظلت محدودة التداول، إلا أنها موجودة فى جميع المراكز

المحترمة للدراسات الاستراتيجية، وقد بدأت فى التداول منذ عام 1985. نستطيع أن نجد صورة دقيقة ومفصلة للفكر الإسرائيلى، إحدى هذه الدراسات التى جعلت المركز الدولى للدراسات الاستراتيجية بلندن يُصيبه الهلع، وضعها الخبير الإسرائيلى «دوف شافير» يدور حول السياسة العسكرية المقبلة فى شرق البحر المتوسط..

فنحاول أن نلخصه قبل أن نُعَلِّق عليه ونستخلص دلالاته».

((المنطق العسكرى الإسرائيلى والحرب القادمة)):

قبل أن نتعرض للتقرير المشار إليه فلنتذكر بعض الحقائق الخاصة بالموقف الحالي والمتعلقة بسياسة إسرائيل المقبلة، أو المتوقعة أو التى يجب أن نُدخِلها فى الحساب لنتعامل معها إن حدثت بشىء من المعرفة المسبقة.

أولاً: يجب أن نلاحظ مسبقا أن إسرائيل دولة قائمة على مبدأ التوسع. إن هذا هو جوهر المفهوم الصهيونى للدولة، وهى لن تتخلى عنه لأنه محور بقائها.

ثانياً: إنه لا يجوز أن يخدعنا وصف إسرائيل بأنها دولة شرق أوسطية، إن هذا نوع من التكتيك مَردة اعتبارات اقتصادية، خلاصتها: أن إسرائيل لن تستطيع أن تستمر فى الاعتماد على الولايات المتحدة، لضمان مستوى مُعين من المعيشة، وهى من ثم لا تجد بديلا لذلك إلا سياسة اقتصادية مسيطرة وأحد عناصر تلك السيطرة، التوغل فى السوق الشرق أوسطى.

ثالثاً: إن إسرائيل وهى اليوم ترتبط مع الولايات المتحدة باتفاق تعاون استراتيجى، تجد نفسها فى وضع متميز ومختلف ليس فقط بمعنى الترابط مع واشنطن، بل ومن خلال هذا الترابط بالتعاون الحقيقى مع حلف الأطلنطى.

رابعاً: إن أحد المبادئ التى قام عليها الفكر الصهيونى، عقب إنشاء إسرائيل هو فكرة الحرب الدورية كل فترة معينة – فى حدود عشر سنوات إجمالاً – يتعين عليها أن تدخل فى حرب تؤدى عدة وظائف: تحقق توسعاً تخلق التعاطف العالمى، تُصدّر مشاكلها، تُدعّم اقتصادها بالمعونات والمكتسبات، حرب 1948 أعقبتها حرب 1956، ثم جاءت حرب 1967 وحرب 1973 لم تكن حربها، والتى شنتها مصر وسوريا، ولكن أعقبتها فى عام 1982 حرب لبنان.

متى سوف تكون الحرب القادمة.

خامساً: ناحية أخرى، يجب أن ندخلها فى الاعتبار، وهى تعكس نوعا من التجديد الواضح فى الفكر الإسرائيلى وأساسها أنها فيما يتعلق بالمشاكل الأمنية، يجب أن يتم

تمييز قاطع بين سؤالين: متى يجب أن نحارب؟ وكيف يجب أن نحارب؟

السؤال الأول من اختصاص الفكر السياسى الذى يتصدى لمشكلة وموضوع الأمن القومى، ولكن عندما نتعرض للإجابة على السؤال الثانى فهو فقط من اختصاص الفكر العسكرى، وليس لغير خبراء وقيادات الدفاع التعرض له».

((الفكر العسكرى الإسرائيلى والمتغيرات الجديدة))

«السؤال الذى لا يزال يسيطر على الفكر العسكرى الإسرائيلى، لا يزال هو الذى ساد هذا الفكر منذ وجود إسرائيل حتى اليوم، يجب أن تظل إسرائيل متفوقة على جميع الدول العربية فى آن واحد؛ على أن هذا السؤال الذى كان سهلا وواضح الإجابة فى النظرية الأمنية التقليدية، والتى سادت الفكر الإسرائيلى حتى حرب أكتوبر، لم يعد كذلك؛ متغيرات جديدة فرضت هذه الصعوبة:

أولاً: قدرة الشعوب العربية على الحصول على السلاح أيضا المتقدم، بحيث أضحت الفجوة من حيث نوعية السلاح التقليدى بين إسرائيل وأعدائها، تكاد تكون قد تقلصت، بل فى بعض الأحيان هناك دول عربية ومعادية لإسرائيل تملك سلاحا أكثر تقدما - سلاح تقليدى - من السلاح الذى تملكه إسرائيل.

ثانياً: حدثت تغيرات فى ميدان المعركة، وذلك مرده تهديدات جديدة وتطورات عنيفة على الجيش الإسرائيلى أن يواجهها ويستعد لها، إن إسرائيل لو قُدر لها أن تحارب فى الإطار الإقليمى الحالى، فلن نستبعد أن هذه الحرب سوف تشمل جميع دول المشرق العربى دون استثناء ليبيا، ومعنى ذلك أن مسرح العمليات سوف يمتد إلى جميع أجزاء البحر الأحمر، وكذلك أغلب أجزاء البحر المتوسط الشرقى.

ثالثاً: كذلك فإن هناك إحساسا متزايدا بقيود ضخمة على قدرة إسرائيل، ليس فقط بمعنى القدرة على النفاق، بل وكذلك بمعنى القدرة على الحركة، فموارد إسرائيل محدودة ومهما قيل عن مساعدات أمريكية، فهى لا تقاس بموارد خصومها، أو على الأقل بعض خصومها وإقليمها محدود، لا يسمح لها إلا بحدود معينة للمناورة، وكذلك للاستعداد.

ضيق الأقاليم كان قوة لإسرائيل فى حرب 1967، بل وفى حرب 1973 لأنه يسمح لها بنقل قواتها بسرعة من الشمال إلى الجنوب، والعكس، بحيث تضرب القوى المحيطة بها الواحدة تلو الأخرى بسرعة وفاعلية وبصفة خاصة عندما تجمد الموقف فى بعض القطاعات، بينما تتفرغ لاستئصال القطاعات الأخرى، وهو ما فعلته حتى فى حرب أكتوبر، هذه القوة الآن تنقلب ضعفا.

أولاً: بسبب سلاح الصواريخ، وهو ما سوف نراه لاحقا.

وثانياً: بسبب التقدم الرهيب فى أدوات القتال الجوى. وعلى سبيل المثال فإن ضيق (1) الإقليم لايسمح بوجود إلا عدد محدود جدا من المطارات الصالحة لاستقبال واستخدام الطائرات الحديثة والمتقدمة المتوقع استخدامها فى القتال القادم.

رابعاً: استخدام الصواريخ: لابد وأن يضع قيدا آخر وبصفة خاصة بالنسبة لدعوة الاحتياطى، الذى يقوم عليه الجيش الإسرائيلى المحارب، حتى لو اقتصر على استخدام الصواريخ القصيرة المدى، فإن إمكانيات الأردن بهذا الخصوص قاتلة بصدد إسرائيل وخصوصا فإن الفوضى التى سوف يخلقها هجوم مفاجئ بالصواريخ القصيرة المدى من الأرض الأردنية، وقد ساندتها الصواريخ البعيدة المدى من العراق (2)، وسوف تخلق حالة من الاضطراب التى قد تمنع القدرة الحقيقية على استخدام ما تملكه إسرائيل من إمكانيات.

خامساً: ولا يجوز أن ننسى ما تملكه العراق(3) من قدرة أثبتت فاعليتها، وبصفة خاصة فى ميدانين: الصاروخ والسلاح الجوى، وكلا هذين الميدانين كانت تستأثر بالتفوق فيهما إسرائيل. مما لاشك فيه أن العراق لم تصل إلى مستوى إسرائيل، ولكنها – قطعا – قادرة وبصفة خاصة بفضل الكم على أن تصيب إسرائيل بلطمات لم تعهدها.

سادساً: أضف إلى ذلك أن فكرة النوع فى مواجهة الكم أى القلة فى مواجهة الكثرة تملك قيودها. هناك حد لذلك، وكبار القادة يعلمون بهذا الخصوص حقيقتين لا موضع للمناقشة بخصوصهما.

الأولى: أن الجيش المنتصر فى الخاتمة هو الجيش الكبير العدد، والمتفوق كماً، ولو فى حدود معينة.

الثانية: أن الكم فى لحظة معينة وعند نقطة معينة يتحول فى ذاته إلى كيف. جيش مكون من ألفين أقوى من جيشين كل منهما مكون من ألف».

((مبادئ أمن إسرائيل الكبرى))

فى ضوء هذه المعطيات فإن أمن إسرائيل العسكرى، يقوم على المبادئ، والتى جميعها تكمل بعضها، بحيث تخلق نسيجا من الإدراك القتالى، يتلخص فى كلمتين:

(1) من أجل هذا كان التحالف الإسرائيلى التركى، والإسرائيلى وحلف الأطلنطى وأمريكا.

(2) من أجل هذا تجرى محاولة احتواء القوة الأردنية العسكرية، ويجرى تصفية كل مصدر من مصادر القوة العسكرية العدائية خدمة لإسرائيل. بل وجرى مؤخراً محاولة ضم الأردن للمناورات الإسرائيلية التركية.

(3) هذا قبل غزو العراق للكويت. أما الآن فقد تم تصفية كل القدرات العراقية العسكرية.

الاحتفاظ بالتفوق الساحق ولو بأساليب غير تقليدية:

أ - التطوير العنيف فى السلاح الكيميائى (1) والجرثومى.

ب - وضع قواعد تسمح بالتحكم فى القدرة الصاروخية العربية.

جـ - جعل أساس الاستراتيجية الإسرائيلية الخيار النووى.

د - إضافة مبدأ تطوير السلاح البحرى والتحكم المتزايد فى المداخل البحرية.

كل من هذه المبادئ والأدوات يملك استراتيجيته المستقلة، ورغم أننا لن نتعرض بالتفصيل مؤقتا لأى من هذه المبادئ إلا أن الذى يعنينا أن نُذكر به ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إن أيا من هذه المبادئ يدخل ضمن العقيدة القتالية الجديدة، التى بلورتها حرب لبنان 1982، الفارق بين نظرية الأمن القومى ونظرية الحرب أو القتال فى الإدراك الإسرائيلى، يجب أن يكون واضحا فى الذهن. الأول وكما سبق ذكرنا يجيب على السؤال متى يجب أن نحارب؟ الثانية فقط تطرح السؤال كيف يجب أن نحارب؟

الأمر الثانى: إنه رغم الفصل بين السؤالين أيضا من حيث الاختصاص، إلا أنه يجب أن يكون واضحا فى الذهن، أن السؤال الثانى لابد وأن يطغى على السؤال الأول، لأن كيفية السؤال وأسلوب القتال لابد وأن يفرض قيوده على لحظة القتال، وهكذا فإن الفكر العسكرى ومقتضيات الأمن العسكرى، ينتهى أن تطغى أو تقيد من الخيارات السياسية، وسوف نرى ذلك واضحاً فى التطور الخطير الذى أصاب السلاح النووى باكتشاف القنبلة التكتيكية.

الأمر الثالث: أن الأسلحة والأدوات القتالية السابق ذكرها، إلى جانب التطور العام فى المنطقة كان لابد وأن تفرض التوسع فى مسرح العمليات.

فمما لا شك فيه أن دخول الأردن فى حرب مع إسرائيل، سوف يقود جميع دول مجلس التعاون العربى دون استثناء مصر إلى ميدان المعركة، ووجود اليمن يعنى امتداد ميدان القتال إلى جميع أجزاء البحر الأحمر دون استثناء السعودية.

والمشاركة السورية سوف تقوم بدورها إلى موقف ليبى إيجابى، وبطبيعة الحال قد يؤدى ذلك إلى تكتل لجميع القوى المتصارعة داخل لبنان، وهذا يعنى أنه من حيث الواقع

(1) عام 1993 على ما نذكر انفجرت طائرة من طائرات شركة العال الإسرائيلية فوق أمستردام (هولندا) وأصيب عديد من أهل المنطقة بأمراض غير معروفة، وبعد التحقيق تبين أن الطائرة كانت تحمل مواد كيميائية لصناعة غاز الأعصاب، ولم يطالب أحد بمحاكمة المجرمين فى الوقت الذى يحاصر فيه أطفال العراق خشية أن يكون لديهم صناعات كيميائية!!

فإن الحرب سوف تشتعل ممتدة من الخليج حتى باب المندب، بل إن إسرائيل تخطط فى تصوراتها، وكما سوف نرى لما هو أبعد من ذلك، **أى أن توسيع رقعة العمليات لن تكون رغبة عربية بل سوف تكون إكراها إسرائيليا.. لماذا؟**

هذا ما سوف نترك الوثائق تتحدث عنه.

((الاستراتيجية الإسرائيلية الجديدة وخصائصها الحركية))

محور التطور الذى تعيشه العقيدة القتالية الإسرائيلية ونظرية الحرب تنبع من خصائص الاستراتيجية الإسرائيلية، كما تبلورت بصفة خاصة خلال الأعوام الخمسة اللاحقة لحرب لبنان، وبصفة خاصة على يد شارون، رغم ابتعاده شكليا عن القوات المسلحة، لقد حللنا ذلك فى دراسات عديدة نوقشت فى العديد من مراكز التحليل وانتهينا إلى أن هذه الاستراتيجية أى استراتيجية التعامل الميدانى، سوف تنبع من خصائص ست:

أولاً: استراتيجية الخوف.

ثانياً: استراتيجية الفقر.

ثالثاً: استراتيجية اللهفة.

رابعاً: استراتيجية الانتماء.

خامساً: استراتيجية الشك.

سادساً: استراتيجية السلام المخادع.

أول خصائص هذه الاستراتيجية هو موضوع الخوف، لم يعد الجندى الإسرائيلى اليوم هو الرجل المقاتل المتفوق الذى عرفناه فى حرب 1967 هناك تدهور فى أسطورة المقاتل اليهودي بدأت مع حرب 1973، حيث رأيناه خائفا متهالكا، ثم أعقبت ذلك حرب لبنان عام 1982، حيث بدت واضحة ملامح هذا التطور. لقد عاد اليهودي إلى واقعه الحقيقي، قزما فى مواجهة المواقف البطولية، وجاءت الانتفاضة فى داخل الأرض المحتلة، لتؤكد ذلك، ومن ثم فهو فى حاجة إلى سلاح يؤكد تفوقه.

العنصر الثانى: ويرتبط بالنواحى الاقتصادية، الحرب أيضا قدرة مادية وإسرائيل لا تملك تلك القدرة المادية – على الأقل – فى الأمد القريب، وهنا تبرز أهمية السلاح الكيميائى والجرثومى، إنه أكثر الأسلحة رِخَصًا، وعدم تكلفة، ومن ثم فإسرائيل لن تتردد فى الاستناد إلى سلاح غير أخلاقى فى تحقيق أهدافها، طالما كان يتفق مع واقعها.. السلاح الكيميائى غير مكلف ليس فقط لو قورن بالسلاح النووى، بل وحتى بالنسبة

للسلاح التقليدى، دبابة واحده تكلف أضعاف ما يمكن أن يكلفه سلاح كيميائى، خصوصا، **وأن هناك مخزونا هائلا من هذا السلاح لم يعد صالحا للاستعمال، أو بعبارة أدق فقد اكتشف ما هو أكثر صلاحية - ومن ثم تجد الدول المتقدمة وبصفة خاصة الولايات المتحدة وألمانيا، فى حاجة للتخلص منه ولا ندرى كيف يتم ذلك، ومن ثم تقدمها لإسرائيل وفى بعض الأحيان دون مقابل يقال: إن من بين عناصر التعاون الاستراتيجى بين تل أبيب وواشنطن** تخزين هذا السلاح الكيميائى والجرثومى، وسوف نرى فيما بعد التعاون بين تل أبيب ودولة جنوب إفريقيا، وكيف تم التوصل إلى سلاح جرثومى معين لا يستطيع أن يتصور أبعاده العقل البشرى».

كذلك إن استراتيجية اللهفة تؤكد نفس النتيجة. الوقت لا يعمل لصالح الدولة اليهودية إنها تسابق الخوف، والقنبلة الديموقراطية هى فى حقيقة الأمر موقوتة، الإحصاءات الحقيقية عن الواقع السكانى فى داخل إسرائيل غير متوفرة، بل إن البعض يؤكد أن الاختلال الذى نتوقعه فى بداية القرن القادم، وعلى مبعدة عشر أعوام، قد حدث فعلا وأن السلطات الإسرائيلية قد بدأت فعلا فى مواجهة تقرير «كينج» الذى نُشر منذ أكثر من عشرة أعوام يحمل دلالات صريحة. إسرائيل فى عجلة من أمرها، وهى من ثم تريد أن توقف التطور، المتوقع خصوصا وأن الهوة التى تفصل العالم العربى عن الواقع الإسرائيلى من حيث التقدم العلمي، قد بدأت تتقلص، وهى سوف تزداد تقلصا فى الأعوام القادمة.

استراتيجية اللهفة تدعم منها خصائص أخرى جانبية:

أولاً: إن بعض الدول العربية فى نطاق السلاح الكيميائى بصفة خاصة على قسط معين من التقدم، مصر وسوريا على سبيل المثال. من المعروف أن مصر استخدمت هذا السلاح فى اليمن، منذ قرابة ربع قرن، ومن المعروف أيضا أن إمكانياتها بهذا الخصوص متقدمة حرب الخليج أثبتت بما لا يدع مجالا للشك الإمكانيات العراقية.

ثانياً: كذلك من المسلّم به أن تطوير الأسلحة الكيميائية ليس في حاجة إلى قدرة تكنولوجية وعلمية متقدمة، ومتفوقة، جميع الخبراء يسلمون بأن الأسلحة الكيميائية حتى عندما تستخدم كأسلحة استراتيجية لاتتطلب توفر قدرات معقدة، كما يحدث بالنسبة للسلاح النووى.

ثالثاً: ويجب ألا ننسى أنه إذا قدر لمنطقة الشرق الأوسط أن تدخل السباق فى تطوير وإنتاج السلاح الكيميائى، فإن هذا ليس فى صالح إسرائيل، إلا إذا تحقق شرطان أن تكون إسرائيل هى البادئة بالعدوان من جانب، وأن تكون متفوقة بطريقة ساحقة من جانب آخر. والواقع أن إسرائيل هدف سهل المنال فى أى حرب كيميائية أو جرثومية

بسبب تركز سكانها فى قطعة محدودة من الأرض، بل إن هذا الواقع يقف - وكما سبق وذكرنا - ضد تطوير قدراتها القتالية وبالسلاح التقليدى حتى بالنسبة لإنشاء مطارات عسكرية تصلح لشن هجوم قوى بالطائرات المتقدمة المتوقع استخدامها فى الحرب القادمة، فمن المعروف أن مساحة أرض إسرائيل لا تسمح لها بإنشاء أكثر من ثلاث مطارات (1) من هذا النوع، الذى يصلح لاستقبال مثل تلك الطائرات. وعلى إسرائيل أن تُخْضِع استراتيجيتها القتالية لهذا الواقع، وهو التحرك بسرعة ضد الزمن الذى لا يعمل لحسابها».

العنصر الرابع: وهو الانتماء أن إسرائيل تعمل اليوم، وهى تعلم بأن مستقبلها يتوقف على اندماجها فى المنطقة. وهى لذلك لابد أن تسلك سياسة مزدوجة. خلق الخوف من جانب، وإبراز التفوق من جانب آخر، كذلك فهى لايمكن أن تنظر إلى الأراضى المحيطة بها، على أنها أرض معادية، من الطبيعى فى هذا الإدراك أن تميز بين الأرض المحيطة بها وسكان تلك الأرض، فإذا عادت السكان وسعت إلى استئصالهم، فإنها لايمكن أن تعادى الأرض التى فى تصورها هى المستقبل، وهى التوسع. استراتيجية الانتماء إلى تلك الأرض هى عنصر واضح فى إدراكها للتعامل المستقبلى.

استراتيجية الردع بالشك، ليس بالعنصر الجديد فى الإدراك الإسرائيلى للتعامل. هذه السياسة تعتمد إثارة أكبر قسط من الشك والبلبلة لدى القيادات العربية المسؤولة، ومن ثم فى الرأى العام. وسيلتها فى ذلك عدم الإفصاح عن الحقيقة، ثم ترك بعض الأنباء تتسرب بطريقة مقصودة وغير مباشرة، وخلق زوبعة حول تلك الأخبار، بين تكذيب أو تأييد، بحيث تترك الجميع فى حالة شك، بين مصدق ومكذب، استخدمت هذه الاستراتيجية بصدد القنبلة الذرية وهى لابد وأن تستخدمها بصدد السلاح الكيميائى والبيولوجى، بل وصل الأمر إلى الحد الذى جعل الصحافة الإسرائيلية فى لحظة معينة تتحدث عن عاهرات خضعن لتدريب معين من أجهزة المخابرات فى تل أبيب يحملن مرض الإيدز ويتجولن فى شوارع القاهرة، وقبل ذلك عن فئران الموت أطلقت بشكل معين عبر سيناء فى شمال الدلتا أين الحقيقة؟ أين الكذب؟ أين المبالغة؟ أسئلة جميعها فى حاجة إلى قدرات معينة فى التحليل بعد جمع معلومات من مصادرها الحقيقية، وبأسلوب يكاد ينقلنا إلى مستوى التجسس الذى يفترض اختراق الأجهزة الأمنية الصهيونية. **فهل نحن قادرن على ذلك؟**

«علينا أن نضيف أخيراً إحدى الخصائص الأساسية للاستراتيجية الإسرائيلية، والتى تربط تلك الاستراتيجية المستقبلية بتقاليدها، خلال الأعوام العشرة الماضية. لقد وصفناها

---

(1) ومن هنا كان التحالف العسكرى الاستراتيجى مع تركيا واليونان وحلف الأطلنطى وأمريكا لتحقيق عمقا استراتيجيا للقوات الإسرائيلية.

باستراتيجية السلام المخادع، ونقصد بذلك استراتيجية الاختراق السلمى، وهو أمر واضح فى مصر، ولكنه أيضا محتمل التنفيذ فى أكثر من دولة عربية واحدة.

سياسة كامب ديفيد تملك تطبيقات متعددة، ولم تعرف نموذجاً واحداً.

نشرت بعض الصحف الأجنبية أن بغداد تعهدت فى سبيل إيقاف الحرب، بأن تقبل سياسة كامب ديفيد جديدة، ولم يصدر من العراق أى تكذيب بذلك الخصوص، الجوهر فى هذه النماذج المتعددة هو فتح أبواب الاتصال فى هذا الإطار، **يصير السلاح البيولوجى هو الوحيد الصالح للتعامل، هذا السلاح يصير سلاحا مدنيا وليس فقط سلاحا عسكريا، نشر الأوبئة وتسريب المخدرات نماذج واضحة لهذا المفهوم.**

هذه هى الخصائص العامة للاستراتيجية الإسرائيلية القادمة، وقبل أن ننتقل بتحليل كل سلاح أو أداة من أعمدة تلك الاستراتيجية، فنقتصر مؤقتا على عدة ملاحظات:

الأولى: إن هذه الاستراتيجية تفترض التعامل مع جميع دول منطقةالشرق الأوسط العربية دفعة واحدة، إسرائيل فى حربها القادمة لن تترك دولة عربية واحدة من أقصى الخليج إلى صحراء ليبيا دون أن تُدخِلْها فى مسرح عملياتها.

الثانية: إن هذه الاستراتيجية تفترض أن تبدأ إسرائيل ضرباتها فى أبعد الأجزاء المحيطة بحدودها، إنها لن تبدأ بالجيوش المصرية أو السورية، ولكنها سوف تتعامل مع سوريا ومصر والسعودية، وقد يكون الاستثناء الوحيد فى ذلك هو الأردن بشرط ألا تكون واثقة من موقف عمان.

الثالثة: والتى تنبع من هذا التساؤل: هل سوف يحدث فى تلك اللحظة توافق بين تل أبيب وطهران أو أنقرة (1)، على تخطيط معين قد يرتفع إلى حد التحالف أو يقتصر على مجرد خلق نوع معين من الاضطراب المحلى الذى يسمح بعملية شد للأطراف؟ على أن هذه الملاحظات فى حاجة إلى تعميق.

وللحديث بقية..».

---

(1) وقد تم التحالف العسكرى وإجراء المناورات المشتركة بين إسرائيل وتركيا.

المبحث الثانى

((الحرب المقبلة .. والشرق الأوسط))

تحت هذا العنوان كتب د. حامد عبد الله ربيع:

«العقيدة القتالية الإسرائيلية الجديدة تدور حول أربعة عناصر أساسية، البعض منها ليس بالجديد، ولكنه خضع لتطوير كامل، والبعض منها يبرز فقط مع الأعوام الأخيرة مرتبطا بشبكة جديدة من العلاقات الدولية، تجعل من الواقع الإسرائيلى نموذجا جديدا، يكاد ينقطع الصلة بماضيه القريب.

منذ توصلت تل أبيب إلى القنبلة التكتيكية النووية، أخذ بعدا جديدا بل وفلسفة جديدة فى التعامل مع الواقع العربى. أحد مظاهر هذا التطور الجديد ما سبق وذكرناه من أن **الهجوم اليهودى الصاعق المقبل سوف يبدأ بالدول الثلاث البعيدة عن حدودها العراق وليبيا واليمن**. وقد يتساءل البعض. ولماذا اليمن؟ سوف نرى أسباب ذلك فى موضعها.

كذلك التطور العنيف فى السلاح الكيميائى والجرثومى، ليس بالجديد ولكن تحويله إلى سلاح استراتيجى وتكتيكى من جانب، وسلاح عسكرى ومدنى من جانب آخر، هو الجديد الذى تفصح عنه التنظيمات الجديدة والتدريبات الأخيرة للجيش الإسرائيلى.

ولكن من جانب آخر التعامل مع السلاح الصاروخى بفلسفة أساسها التحكم فى القدرة الصاروخية العربية.

متغير جديد فرضته حرب الخليج كذلك تطوير السلاح البحرى والتحكم فى المداخل البحرية، بدوره يعكس نظرة مختلفة، يجب أن تكون موضع التحليل والتقويم.

نقتصر مؤقتا على السلاح النووى، رغم ذلك فعلينا أن نتذكر منذ البداية أنه عقب حرب لبنان ومنذعام 1984 بدأت تظهر واضحة عناصر التفسخ فى مفهوم الأمن القومى الإسرائيلى. هى عناصر، قد تبدو لأول وهلة غير واضحة، ولكنها إزاء التحليل الدقيق تبرز واضحة للعيان، هو الذى يفصح عن حقيقة هذه التناقضات، ويكفى منذ البداية أن نلاحظ

كيف أن مفهوم الأمن القومي الإسرائيلي، ظل دائما - بغض النظر عن مستوياته - هجومي، تسيطر عليه الأبعاد العسكرية، ويستند إلى فكرة التفوق فى القدرة القتالية حيث القناعة بأن اليد التى تجرؤ على أن تفكر فى المساس بالسطوة الإسرائيلية يجب أن تقطع قبل أن تتحرك، بينما المصلحة الحقيقية لـ «إسرائيل» هى أن تقيم وتؤسس وجودها على التعايش والتعامل السلمى، وتقديم الخدمات لدول المنطقة بحيث تصير ضرورية ولازمة للتقدم الحقيقى فى جميع أجزاء هذا العالم، التى تزعم بأنها قد أضحت تنتمى إليه. **إن كثرة الصدامات وزيادة لغة التشنج العسكرى والتهديد ليست فى حقيقة الأمر لصالح إسرائيل، فالعالم العربي قد يخسر معركة أو معارك، ولكنه فى المدى البعيد لابد وأن يكسب حربه ضد إسرائيل**. إن إسرائيل تذكرنا بحرب ألمانيا ضد أوربا، فمهما تفوقت فمصيرها أن تخسر لأكثر من سبب. هذا التناقض الجوهرى لم يبرز فى صورة واضحة فى بعض تيارات الفكر الإسرائيلى، إلا خلال الفترة الأخيرة وهو تناقض أكثر عمقا من مجرد خلاف حول تغليب إحدى وجهات النظر:

أولاً: فهو تناقض حول ترتيب الأولويات.

ثانياً: ثم هو تناقض حول طبيعة المفهوم الأمنى.

ثالثاً: ثم هو تناقض حول أزمة النظام ذاته.

رابعاً: ثم هو تناقض حول مستقبل التعامل مع المشكلة التى يثيرها الوجود الإسرائيلى وأبعاد تعامله مع المنطقة، بوصفه هذا الوجود ينتمى إلى منطقة الشرق الأوسط».

قبل أن نتطرق لهذا الخلافات الدقيقة علينا أن نرصد الفكر السائد فى القيادة العسكرية والنخبة المتحكمة فى صنع القرار العسكرى، والمتعلقة كما ذكرنا فى أكثر من مناسبة بالإجابة على السؤال، **كيف يجب أن نحارب**؟ أى كيف يجب أن تحارب إسرائيل؟.

السلاح النووى والعقيدة القتالية.. أول عناصر العقيدة القتالية الإسرائيلية، عنصر السلاح النووى، ليس هذا موضع تحليل المشاكل العديدة التى يثيرها الخيار النووى، إلا أن مجموعة من الحقائق لم تعد موضع مناقشة:

الحقيقة الأولى: إن معلوماتنا المتوفرة والمتداولة بخصوص السلاح النووى الإسرائيلى على وجه الخصوص، لا تساوى قلامة ظفر؛ إنها قديمة من جانب، وهى لم تخضع لتحليل جدى، حيث يتوفر السياسى المختص، والعلمى النابغ، ثم العسكرى الميدانى من جانب آخر.

. ولنقدم مثالاً خرجت علينا الصحافة تهلل وتبشر بخصوص ترجمة كتاب «بيتر براى» عن الترسانة النووية الإسرائيلية (انظر: الشعب القاهرية بتاريخ 1989/4/25) وتصفه بأنه

كتاب جديد يكشف عن حقائق مذهلة. هذا الكتاب طبع بتاريخ 1984 وتنتهى معلوماته عند عام 1982 وليس من مصادره المنشورة والمرتبطة بالموضوع ما يتجاوز عام 1981بصدد هذا الموضوع مع ما يفيد من خطورة بالغة. وسوف نرى بعض مظاهر هذا النقص التى قلبت الأمور رأسا على عقب، وبصفة خاصة بالنسبة للتوصل إلى القنبلة الذرية التكتيكية».

((**الحقيقة الثانية**: إن إسرائيل تملك القنبلة النووية، ومنذ فترة غير قصيرة السلاح النووى داخل الترسانة العبرية منذ فترة غير قصيرة، وهى تملكه على الأقل منذ حرب أكتوبر وكانت قادرة على استخدامه فى أثناء تلك الجولة، وهى اليوم وطبقا لتقارير أكثر الخبراء حيادا عقب الأنباء التى سربها فانونو والتى خضعت لتحليل متكامل، وبصفة خاصة بفضل بعض الصور التى قدمها الفنى الإسرائيلى المذكور، فإن إسرائيل تملك اليوم ما يزيد على 250 رأس نووى، بل إن إسرائيل - حاليا - تملك القدرة على إنتاج قنابل نيوترونية.

الحقيقة الثالثة: إن سياسة إسرائيل النووية، ظلت حتى اليوم تقوم على أسس ثلاثة:

الأولى: من جانب الغموض حول امتلاك إسرائيل للقنبلة النووية، فهى تارة تترك أخبارا تتسرب عن امتلاكها لتلك القنبلة، سرعان ما تكذبها المصادرالرسمية، حتى أن اعترافات العامل الفنى السابق ذكره، البعض بل والكثير من المعلقين يعتبرها من قبيل الإخراج المسرحى، والسبب فى ذلك واضح، فالسياسة الإسرائيلية تستخدم هذا السلاح، وما يثار حوله وسيلة لخلق البلبلة والاضطراب فى الجانب العربى، ثم هى تستخدمه أداة للابتزاز.

الناحية الثانية: أنها تعتبر القنبلة سلاحا للردع، وليس للممارسة ولعل ما يؤكد ذلك سلوك السلطات المسؤولة فى تل أبيب أثناء حرب أكتوبر، لقد هددت به وباستخدامه، وبذلك استطاعت وبسرعة أن تحصل على سلاح وفير ومتقدم من واشنطن.

الناحية الثالثة: وهى أن إسرائيل مصممة على أن تظل صاحبة الاحتكار الوحيد لهذا السلاح فى منطقة الشرق الأوسط، ولذلك فهى فى نفس اللحظة التى تساعد فيها وتقدم معونتها الفنية لبعض دول العالم الثالث «كتايوان» فهى مصممة على ألا تسمح لأى دولة عربية أن تملك تقدما فنيا فى هذا المجال. تدمير المفاعل النووى العراقى بالقرب من بغداد، يدخل فى هذا النطاق واحتمالات تدمير أى محاولة لإعادة بناء ذلك المفاعل فى المستقبل، يجب أن تؤخذ بكثير من الجدية».

((**الحقيقة الرابعة**: السلاح النووى سوف يدخل - إن عاجلا أم آجلا - منطقة الشرق الأوسط، وسوف تستطيع دول عربية عديدة أن تمتلك هذا السلاح، سواء من خلال تطوير قدراتها الذاتية أم بشرائه من دول أخرى إسلامية أو غير إسلامية، أو بالحصول عليه من

السوق الدولى للسلاح من الدول المرشحة لإنتاج القنبلة الذرية، إلى جوار مصر هناك العراق وليبيا، بل البعض يعتقد أن العراق عقب انتهاء حرب الخليج (الأولى بين العراق وإيران) وبفضل المساعدات السخية السعودية والتعاون المصرى، والاتفاقيات بين بغداد وكل من الأرجنتين والبرازيل سوف تملك هذه القنبلة خلال خمسة أعوام، بل وسوف تملك كل ما تحتاجه لتدمر به أجزاء عديدة من إسرائيل، فهل ستقف تل أبيب منتظرة أن تصاب بالضربة الأولى؟ وما هو أهم من ذلك؟ ما هى نتائج انتشار السلاح النووى فى المنطقة، هل هو تحييد للسلاح فلا يستخدم من أى الجانبين؟ أم التصعيد بحيث لابد وأن يستخدم إن آجلا أم عاجلا من جانب أحد الطرفين، ولا يجوز أن ننسى أن طهران بدورها بدأت تعد نفسها لاستخدام هذا السلاح». (1)

((**الحقيقة الخامسة**: استخدام السلاح يفترض أمرين:

الأول: القنبلة أو المادة المتفجرة والتى نستطيع أن نصفها بالسلاح النووى.

الثانى: أداة نقل هذه المادة إلى موضع الخصم المراد إصابته التفكيرالسائد هو الطائرة التى تسمح بالوصول إلى الهدف وبإصابته بدقة، ولكن هناك وسيلة أخرى بدأت تطغى فى الفكر العسكرى لأسباب معينة وهى الصاروخ، وهذا يفسر الترابط الواضح بين السلاح النووى والسلاح الصاروخى.

السلاح النووى بين الردع والممارسة:

استخدام السلاح النووى من جانب إسرائيل فى صورته التقليدية، يفترض توفر ثلاثة شروط: أن تكون هناك حرب قد هزمت فيها إسرائيل، ثم أن تكون الهزيمة قد وصلت إلى حد لم يعد من الممكن بخصوصه إلا الاستئصال أى استئصال الوجود العبرى كدولة وكنظام سياسى من المنطقة، وأخيراً أن تكون القوى الدولية العظمى - وبصفة خاصة - موسكو وواشنطن قد أعلنت أو أظهرت إرادة التخلى عن إسرائيل، مثل هذا الافتراض على الأقل فى الوقت الحاضر وإلى فترة قادمة طويلة يستحيل تصوره.

على أن هناك أمراً آخر لابد وأن يقلب جميع الموازين بالنسبة للسلاح النووى، كشفت عنه التحقيقات الصحفية، وهو يدور حول امتلاك إسرائيل لقنابل ذرية تكتيكية تستخدم للتدمير فى مساحات محددة، الواقع أن هذا النوع من السلاح تملكه الدولتان الأعظم، ومنذ فترة غير قصيرة؛ وهو يسمح باستخدام السلاح بقسط معين من الطمأنينة سواء

---

(1) من أجل هذا استدرج رئيس العراق لغزو الكويت، من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ذلك كافيا لإشعال حرب الخليج الثانية، وتدمير قوة العراق العسكرية، وتمزيقه واحتلال أراضيه.

وهنا نتساءل هل تفجير هذه الأزمة بهدف إجهاض القوى العربية المتنامية جاء نتيجة استفادة القوى الاستعمارية والصهيونية بمقالات العالم المصرى حامد ربيع؟؟ فى الوقت الذى لم تستفد الأمة منها؟

بالنسبة لانتقال الإشعاعات الذرية إلى مسافات بعيدة، تهدد غير أراضى العدو سواء بالنسبة للطائرات التى تحمل هذه القنابل، حيث تستطيع العودة إلى قواعدها بقسط معين من الأمان، ولكن ما تكشف عنه الصحافة المتخصصة فى الفترة الأخيرة، وبصفة خاصة منذ العام الماضى هو التعاون الوثيق بين إسرائيل واتحاد جنوب أفريقيا الذى قاد إلى إمكانية إنتاج هذه القنبلة التكتيكية النووية».

«والواقع أن بدء التساؤل بهذا الخصوص كان فى أواخر عام 1979 سبتمبر، عندما سجلت أجهزة الرصد، حدوث برق ضوئى ساطع فى عرض البحر، بالقرب من الطرف الجنوبى لدولة جنوب إفريقيا، وقد رجح فى وقته الخبراء أن سبب هذا البرق الضوئى هو اختبار قنبلة ذرية، ثم كشفت عقب ذلك مصادر المعلومات وصول عقب هذا الانفجار مباشرة وفد عالى التخصص من إسرائيل إلى جنوب إفريقيا، وظلت المعلومات تتواتر وتتجمع حتى خرجت علينا مجلة «دير شبيجل» أواخر العام الماضى بمقال كتبه إسرائيلى وأستاذ فى جامعة تل أبيب يكشف عن حقيقة «التعاون بين الدولة اليهودية واتحاد جنوب إفريقيا، والذى كان أحد أبعاده إنتاج هذه القنبلة التكتيكية.

قبل أن نحدد خصائص القنبلة الجديدة وأثرها على تطوير المفاهيم القتالية الإسرائيلية، علينا أن نتذكر أن هناك مدركات سائدة فى العالم العربى جميعها خاطئة وآن الأوان لأن تخضع لتصحيح جذرى:

أولاً: أول هذه المفاهيم الخاطئة أن الدول النووية ملتزمة بعدم انتشار السلاح النووى وهى من ثم تقف من السياسة النووية الإسرائيلية موقف التحفظ، إن لم يكن الرافض.

هذا المفهوم الخاطىء لاينطبق فقط على فرنسا، بل وكذلك على الولايات المتحدة. فرنسا تساعد إسرائيل بجميع الوسائل لتدعيم قدرتها النووية، حتى أن الرئيس «ميتران» فى لحظة معينة وعد تل أبيب بمفاعل ذرى ضخم تسدد نفقاته بتقديم إنتاجها، أى إنتاج إسرائيل من علب السردين كذلك، فإن الولايات المتحدة تسند إسرائيل وتقدم لها جميع التسهيلات بهذا الخصوص، ولا يجوز أن تخدعنا التصريحات العكسية.

ثانياً: القناعة بأن استخدام السلاح النووى فى المنطقة مقيد باعتبارات دولية، مرد ذلك القناعة أو بعبارة أدق السذاجة العربية، بأن هناك رأيا عاما دوليا يستطيع أن يمارس قوة ضاغطة على الإرادة الإسرائيلية فكرة خاطئة، وقد أثبتت الأحداث أن الرأى العام الدولى لا وجود له، وأنه إن تحرك الرأى العام فعندما تصيبه الأحداث، وليس عندما يصاب الآخرون، وقد أثبتت ذلك حرب الخليج، ضرب بغداد بالصواريخ، وكذلك ضرب أكثر من مدينة واحدة إيرانية، لم يحرك ساكناً فى مستنقع الرأى العام الدولى.

ثالثاً: المفهوم الخاطئ الآخر أن نفقات القنبلة الذرية مخيفة، لا تتحملها ميزانية الدول الصغيرة والفقيرة، نعم لا شك فيه أن هذه حقيقة، ولكنها نسبية وإن هناك من السلاح التقليدى ما هو أكثر تكلفة من السلاح النووى. مما لاشك فيه أن السلاح الكيميائى أقل تكلفة، ولكن هذا لايعنى أن السلاح النووى هو الأكثر تكلفة، فالطائرة المقاتلة ميراج 2000 تكلفتها خمسة أمثال تكلفة عجلة إطلاق صاروخ بلاستيكى متوسط المدى، وسفينة سيطرة بحرية تقليدية لايقل ثمنها عن ثمن ثلاثة غواصات نووية».

القنبلة التكتيكية الإسرائيلية وخصائصها:

«القنبلة النووية التكتيكية التى توصلت إليها إسرائيل بالتعاون مع جنوب إفريقيا تتميز بخصائص معينة بحيث يمكن تحديد مواصفتها كالتالى:

أولاً: قوتها التدميرية لاتتجاوز 2 كيلو طن، وهو الأمر الذي يعنى أن حدودها المكانية من حيث التدمير لن تتجاوز (خمسين كيلو متراً مربعاً) أى مساحة لا تتجاوز من حيث اتساعها (سبعة كيلو مترات طولاً فى سبعة كيلو مترات عرض). فإذا أضفنا إلى تلك المساحة عشرة أمثالها من قبيل الاحتراز لفهمنا إلى أى مدى تستطيع إسرائيل أن تستخدمها فى أى حرب قادمة، ودون أن تخشى على نفسها؛ ولفهمنا لماذا سوف تكون الخطوة الأولى فى الحرب القادمة ضرب الدول الثلاث البعيدة عن حدودها: العراق وليبيا واليمن.

ثانياً: هذه القنبلة يمكن إطلاقها من مدفع (هاوتيس من عيار 155 ملليمتر) أو من مدفع محمول على متن سفينة أو من صاروخ جو أرض.

مثل هذا التطور يقلب رأسا على عقب جميع الاحتمالات.

ولعله مما يدعم هذا القول، اختفاء الصراع الفكرى فى الفقه العسكرى الإسرائيلى حول استخدام القنبلة الذرية من عدمه منذ عدة أعوام.

فالفكر العسكرى الإسرائيلى، وحتى وقت قريب كان منقسما بين ما يسمى بالصقور من جانب والحمائم من جانب آخر، حول استخدام القنبلة الذرية فى الصراع العربى الإسرائيلى من جانب تل أبيب.

الكلمة الغامضة التى كانت تَرِدْ على لسان المسؤولين هو أن إسرائيل لن تكون الدولة الأولى فى إدخال السلاح النووى فى منطقة الشرق الأوسط، تعبير غامض يسمح بجميع الاحتمالات والتفسيرات، ويمكن القول بصفة عامة أن المنظرين العسكريين فى إسرائيل يتفقون على استخدام السلاح الذرى فى حالتين، هجوم عسكرى مكثف مشترك من الجيوش العربية المتحالفة، الأمر الذى يُعرِّض الوجود الإسرائيلى ذاته للخطر، والحالة

الثانية هى اتخاذ واشنطن قراراً بقطع الولايات المتحدة للمساندة بالسلاح التقليدي لإسرائيل، كلا الافتراضين يدخلان فى نطاق ذلك الإطار الفكرى، الذى سبق وعرضناه بخصوص إمكانية استخدام السلاح النووى».

«ولكن فيما عدا ذلك فإن الفقه العسكرى الإسرائيلى انقسم إلى فريقين: الصقور من جانب، التى تطالب بالتوسع فى استخدام السلاح النووى، والحمائم التى ترفض ذلك وتقف من هذا الرأى موقف المعارضة وبشدة، كل من الفريقين يقدم حججه رغم اتفاقهما على النقط الأساسية السابق ذكرها.

وجهة نظر الفريق الأول أى فريق الصقور تستند إلى الحجج التالية:

أولاً: إن التطور النووى فى الوقت الحاضر قد دخل فى بعض الدول العربية ولم تعد إسرائيل هى المتحكمة فى انتشار واستخدام القنبلة الذرية فى المنطقة.

ثانياً: كذلك فإن أغلب القيادات المسؤولة فى العالم تعتقد عن قناعة أن إسرائيل تملك حالياً تلك القنبلة النووية، وهذه القناعة لم تعد فى حاجة إلى أى حجة جديدة لتؤكد احتمال صحة الافتراض.

ثالثاً: كذلك فإن قدرة إسرائيل النووية سوف تقود إلى دبلوماسية أكثر توفيقية، وبقدر ازدياد هذه القدرة بقدر تضاؤل مسألة العمق الاستراتيجى وتحولها إلى أمر محدود الأهمية.

رابعاً: أضف إلى ذلك أن التهديد النووى سوف يخفف من عبء الإنفاق العسكرى بصدد الاحتفاظ بقدرة تقليدية لمواجهة الجيوش العربية، بل إنه بمعنى معين سوف يقلل من التبعية العسكرية المطلقة لإسرائيل فى مواجهة الولايات المتحدة.

هذه الحجج طرحها أطراف التشدد الذين ظلوا حتى عام 1975 يمثلون الفريق السائد فى المؤسسة العسكرية، ولكن وبصفة خاصة فى أعقاب اتفاقية فك الاشتباك الثانى، بدأت تظهر نغمة جديدة تمثل العكس لهذا التوجه، ولو فى حدود معينة، أنصار هذا التوجه والذين يوصفون بالحمائم النووية يناقشون هذه الحجج، واحدة وراء الأخرى، ليصلوا إلى موقف يختلف عن موقف الصقور فى بعض عناصره:

أ – فمهما كانت الحجج المتعلقة بانتشار السلاح النووى فى المنطقة، فطالما أن إسرائيل لم تستخدم هذا السلاح، فهى تظل غير مسؤولة عن التطور الذى لابد وأن يقود إليه مثل هذا الواقع.

ب – كذلك فطالما أن هناك شكًا حول قدرة إسرائيل النووية فإن الضغط من الجانب العربى بهذا الخصوص يمكن مقاومته.

جـ - إن الاستراتيجية النووية والتى تعنى فى طبيعتها التدمير الشامل، ليس هو الإجابة المعقولة والمقبولة فى الإطار الحالى للتعامل لنتصور على سبيل المثال هجوما على إحدى الكيبوتزات».

د - السلاح النووى يفترض تهديدا متجانسا ومركزا، وهو أمر غير متوقع فى منطقة الشرق الأوسط، العديد من الأطراف يهددون إسرائيل، ولكن دون أن يرتبط ذلك التهديد بحساب محدد لأى تعبير عن العنف ونتائجه؟

هـ - وأخيراً فإن الخيار النووى سوف يقلص من قدرة إسرائيل على الحركة، وبصفة خاصة أمام الولايات المتحدة، فإسرائيل وهى لا تملك القدرة النووية تستطيع أن تبرر أى حركة عسكرية إجهاضية ضد أى تجميع للعدو وهى - أى إسرائيل - تضمن أيضا فى تلك اللحظة استمرار المساندة بالسلاح التقليدى من جانب واشنطن.

هذا الخلاف الفكرى اختفى منذ قرابة خمسة أعوام، ورغم أن الخلاف بين الصقور والحمائم كان شكليا أكثر منه موضوعيًا، حيث سبق ورأينا عناصر معيّنة حولها يتفق الجميع، إلا أن هذا الخلاف حَولَ الشكل اختفى نهائيا ولم تعد تثار مسؤولية إسرائيل فى إدخال السلاح النووى فى منطقة الشرق الأوسط، هل مرد ذلك التوصل إلى الحصول على القنبلة النووية التكتيكية؟ من مزايا هذه القنبلة:

أولاً: إمكانية استخدامها دون خوف من إصابة الأرض الفلسطينية التى تعيش عليها إسرائيل أو تلك المحيطة بها مباشرة لأى آثار وإصابات، كما يمكن أن يحدث لو استخدمت القنبلة الذرية الاستراتيجية.

ثانياً: هذه القنبلة يمكن أن يسلح بها سواء الجيش البرى أو البحرى أو الجوى، بل أى فرقة من الجيش البرى، إنها تصير سلاحاً تكتيكيا معتادا، ولا يعنى استخدامه فى الحرب الكلية الشاملة.

ثالثاً: إنه فى مواجهة هذه القنبلة لا يملك العالم أى سلاح آخر لمواجهته، بل إنها تتفق مع الأهداف الخفية التى تسيطر على القيادات البيضاء فى مواجهة الشعوب الملونة والتى سوف نرى بعض مظاهرها فى استخدام السلاح الجرثومى.

رابعاً: إنها وبصفة خاصة تسمح بانتقال السلاح النووى، من مجرد الردع أو خلق حالة الرعب بالشك والخوف، إلى إمكانية الممارسة الفعلية، هذا السلاح هو الذى يفسر إلى جانب متغيرات أخرى سوف نعرض لها فى موضع آخر، بخصوص الأسلحة الأخرى لماذا سوف تكون المرحلة الأولى فى الحرب القادمة بضرب الأطراف العربية؟ وليس القلب فى معناه الضيق، أى العراق وليبيا واليمن، عقب ذلك سوف تتجه القوات الإسرائيلية إلى

الأجزاء المحيطة مباشرة بالحدود الإقليمية، وبصفة خاصة سوريا ومصروالسعودية والأردن سوف تحمل كلا الافتراضين، على أن التفصيل في هذه الناحية سابق لأوانه وسوف نعود له في موضع لاحق».

((السلاح النووى والسياسة النووية)):

ما يعنينا أن نؤكد عليه مؤقتا مجموعة من الحقائق:

أولاً: إن استخدام القنبلة النووية التكتيكية، يقترن بحقيقة القرن الواحد والعشرين والذى أساسه تقليص دور كلا الدولتين الأعظم، فى التحكم فى القوى الإقليمية من جانب وتخلى الاتحاد السوفيتى عن دوره فى الصراع العربى الإسرائيلى من جانب آخر، وهى متغيرات جميعها سوف تدفع القيادة الصهيونية إلى المبالغة فى التصلب (1) والمغامرة.

ثانياً: إن اكتشاف هذه القنبلة وتحويلها إلى سلاح فعال، سوف يشجع القيادة الإسرائيلية على تسريب القناعة بأن الصدام مع البلاد العربية أمر حتمى، إن آجلا أو عاجلا. ولابد من حرب استئصالية، وخير لإسرائيل أن تدخل تلك الحرب فى اللحظة التى تصل فيها إلى أقصى قوة لها (2)، والتى لاتزال بخصوصها البلاد العربية لم تتخط حالة الفُرْقة والخلاف والضعف التكنولوجى، البحث عن تلك اللحظة هو الوظيفة الحقيقية للاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية.

ثالثاً: انتشار النشاط النووى، وقد أضحى قدراً محتوما على جميع الدول المتقدمة والنامية مرتبط ارتباطا تاما وعضويا بالسلاح النووى. إن أى نشاط نووى على قسط معين من الأهمية – يعنى قدرة ولو محددة – على تصنيع السلاح النووى، وقد أثبتت تلك التحليلات الأخيرة عن الوضع فى اليابان، فهى قادرة فى عدة أشهر قليلة، على أن تتحول إلى دولة عسكرية نووية، وإذا كانت الدول المتخلفة لن تستطيع أن تصل إلى هذا المستوى، فهى قادرة – على الأقل – على أن تنتج السلاح النووى ولو غير النظيف.

رابعاً: إن التوازن الدولى بصدد استخدام القنبلة الذرية، ليس هو التوازن الإقليمى، ومن ثم فإن التعامل مع السلاح الذرى فى علاقته بالتوازن الإقليمى، ليس هو التعامل مع السلاح الذرى فى علاقة التوازن الكلى الشامل. التوازن الإقليمى، معناه: حدود معينة حيث الدولة التى تستخدم السلاح تخضع لنتائج استخدام السلاح، بينما فى التوازن الدولى الذى يصير أمراً متعلقاً بجميع أجزاء الكرة الأرضية، فإن نتائج الإشعاع الذرّى تكون قاصرة على حدود معينة، ومن ثم تثور مشكلة من يستطيع ويملك القدرة على الضربة».

---

(1) يدخل فى هذا رفض إسرائيل المبادرة الأمريكية، وضرب الحائط باتفاقيات أوسلو وغيرها.

(2) والظروف الحالية فعلا مواتية للعدو اليهودى، فهل ننتبه قبل فوات الأوان؟

المبحث الثالث

منطقة الشرق الأوسط
والإدارة العربية والحقائق الجديدة

((المحور الأول: الجسد العربى وعنا صر قوته))

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«كل من يتعرض لتحليل الفكر العسكرى الإسرائيلى المعاصر، والذى تبلور خلال الأعوام الخمسة الماضية، وبصفة خاصة عقب حرب لبنان عام 1982، عليه أن يُدخل فى الاعتبار مجموعة من المتغيرات التى وحدها تسمح بفهم حقيقة هذا الفكر وموقعه من التحولات التى تعيشها منطقة الشرق الأوسط العربية، والذى سوف يتعين علينا أن نتعامل معه خلال الأجيال القادمة. العقلية العسكرية الإسرائيلية المعاصرة 1989 تكاد تكون منقطعة الصلة بتلك التى ظلت تسيطر على قيادة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية حتى وقت قريب.

كيف ولماذا؟

أولاً: قيادة المؤسسة العسكرية، والتى ظلت تسيطر على الجيش الإسرائيلى حتى حرب 1967 كانت قيادات تنبع من تراث أيديولوجى. إنها قيادات صَهَرَها الصراع السياسى والحزبى قبل أن تصل إلى موقع المسؤولية فى الحياة العسكرية. وهى لذلك فى قناعاتها تنبع من متغيرات أيديولوجية، جاءت إلى ممارسة القتال عقب أن تكونت، وقد كرستها الخبرة الصدامية فى صفوف الحزب أو الأحزاب السياسية. هى قيادات تنطلق من الصهيونية التقليدية، فى أقصى مراحل تماسكها ومن الانتماء الحزبى فى أقوى مراتب تكامله. قيادة المؤسسة العسكرية اليوم تتحكم فيها تقاليد المهنة أى مهنة الجندى المقاتل. فالصهيونية تعانى أزمة من جانب الأحزاب، وقد ضعفت هيبتها من جانب آخر، ولكن ما هو أهم من ذلك، أن هذه القيادات تكونت أولا فى الحياة الجندية وصقلتها تقاليد الممارسة القتالية. وليس علينا بهذا الخصوص سوى أن نقارن بين «موشى ديان» و«شارون». **الأول**: هو سياسى يمارس القيادة العسكرية. **والثانى**: وهو رجل المهنة العسكرية بكل

خصائصها، وهو يتعامل مع السلطة السياسية. المؤسسة العسكرية اجتازت ما بين 1973-1982 فترة انتقالية لم تبرز فيها واضحة هذه التطورات، ولذلك كانت الهزائم، ولكنها اليوم قد انتهت من مرحلتها الانتقالية، وأضحت تملك مؤسستها العسكرية بكل تقاليدها المهنية التى تقودنا إلى مفهوم الدولة العصرية بمعناها الحقيقى».

ثانياً: على أنه من جانب آخر وخلافاً لما نلحظ من تطور عام معاصر، فإن الفكر الصهيونى يتميز خلال الفترة التى نعيشها بالانفصال والاستقلالية التى تكاد تكون مطلقة بين الفكر السياسى والفكر العسكرى. هذا الانفصال يخالف التقاليد التى تعيشها الدولة المعاصرة، حيث نلحظ ذلك التزاوج المختلف الأبعاد بين النوعين من أنواع الفكر القومى. الفكر العسكرى الإسرائيلى يكاد يعيش فى عزلة مطلقة، إزاء الفكر السياسى الصهيونى. والواقع أن الملاحظة الدقيقة تطرح ظاهرة عدم الثقة من الجانب العسكرى فى الفكر السياسى. هل مرد ذلك أن الفكر الصهيونى السياسى لم يستطع أن يتخطّى أزماته، وهو يترنح فى مواجهة تناقضات لايزال يتهرب من التعامل معها باسم الصهيونية الجديدة؟ تلقيح الفكر العسكرى الإسرائيلى بالفكر السياسى لا وجود له، بل نستطيع أن نلمس بوضوح وجود حائط شاهق يفصل بين كلا هذين المستويين من مستويات الفكر فى الدولة العبرية.

ثالثاً: وذلك رغم أن حقيقة التركيبة السياسية فى «إسرائيل»، تقوم على أساس تحالف ثلاثى: الكتلة الدينية من جانب، والتوجه المحافظ من جانب، وقد ربطها بحبال متينة من التفاعل، والجيش ورجال المؤسسة العسكرية.

القوى الثلاث تريد التوسع: الأولى استجابة للنبوءة الدينية (1)، والثانية لتخلق لنفسها أسواقاً جديدة، أما الجيش فهو فى قناعته الدفينة يريد تحقيق انتصارات وفتوحات عسكرية. هذه العلاقة الوثيقة والتى تفسر هذا الانقلاب الصامت، رغم ذلك تحدد نطاق التحالف. فالعسكريون لاتعنيهم من النبوءة الدينية إلا أنها أساس لشرعية التوسع. وتحالفهم مع اليمين المحافظ، مرده توافق مؤقت فى المصالح. ولذلك فالمؤسسة العسكرية ليست فى حاجة إلى أى انقلاب عسكرى تصل فيه تلك المؤسسة إلى السلطة، ولكن إلى متى؟

---

(1) ما جاء فى التوراة – المحرفة – فى سفر التكوين 18/15: [وعقد الرب مع إبرام عهداً لنسلك أعطى الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات]. وإبرام (هو إبراهيم عليه السلام) رسول مسلم وكان دعاؤه الدائم: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾. فالذى يرث إبرام عليه السلام نسله المسلم. يقول رب العالمين: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾، وذلك دليل بنص التوراة إن ورثة فلسطين هم المسلمون وليس اليهود؛ لأن الكافر لايرث مسلماً.

رابعاً: على كل فإن النقطة التى يجب أن تسترعى الانتباه هى: الفكر العسكرى بهذا المعنى ورغم اعتماده على الأسطورة التاريخية إلا أنه لا يتقيد بها. ورغم دعواه بما يسمى أسطورة الشعب المختار، إلا أنه يتميز بالنظرة الواقعية القريبة المدى، مع تحديد واضح للأهداف. وهو فكر واقعى، لأن ما يعنيه أساسا هو النجاح ولا تثير فى نفسه أية دوافع مرتبطة بالمثاليات والقيم، أى اهتمامات وهو لا يلقى بنظره إلى المستقبل البعيد. بل يحدد إطار حركته بالقائم، وبما يعنيه ذلك القائم خلال الأعوام القليلة القادمة. وهذا يرتبط بوضوح أهدافه وتحديدها بدقة متناهية، حيث لا يترك الاحتمال يحدد مساراته الفكرية.

هذه الخصائص هى التى تميز الفكر العسكرى الإسرائيلى المعاصر، وتجعله يقدم مذاقا مختلفا ومتميزاً عن ذلك الفكر العسكرى الذى تعودناه. ولعل القارئ لابد وأن يتساءل: وهل لدينا فى **الجانب العربى فكر عسكرى** يستطيع أن يناطح ويتحدى ويتصدى لمثل ذلك الفكرالإسرائيلى؟

سؤال نتمنى أن يثير فى الذهن العربى بعض علامات الاستفهام، ولكنه لا يدخل فى نطاق هدفنا من هذا التحليل. طرحناه فى بُعده الإسرائيلى، لنفهم كيف أن هذ الفكر الصهيونى لاينطلق من فراغ ولكن يبدأ وهو يحدد أسلحته الهجومية التى رأينا أحدها وهو القنبلة النووية التكتيكية، ويبدأ وهو يحدد ميدان المعركة التى يتعين على المقاتل أن يحتضنها، ويشل حركتها بذراعيه، وهو لا يتردد فى أن يطرح تساولاً خامساً ومسبقاً وهو:

ما هى خصائص هذه المنطقة التى سوف يقف يسرح ويمرح فيها محاولاً إخماد أى قدرة فاعلة فى أى من جنباتها؟ هذا التساؤل يتضمن فى حقيقة الأمر ثلاثة من الاستفهامات فى آن واحد.

الاستفهام الأول: ما هى خصائص منطقة الشرق الأوسط العربية، كما أفرزتها الأعوام لتحولها بأجمعها إلى لقمة سائغة يسهل ابتلاعها؟

الاستفهام الثانى: خصائص الأرض التى سوف تدور عليها المعركة، كميدان للتعامل العضوى. وهذا الاستفهام يرتبط مباشرة بالسؤال الذى هو من اختصاص الفكر العسكرى: كيف يجب أن نحارب؟»

((**الاستفهام الثالث**: خصائص القيادة التى سوف يتعين على الجيش الإسرائيلى أن يناطحها ويتعامل معها خلال الحرب القادمة، هذا التساؤل بدوره يدخل ضمن المفهوم الاستراتيجى للتعامل.

فلنقتصر على الإجابة على السؤال الأول، تاركين الأسئلة الأخرى لنعود لها فى

موضعها الملائم».

((منطقة الشرق الأوسط العربية والحقائق الجديدة:

الفكر العسكرى الإسرائيلى، يسلم بأن منطقة الشرق الأوسط العربية تعيش فترة مخاض حقيقى، وهو يسلم بأن الظواهر التى تحيط بنا خداعة.

إنها تخلق القناعة لأول وهلة بأن هذه المنطقة تجتاز مرحلة ترهل وتحلل. وهذا صحيح، وأن القيادات فى المنطقة متعفنة وهذا أيضا صحيح، ولكن خلف ذلك هناك حقائق لاتراها إلا العين الفاحصة (1). وهى بقدر كونها إيجابية للجانب العربى، بقدر كونها سلبية، ليست فى صالح إسرائيل، الوقت لا يلعب لصالح الدولة اليهودية. هذا ما تلمسه القيادة العسكرية الإسرائيلية بوضوح وهى ترصد وتحلل بخبرة ودقة.

نقطة البداية هى طرح هذا التساؤل: ماذا حدث خلال الأعوام العشرة الماضية ابتداء من اتفاقيات «كامب ديفيد» حتى إيقاف إطلاق النار فى منطقة الخليج؟ ما هى الوقائع الحاسمة التى تحكمت فى أحداث تلك الحقبة؟ وما هى الدلالات الخفية المستترة خلفها؟ والتى يجب أن تدعو القيادة الإسرائيلية للتعامل بمنطق جديد ومختلف مع هذا الواقع الذى قد يبدو لأول وهلة أنه يعكس استمرارية لما سبق، بينما هو فى حقيقته إعلان لواقع جديد؟

يتوقف المحلل بهذا الخصوص إزاء عشرة وقائع أساسية:

أولا: فشل سياسة السلم مع مصر.

ثانياً: فشل خطة التفريغ للجسد العربى من عناصر القوة.

ثالثاً: بروز صلابة عرب الأرض المحتلة.

رابعاً: التطور الواضح فى العناصرالقيادية العربية.

خامساً: نجاح المقاتل العراقى.

سادساً: التوجه الثابت نحو التعاون الإقليمى.

سابعاً: تضخم القدرة العربية التسليحية.

ثامناً: بروز ضعف كفاءة العنصر البشرى فى الجيش الإسرائيلى.

تاسعاً: التحول الواضح فى دول الجوار الجغرافى.

عاشراً: تخلى الرأى العام الدولى عن إسرائيل.

(1) هذا ما دعانا إلى إعادة نشر فكر الدكتور حامد عبد الله ربيع واللواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل، والدكتور جمال حمدان، ورجاء جارودى.

متابعة هذه الوقائع المختلفة تفصح بوضوح عن حقيقة الإطار الفكرى، الذى يتعين على القيادة العسكرية الإسرائيلية أن تتعامل معه خلال الأعوام القادمة، وكيف تصوغ نظرتها لذلك التعامل »

((مصادر التهديد للأمن الإسرائيلى:

لنستطيع أن نفهم حقيقة الفكر العسكرى الإسرائيلى، يجب أن ننطلق من تساؤل أساسى يطرحه ذلك الفكر بصراحة ووضوح:

ما هى مصادر التهديد للأمن الإسرائيلى بالمعنى الضيق، أى بالمعنى العسكرى؟ والتى على القيادة المسؤولة أن تضعها فى قمة أولوياتها؟

مصادر التهديد للأمن الإسرائيلى بالمعنى العسكرى ثلاثة:

أولاً: التهديد اليومى والذى مصدره أحداث المقاومة والرفض العنيف، سواء كان مصدر ذلك عمليات تسلل من الخارج أو عمليات عصيان مدنى من أبناء المنطقة، الذين لا يزالون يقيمون تحت السلطة الفعلية الإسرائيلية (فى إسرائيل فى الأرض المحتلة، فى جنوب لبنان).

ثانياً: التهديد العسكرى الذى قد يصدر من أحد الجيوش العربية المحيطة بالأرض التى توصف بأنها إسرائيلية.

ثالثاً: التطويق العسكرى الذى يعنى تجميع جميع دول المواجهة فى إطار واحد من التعامل العسكرى والسياسى، وهو أمر لم يحدث حتى اليوم فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى.

المصدر الأول للتهديد: فى ذاته لايمثل خطورة حقيقية. تعودت إسرائيل أن تبالغ فى خطورة هذا المصدر للتهديد، ولكنه فى حقيقته أقل من ذلك بكثير، والقيادة العسكرية الإسرائيلية تعلم بذلك. المتتبع للوقائع يلحظ أنه منذ فرضت على منظمة التحرير الفلسطينية للهجرة من بيروت، فإن الوقائع محدودة. المبالغة الإسرائيلية مردها الرغبة العاطفية فى الاحتفاظ بالضفة، وبحق اليهود بالاستقرار فيما يسمونه يهودا (1) والسامرا، بل يصل المحلل العسكرى «دونكانى» إلى القول بأن التخلى عن هذه المنطقة لا يمثل أى خطر حقيقى على وجود الدولة الإسرائيلية. هذا لا يمنع من أن المتتبع للأحداث يلحظ إرادة رفض حقيقية بدأت تتبلور منذ عام 1980، وعلى وجه التحديد عقب حادث الاعتداء

---

(1) هل وعى المفاوضون العرب هذه الحقائق وهم يوقعون اتفاقية أوسلو؟ لو كانوا يعون ما اضطروا أن ينتظروا هذه السنوات الطويلة ليكتشفوا أن العدو لن يتخلى عن الضفة الغربية وقطاع غزة أو القدس.

على عمدة «نابلس» وعمدة «رام الله». وقد ظلت هذه الإرادة فى ثبات تتصاعد وتتقدم إيجابيا نحو موقف العصيان المدنى، حتى تبلورت فى الانتفاضة التى لا نزال نعيش فى أحداثها »

«لقد تنبأنا بتلك الانتفاضة منذ عام 1984 والقيادة العسكرية توقعتها منذ عام 1983 ولكن علينا أن نلاحظ بخصوص الانتفاضة فى ذاتها أمرين:

الأول: وهو أن هذه الانتفاضة لا تعني فى ذاتها تهديداً للأمن القومى. إنها تخلق حالة اضطراب داخلى وقد تؤدى إلى نتائج خطيرة من الناحية الاقتصادية، تقود إلى انخفاض معدل الهجرة ولكن ليس أكثر من ذلك.

الثانى: أن هذه الانتفاضة قد تستخدم أيضا لصالح إسرائيل؛ لأنها أيضا فرصة لعملية استئصال مبطنة واسعة النطاق للكثافة العربية فى الأرض المحتلة.

المصدر الثانى للتهديد: هو الجيوش العربية المحيطة بـ «إسرائيل». أى من هذه الجيوش لايمثل أى تهديد حقيقى، ولعدة أعوام والبراعة الإسرائيلية تبرز فى هذه الحقيقة. فجيش مصر التى كان مجرد ذكر اسمها يثير الرعب فى القيادات الصهيونية، أضحى اليوم وهو يبعث على السخرية. لقد انخفضت قدرة مصر العسكرية إلى قرابة ثلثمائة ألف جندى بدعوى أن السياسة العسكرية الجديدة تقوم على أساس النوعية وليس الكم، متناسية هذه السياسة أن المتغير الحقيقى فى النصر النهائى فى معركة عسكرية هو عنصر الكم، الذى لايمكن أن تلغى أى نوعية أهميته، وفى جميع الحروب التى خاضتها إسرائيل كان المحور الحقيقى للنصر ثلاثة عناصر: كم .. **ومفاجأة** .. ونوع. وبهذا الترتيب المتتالى من حيث الأهمية.

والجيش المصرى يعيش مرحلة تذبذب بين عقيدة قتالية سوفيتية، وأخرى أمريكية، وثالثة مصرية فى حيز التكوين. ومن ثم، هو بمثابة شخص لايعرف من هى أمه الحقيقية، من بين ثلاث نساء كل منها تتنازعه وتنسبه إلى نفسها. لقد استطاعت الدبلوماسية الإسرائيلية أن تسقط مصر فى وحل «كامب ديفيد» وإذا كان الخروج من هذا المستنقع سياسيا **ليس فى حاجة لأكثر من قرار شجاع**، فإنه من الناحية العسكرية فى حاجة إلى إعادة بناء كاملة قد تستغرق عدة سنوات ».

«هذا ويجب أن نلاحظ، أن الانسحاب الإسرائيلى من سيناء بقدر ما له من عيوب بالنسبة للأمن الإسرائيلى، بقدر ما له من مزايا بالنسبة للجيش الإسرائيلى. فالجيش المصرى لو أراد أن يهاجم إسرائيل، وفى ظل الاتفاقيات الحالية، يتعين عليه أن يجتاز هذه

المنطقة المنزوعة السلاح عمليا، والتى تمثل من حيث الواقع منطقة عازلة [1]، تكاد تقوم بوظيفة الإنذار المبكر، الأمر الذى يعطى للجيش الإسرائيلى فرصة ثمينة للاشتباك فى خارج أرضه القومية، فضلا عن أن يسمح له بتقصير خطوط مواصلاته، وذلك إضافة إلى أن أراضى سيناء مكشوفة تسمح له - لا فقط - بالمناورة، بل وبسيادة الطيران. بعض الخبراء يعتقد أن الجيش المصرى وهو يحارب على القنال، فى وضع أكثر صلاحية منه وهو يحارب من حدود سيناء الشرقية. قد يكون فى هذا مبالغة، ولكنه قول يتضمن قسطاً من الحقيقة، كذلك يجب أن نضيف بأن غزة لاتمثل فى ذاتها أى تهديد حقيقى. إنها معسكر ضخم للاجئين الذين يعملون فى داخل إسرائيل، ومن الاقتصاد الإسرائيلى يحصلون على قوتهم ومصادر تعيشهم.

سوف نعود فى موضع لاحق لتحديد أهمية كل دولة عربية من دول المواجهة، بل ومن دول منطقة الشرق الأوسط، فى حدود تعاملها مع إسرائيل، ولكننا نقتصر مؤقتا على تأكيد أنه عقب خروج مصر من دول المواجهة، فإن أى قوة عربية لا تمثل أى تهديد حقيقى للأمن الإسرائيلى.

يأتى التهديد فقط لو استطاعت جميع دول المواجهة إحداث عملية تطويق عسكرى فى إطار واحد من التعامل أيضا السياسى، لنستطيع أن نفهم ذلك وكيف يدخله الفكر العسكرى الإسرائيلى فى حسابه، لابد من أن نتابع بإيجاز خبرة الأعوام العشرة الماضية. لقد سبق وذكرنا من أهم الوقائع ذات الدلالة عشرة أحداث، وهى تستطيع أن تُدرجها تحت أربعة متغيرات:

الأول: وهو التطور الداخلى فى الجسد الإسرائيلى.

والثانى: فى مفاجأة المجتمع الجماهيرى العربى الذى أحال الضعف إلى قوة.

والثالث: فى خضوع القيادة العربية لظاهرة التطور وتجاوبها مع الجماهير، ومن ثم اكتسابها لصفات جديدة جعلتها أكثر صلاحية لمواجهة الموقف.

والرابع: المرتبط بالتطور العام الذى يخضع له فى هذه اللحظة الإطار الدولى الإقليمى.

فلنتابع بصفة خاصة المتغير الأول ولنتساءل، كيف أثر فى الفكر العسكرى الإسرائيلى وبصفة خاصة فى تصوره للمعركة القادمة فى المنطقة، سواء من حيث مراحلها وأبعادها أو من حيث الأسلحة التى سوف تستخدم فى تلك المعركة».

(1) جاء فى مقررات المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى تل أبيب فى عام 1982 ونشرتها مجلة كيفونيم: «استعادة سيناء».

((تطور المجتمع الإسرائيلي وخصائص قيادته المعا صرة:

أول هذه المتغيرات وأهمها هو المجتمع الإسرائيلي:

مما لاشك فيه أن التطور العام للدولة اليهودية، يؤكد نجاحها وتفوقها المستمر، ولكن هل هذا النجاح مطلق ودون قيود؟ وهل هذا النجاح لايملك العديد من عناصر الضعف؟ وهل لايعكس عيوباً خطيرة؟.

علماء الاجتماع في إسرائيل، يحدثونا عن «التحول في المجتمع الإسرائيلي لإخفاء حقيقة هذا التطور وقيوده ونقائصه. وإذا كان هذا المكان لايسمح بالتفصيل، فإننا يجب أن نقف إزاء ظاهرتين بالكثير من التأمل:

الأولى: التماسك في عناصر المجتمع الإسرائيلي.

الثانية: حول ظاهرة القيادة والريادة التي تسود المجتمع الإسرائيلي.

كذلك يجب أن نضيف ظاهرة **ثالثة** دون أن نتوقف أمامها في هذا الموضع وهي ما يسمى بأزمة الصهيونية الجديدة.

منذ البداية يجب أن نلاحظ كيف أن حرب 1967 كانت لها نتائج سيئة بقدر ما كانت تحقيقاً وإنجازاً لايستطيع أي محلل أن يشكك في عظمته بالنسبة للدولة الناشئة فهي أولا قد مرغت في الأوحال جميع أعدائها.

وهي ثانيا أضافت إلى حدودها ضعف مساحتها. **وهي ثالثا** خرجت قوة مسيطرة في المنطقة يهابها الجميع، ويخطب ودها الجميع. ولكن هل هذا فعلا ما كان يجب أن يسعى إليه أي قائد محنك بعيد النظر يحكم إسرائيل؟

أولا لقد كانت إسرائيل، تعاني من تفكك حقيقي في جسدها، بدأت ملامحه تبرز واضحة للعيان في عام 1965 وتصير ساطعة مخيفة في عام 1966، وكان واجب القيادة أن تجعل ذلك النصر وسيلتها للتخلص من تلك الأزمات.

إحدى هذه الأزمات ظاهرة النزوح، التي هي تعبير عن العديد من المشاكل.

الأزمة الثانية وهي الأزمة الاقتصادية. الأزمة الثالثة تدور حول الأخلاق والقيم اليهودية التقليدية. ثم أزمة رابعة ترتبط بالصهيونية ذاتها. وهل حققت أهدافها وآن الأوان لتصفيتها أم أنها لا تزال فاعلة؟

ثانيا ثم هي لم تضع خطة واضحة للتعامل السلمي، الذي هو وحده الذي سوف يمكنها من البقاء، لقد اكتفت بالإجابة بل على كل عرض قُدم لها من جانب أولئك الذين كانت تعنيهم مصالحها الحقيقية وأولهم «جولدمان» رئيس الوكالة اليهودية، كان يردد «كيسنجر»

التى تعيشها المنطقة؟ على كل الذى يعنينا بصفة خاصة هو ما يرتبط بالقيادة العسكرية وذلك بسبب ضخامة النتائج المترتبة على ذلك.

قبل أن نستمر فى تحليلنا لهذه الناحية **يجب أن نتذكر أن القيادة العسكرية تملك - بل يجب أن تملك - ثلاثة أنواع من القيادات: قيادة استراتيجية، ثم قيادة فنية، وأخيرا قيادة ميدانية**، كل من هذه القيادات لابد لها من مواصفات معينة ومتميزة. هذا التعدد يرتبط به تعددآخر فى داخل كل قيادة. فهناك فروع للقيادة تبعاً لكل سلاح: السلاح البرى ثم السلاح البحرى، وأخيراً الجوى. ويجب أن نضيف إلى هذه الأسلحة الثلاثة سلاح الدفاع الجوى. وهكذا لدينا اثنى عشر قيادة، الأمر الذى يثير عقب ذلك مشكلة القيادة الإدارية والتى تعنى التنظيم بين هذه القيادات المختلفة والمتعددة والمتباينة. وكلما تضخمت قوات الجيش كلما تضخمت المشاكل التى يفرضها هذا التعدد والتضخم لايعنى فقط ازدياد الكم، بل وتعدد مسارح العمليات من جانب، وتنوع طبيعة العمليات بين الحرب الشاملة والحرب نصف الشاملة، وما يسمى نصف الحرب والعمليات اليومية المعتادة والتى تدور حول مواجهة العمليات الإرهابية، رغم محدودية أهميتها من جانب آخر.

يمكن القول بصفة عامة أن الجيش الإسرائيلى برع فى جميع هذه القيادات حتى حرب عام 1967 فى حرب أكتوبر برزت الفاعلية الفنية والقيادة الميدانية فى أوجها وعملية الثغرة تعبير عن ذلك، حرب لبنان أثبتت أن القيادة الميدانية بدورها فقدت فاعليتها. ونستطيع أن نجزم بأن الجيش الإسرائيلى لايعرف اليوم تفوقاً حقيقياً إلا فى القيادات الفنية أى القيادات التكنولوجية.

سبب آخر يفسر لماذا الاهتمام المتزايد بالأسلحة التكنولوجية؟ لأن المجتمع الإسرائيلى لم يعد متماسكاً.

ولكنه عدم تماسك هذا المجتمع، وبقدر إصابته بكثير من عناصر التحلل، بقدر تماسك مؤسسته العسكرية. **جيش الدفاع الإسرائيلى استطاع خلال الأعوام الخمسة الماضية - وبصفة عامة - خلال الفترة الممتدة من حرب لبنان 1982 حتى إيقاف إطلاق النار فى حرب الخليج (صيف 1988) أن يحقق قفزات رهيبة إلى الأمام، إنه يعمل فى صمت وسكون وينشر أدواته فى جميع الأبعاد استعدادا لمعركته الفاصلة القادمة.**

((فهل نحن على وعى بذلك؟

هذه الكلمات الخطيرة فى حاجة إلى تفصيل، وهو ما سوف نتعرض له فى مقالاتنا بالتفصيل الكافى. ولكننا منذ البداية نود أن نحدد النقاط الأساسية التى تدور حولها هذه الثورة الفكرية العسكرية، والتى تسود قيادات تلك المؤسسة.

أولاً: فهى تفصل فصلا كاملا بين مفهوم الأمن القومى ونظرية الحرب، أو العقيدة القتالية. وقد سبق وحللنا ذلك، وأساسه التفرقة بين سؤالين: **متى يجب أن نحارب؟**... **وكيف يجب أن نحارب؟** هذا الفصل الهدف منه، ألا تسمح للسلطة غير العسكرية بأن تتدخل للإجابة على السؤال الثانى، أن يصبح من الاختصاص المطلق للفكر العسكرى.

ثانياً: كذلك فى هذا البعد المحدد: متى يجب أن نحارب؟ فإن الفكر العسكرى الإسرائيلى يميز بين أبعاد ثلاثة لمفهوم الأمن القومى: بعد سياسى؟ وآخر اقتصادى.. إلى جانب البعد العسكرى. ومع التسليم بترابط كل من هذه الأبعاد الواحد منها بالآخر، إلاأن الاختصاص أيضاً فى هذا التعامل يجب أن يكون له احترامه بل وسطوته.

ثالثاً: فى جميع الأحيان فإن فكرة التوسع العسكرى فى المفهوم الأمنى يجب أن تسيطر على الإدراك الإسرائيلى وهو من ثم:

أ – يترك صياغة المفاهيم للأداة العسكرية.

ب – يترك العنصر المهنى التكنولوجى الفنى يتحكم فى الفكر العسكرى.

جـ – يؤمن بضرورة إعادة بناء الفكر العسكرى (1) على ضوء الخبرة القتالية الماضية التى عاشها جيش الدفاع الإسرائيلى.

رابعاً: وهى تؤمن بأن الحرب القادمة والتى لابد (2) منها، لن تكون محددة. إنها سوف تتصف بثلاث خصائص:

أ – سوف تكون كلية شاملة بحيث يتسع نطاقها لتشمل جميع أجزاء منطقة الشرق الأوسط.

ب – وسوف تكون ساحقة لأنها يجب أن تكون آخر الحروب فى المنطقة على الأقل لمدة نصف قرن تستطيع خلالها إسرائيل أن تبنى إمبراطوريتها الكبرى.

جـ – وهى ذلك لن تكون فقط حرب جيوش: بل هى حرب تتجه إلى الإرادة المقاتلة أياً كانت صورتها: شعبية وثقافية. عسكرية وحضارية.

هذه الأعمدة للفكر الإسرائيلى فى حاجة إلى تفصيل وتعميق مع تحديد لمقدمات كل

(1) هل أدركتم يا دعاة السلام، ماذا يريد العدو؟ أم لازلتم مصرين على أن ما يقوله أستاذ العلوم السياسية خيال مريض؟

(2) ومن هنا يأتى أهمية التلاحم داخل صفوف القوات المسلحة وبين الأجيال التى حاربت العدو من عام 1948 وعبر 1956، 1967، 1973، ويأتى أهمية بناء الإيمان وحب الجهاد والموت فى سبيل الله وجنة عرضها السموات والأرض.

مقولة ثم متابعة نتائجها كل على حدة.

رغم ذلك، فيجب أن نلاحظ كيف أن لا تزال عناصر معينة فى هذا الإدراك موضع غموض وعدم وضوح. علاقة «إسرائيل» بدول الجوار، وكيف ستتطور فى هذا الإدارك الجديد من جانب ثم علاقة النظام الإقليمى، الذى سوف تسعى إسرائيل إلى بنائه بالنظام الدولى من جانب آخر. وللحديث بقية».

المحور الثانى

حرب لبنان .. وتطور الفكر العسكرى اليهودى

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«حرب لبنان تمثل نقطة حاسمة فى تطور العسكرية الإسرائيلية.

لقد سبق أن رأينا كيف أن نصر عام 1967 كان عملية تمثيلية أكثر منها نصراً حقيقياً. وكما قلنا ونكرر سوف يأتى يوم تكتشف فيه القيادة الصهيونية أن أكبر أخطائها هو حرب الأيام الستة. النصر العسكرى ليس مجرد هزيمة فى معركة، وإنما هو الهدف البعيد المدى من الحركة العضوية الدافعة فى المدى غير القريب. **فى أى حرب حقيقية على القائد المحنك أن يضع فى ذهنه ثلاثة أهداف يسعى إلى تحقيقها بشكل أو بآخر.**

أولاً: أن يقضى على الأداة المقاتلة التى يناطحها، وأن يسحقها، بحيث لا تقوم لها بعد ذلك قائمة، ولو فى الأمد القريب. **إن القائد الذى يعرف فى لحظة الهزيمة كيف يسحب قواته وينقذها من الاستئصال يكون قد حرم خصمه من نصف الانتصار.**

ثانياً: أن يرتبط ذلك بتطويع كلى وشامل للإرادة المقاتلة التى يمثلها ذلك الجيش.

ثالثاً: أن يخرج من المعركة وهو أكثر قوة وإرادة وتماسكاً مما كان عليه قبل أن يدخل المعركة. **لو أن القوات الإسرائيلية كانت قد دخلت القاهرة، وتوغلت فى وادى النيل، وأذلت القيادة المصرية، وقضت على أداتها العسكرية، ونصبت حكومة عميلة تؤمن بالتعاون الحقيقى مع الغازى لأرض وادى النيل، لكانت قد استطاعت أن تحطم الكبرياء للقومية قرابة نصف قرن، ولكانت قادرة خلالها على أن تحقق أهدافها فى منطقة الشرق الأوسط، وقد فقدت العروبة عمودها الفقرى. الذى حدث على العكس من ذلك. إنها أيقظت العملاق النائم، وتركته ينتفض فى صحوة لم تستغرق سوى خمسة أعوام، لتفرز حرب أكتوبر عام** 1973، رغم أن القيادة المصرية بعد أن فقدت قائدها الملهم، الأمة المحاربة. لتعيد للذاكرة قصة أثينا فى مواجهة جحافل «الفرس» بقيادة (بركليس)؟ أو معجزة ألمانية الناشئة (وفيتست) يصرخ فيها ألا تبدأ بفرنسا وهى تملك قيادة من وزن (نابليون).

على العكس رسّبت القيادة الجديدة مفاهيم الدولة البورجوازية بأنانيتها، وقصر نظرها وجبنها وتخليها عن كل قيم حضارية وقومية، وهكذا توالت اللطمات. قصة فك الاشتباك

الثانى. مفاوضات الإسماعيلية* اتفاقيات كامب ديفيد* معاهدة السلام. ليست إلا الفصول الواضحة، **ولكن الشعب الحقيقى انتفض ليصرخ قائلا كلا وجاءت اللطمات المعبرة عن إرادة الرفض.** مقتل السادات. مقتل خاطر. التحالف الواقعى مع العراق موجه المد الإسلامى. قصة تنظيم ثورة مصر. موقف القضاء الرافض والمتصلب فى رفضه* خروج الجامعة عن تقاليد الخضوع والاستسلام* مجلس التعاون العربى* **جميعها فصول فى تطور عملاق لم يكتمل بعد. إن العملاق يتحرك ويتثاءب ولكنه سوف يقف على قدميه ليصرخ مطالبا بالثأر ويوم ينتصب على قدميه، ليس ببعيد، وسوف يكون انتقامه رهيبا.**

فليسمع هذه الكلمات كل مصرى مسؤول قبل رجل الشارع، لأن رجل الشارع بوعيه وحسه يعرف ذلك جيداً، وإن لم يعلن عنه.

أما الأول فهو وحده الذى أصابته غيبوبة الرفاهية والتملق والكذب فبات جسدا لايدرك حتى مصالحه الحقيقية. الفكر العسكرى الإسرائيلى يعرف هذه الحقائق ويعرف جيداً أن عليه أن يواجهها، إن آجلا أو عاجلا كيف؟ هذا هو أحد التساؤلات التى يطرحها العقل المسؤول عن صياغة سياسة تل أبيب فى الأعوام القادمة بإلحاح.»

((أحداث لبنان وتطور الفكر العسكرى القيادى الإسرائيلى:

فى هذا التطور العام كانت أحداث لبنان أول درس تلقته القيادة الإسرائيلية وخير من حلل حرب لبنان، رجل القتال والمتخصص فى العلوم السياسية «ريتشارد جابريل»، ورغم دفاعه عن العسكرية الإسرائيلية الذى يصل به إلى حد القناعة المرضيَّة.

يصف هذا الكاتب حرب لبنان بأنها جاءت ولأول مرة فى تاريخ إسرائيل لتثير حقيقة العلاقة بين جيش الدفاع والهيكل السياسى للمجتمع، الذى يخدمه ذلك الجيش.

السؤال هو: هل جيش الدفاع يجب أن يستخدم وفقط فى إطاره التاريخى والأخلاقى كقوة دفاعية عن المجتمع وعن أمن ذلك المجتمع، أم أنه أيضا أداة لتحقيق أهداف محدودة العلاقة بالدفاع عن أمن الوطن؟ ورغم أن صياغة الأزمة الحقيقية بهذا الشكل يخفف من حقيقة المتغيرات التى تستتر خلفها، إلا أن هذه الصياغة تفصح بوضوح عن وجود خلاف بين القيادة العسكرية والقيادة السياسية، بل هو خلاف أبعد من مجرد تعدد فى وجهات النظر. الخلفية الحقيقية الفكرية لهذا الخلاف تنبع من الخلاف حول تحديد معنى الأمن القومى وحدودها النظرية التقليدية، والتى ورثناها عن التراث الأوروبي. إن الأمن القومى هو تطبيق من تطبيقات نظرية الأمن من جانب، وهو يختلف ويستقل عن مفهوم المصالح القومية من جانب آخر. الأمن الذى هو جوهر السياسة القومية يعنى الطمأنينة. الأمن القومى هو ذلك القسط من الطمأنينة، التى يجب أن تسهر الدولة على تحقيقها بخصوص

الحماية الذاتية من الاعتداءات العضوية المفاجئة، التى قد تتعرض لها الدولة من جيرانها، وقد تسهل عملياتها خصائص الحدود الجيوبوليتيكية. المصالح القومية هى المصالح العامة التى يجب بخصوصها أن ترتفع عن مستوى الطبقات أو الفئات أو التجمعات.

الأمن القومى من ثم وفى النظرية التقليدية يتميز بخصائص ثلاث:

أولاً: هو مفهوم محدد وواضح فى عناصره، بل ويكاد يكون مقننا فى مبادئه، ورغم ذلك فهو مفهوم استثنائى لايقبل أى توسع فى تطبيقاته.

ثانياً: وهو صارم فى جزائه حيث مخالفته تعنى الحرب الفجائية المجهضة، التى لا تقبل استثناء ولا تعرف التردد، أى اعتداء على أحد مبادئه يعنى إعلاناً لحالة الحرب.

ثالثاً: وهو يقوم على مبدأ الضرورة التى تبيح المحظور. مقتضى العلاقات الدولية حسن الجوار، ولكن هذا الواقع يأتى فتخرج عليه جميع تقاليد التعامل باسم الأمن القومى فى هذا الإطار تبدو واضحة ومحددة وظيفة جيش الدفاع.

المصالح القومية تمثل دائرة أوسع من مفهوم الأمن القومى، حيث نجد أنفسنا فى ميدان يرتبط بالأهداف الجماعية الكلية ولكنه يتعدى مجرد الدفاع عن الكيان الذاتى إزاء مخاطر الاستئصال، أو ما فى حكمه. المصالح القومية تتسع لتشمل كل ما يعنى القيم والاستقرار والرفاهية، بغض النظر عن نوع التعامل والطرف المعامل، الاغتيال أو الاعتداء على المصالح القومية أمر يستقل وينفصل عن وظيفة الجيش.

وطالما أن الأمن القومى فى معناه الضيق لم يصبه تهديد، فلا موضع للحديث عن مسؤولية القوات المسلحة، بل وليس من الأمور المشروعة أن تدعى للتدخل بأى شكل كان.

هذا المعنى التقليدى الذى ظلت تحترمه تقاليد الممارسة الغربية، وتحرص على الانصياع له تقاليد الجيش الإسرائيلى، بدأت فى الفترة الأخيرة وبصفة خاصة فى التقليد الأمريكى منذ فترة وجود «كنيدى» فى السلطة، وفى إسرائيل مع حرب لبنان تتخلى عنه لتقاليد جديدة، غزت أيضا الفكر السوفيتى، بل ووجدت صداها فى الفقه العربى ريح جديدة تخلط بين الأمن القومى والمصالح القومية، وتجعل من كلمة الأمن القومى مرادفا لكلمة الأمن بدأت تهب عاصفة على الفكر الدخيل على التقاليد العلمية بأهداف مختلفة، هذا الفكر الجديد رداء لإضفاء صفة الشرعية على سلوك فى طبيعته غير مشروع، الأمن القومى مفهوم ضيق وهو يبرز تجاوزات، ومن ثم فإن الفقه يُسلم بأن هذه التجاوزات يجب أن تكون فى أضيق الحدود، وواشنطن وهى فى موضع القوة تستطيع أن تتستر خلف عنفوان سطوتها، لتبرر هذه التجاوزات ولكنها تجد فى هذا المفهوم رداء يسمح بستر العورة. وهكذا هى تصف الوجود الإسرائيلى بأنه جزء من الأمن القومى الأمريكى.

الاتحاد السوفيتي يسلك نفس السلوك، ومن ثم يصف استقرار النظم الشيوعية في شرق أوروبا بأنه جزء من الأمن القومي السوفيتي. كذلك فهو يستخدم رداء لإذابة صلابة مبادئ الأمن القومي، وخلق القناعة بأن حماية الجسد لا تقل أهمية عن قبول مفاهيم التنمية وما تعنيه من تطور لمفاهيم اليسر والرفاهية، بل وقد تكون هذه الأخيرة أكثر أهمية من الكرامة القومية. وهكذا استطاعت المفاهيم الاقتصادية مهما ارتفعت من حيث أهميتها، فهي دائما مفاهيم تابعة أن ترتفع لتفرض على مفاهيم التكامل القومي، والإرادة القومية أن تنزوي جانبا ولو في بعض المواقف.

الفقه الإسرائيلي العسكري وبصفة خاصة عقب اتفاقيات «كامب ديفيد» تابع الفقه الأمريكي في هذا التوجه، بالنسبة لشطره الأول، وهو توسيع المفهوم لصالح التوسع والسيطرة. المصالح القومية هي والأمن القومي صنوان، وما ينطوي تحت كلمة المصالح القومية يقودنا إلى مفهوم الأمن القومي كذلك، فإن الأمن القومي والأمن حقيقة واحدة.

وهكذا انهارت الحواجز، وأضحت الكلمات الثلاث تعبر عن حقيقة واحدة، وتقود إلى نتيجة واحدة، أو بعبارة أدق رد فعل مماثل أمن. أمن قومي. مصالح قومية. خطورة هذا التطور الفكري تنبع من ثلاث نتائج:

الأولى: أنه يقود إلى جعل الجيش أداة سياسية تتدخل في كل نشاط للدولة في الداخل أو الخارج. في العلاقات المرتبطة بحماية حدود الجوار، أو ما عدا ذلك من علاقات وبنفس منهاجية السلوك الهجومي أي الحرب الفجائية الخاطفة.

الثانية: إنه ينتهي بأن يجعل شريعة الغاب هي المسيطرة على جميع العلاقات التي تصير فيها الدولة طرفا فاعلا، حتى في علاقات الدولة بمواطنيها، حيث من المسلم به أن القوة يجب أن تختفي، ليحل موضعها الإقناع، والاقتناع، وحيث لايمكن أن يسود الالتقاء والصدق في علاقة الاتصال بين الحاكم والمحكوم.»

((أخطاء القيادة العسكرية الإسرائيلية في حرب لبنان:

فلنبدأ بطرح التساؤل وهذا ما يعنينا على وجه الخصوص، عن حقيقة أخطاء القيادة العسكرية في حرب لبنان، والتي أخضعها الفكر العسكري لتحليل عميق، بقصد إعادة صياغة نظريته القتالية.

الخطأ الأول: يدور حول أهداف الحرب. الحرب ليست مجرد معركة، ينتصر فيها الجيش. إنها حركة تسعى لتحقيق أهداف معينة أبعد من الانتصار في معركة تحقيق هذه الأهداف هو وحده محور الانتصار. وقعت القيادة الإسرائيلية في هذا الخطأ في حرب 1967 ولم تتعلم من أخطائها، ووقعت أيضا في نفس الخطأ القيادة المصرية في حرب

1973، ومع ذلك فإن القيادة الإسرائيلية لم تستوعب الدرس. نفس المأساة أصابت تلك القيادة فى حرب لبنان، ولكن بصورة أكثر وضوحا وأكثر خطورة. المتتبع لحرب لبنان يلمس منذ البداية كيف أن هذه الأهداف فى ذهن القيادة السياسية، لم تكن هى الأهداف فى ذهن القيادة العسكرية، حتى أن البعض يتساءل وبحق هل اختلفت مع تلك الحرب طبيعة العلاقة بين العنصر المدنى والعنصرالعسكرى فى التعامل القيادى الإسرائيلى؟

الجيش كان دائما وحتى حرب 1973 وانطلاقا من المفاهيم التى صاغها بن جوريون يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية:

أولاً: الجيش هو أداة الدولة لتنفيذ سياستها.

ثانياً: إنه لذلك يخضع لمراجعة فعلية من السلطة، السياسية القومية.

ثالثاً: وهو لذلك مستقل ومنفصل تماما عن النظام الحزبى.

فى حرب لبنان هذه النواحى جميعها اختفت بدرجة أو بأخرى. على أن أخطر ما يعنينا هو فى إدارة الحرب ذاتها، الأمر الذى يثبت ما سبق وذكرناه من أن حرب لبنان قدمت للفكر العسكرى الإسرائيلى، خبرة لم يكن يتوقعها. أخضعها لدراسة متأنية لابد وأن تعكس نفسها فى تصوره للحرب القادمة. الجيش الإسرائيلى حارب فى عام 1982 بخبرة حرب عام 1973، وكما أصابه الغرور فى انتصار 1967 فقد أصابته نشوة التخلص بسرعة من الهزيمة فى أعقاب الثغرة، وما ارتبط بها عقب ذلك من مفاوضات معروفة، ليست فى حاجة إلى تفصيل. وهنا تبدو بوضوح حقيقة المأساة التى نعيشها فهى فى إسرائيل وبالنسبة لخبرة حرب 1982، ليست مجرد العلاقات بين العنصر المدنى والعنصر العسكرى. وهى فى الجانب العربى تتعدى جيشا فشل فى حرب محدودة، إنها درس تعلمت منه القيادة التكنولوجية أو المهنية الجديدة كيف يجب أن تعد نفسها للحرب القادمة.

فلنقتصر مؤقتا على هذا الدرس بالنسبة للجانب الإسرائيلى.

حرب لبنان تثبت أن إسرائيل خاضت تلك الحرب، دون أن تملك قيادات استراتيجية حقيقية على المستوى العسكرى والسياسى. لقد حارب جيش الدفاع الإسرائيلى وقد أعاد صياغة عقيدته على ضوء فشله ونجاحه فى سيناء، ودون أن يدرك أن لبنان ليست سيناء وأن الحرب فى لبنان ليست تكراراً أو نموذجاً لحروبه السابقة، إنها حرب من نوع جديد لا صلة لها بحروب تل أبيب السابقة. إلا جزئيا. ما هى حروب إسرائيل السابقة، فى مجموعها وأساسا مع مصر، لم تعرف فى هذه الحروب إلا صدامات الجيوش فى صحراء متسعة تسمح بالكر والفر وسرعة الحركة، مع سيطرة سلاح الجو من جانب وسلاح المدرعات من جانب آخر، والقدرة على التحكم فى الاستخبارات فى العمق من جانب ثالث.

وأخيراً حرب لبنان تتمثل فى نموذجين: حرب جبال وحرب ميدان، فى حروب إسرائيل السابقة، عرف الجيش اليهودى حرب المدن جزئيا، فى بور سعيد عام 1956 وبصفة خاصة فى السويس عام 1973 فضلا عن بعض فصول محدودة فى كل من الجولان والضفة، وفى كلا المعركتين بصفة خاصة بور سعيد 1956 والسويس عام 1973 تلقن دروسا لم تستطع القيادة الإسرائيلية أن تعى معناها الحقيقى، نشوة النصر أعمت هذه القيادة عن أن تحلل وتراجع، أما حرب الجبال وهى نموذج للحروب القادمة سواء فى لبنان وسواء فى أجزاء واسعة من سوريا فلم يكن قد قدر للجيش الإسرائيلى أن يتعامل معها.

وهذا تعبير عن اختفاء القيادة الاستراتيجية، والتى برزت فى أكثر من بُعد واحد نستطيع أن نذكر أهمها:

أولاً: اختفاء المعلومات والخبرة بخصوص أرض المعركة. لقد عودتنا القيادة الإسرائيلية أن تجمع معلومات دقيقة عن الأرض التى سوف تدور عليها الحرب [1]، فهى الوعاء الذى يجب أن يحتضنه القائد الميدانى فى حرب لبنان، لم يحدث ذلك وهو أول درس يجب أن يتعلمه القائد الاستراتيجى للتعامل الميدانى فالقائد الاستراتيجى هو الذى يعد هذه المعلومات ويمد بها القائد الميدانى قبل تحركه، وهو فى حرب لبنان يقدم لنا قصورا خطيراً اعترفت به نفس القيادة المسؤولة عقب القتال يذكرنا بقصة الجيش المصرى فى اليمن.

ثانياً: عملية تشكيل القوات الذى لم يكن بدوره يتفق مع خصائص الأرض التى كان يحارب فوقها الجيش الإسرائيلى، يبرز هذا واضحا فى الاهتمام المطلق بالدبابة فى ميدان لاتسمح طبيعته بتقدم أكثر من دبابة واحدة فى وقت واحد، مع ما يعنيه ذلك من إمكانية اصطيادها بسهولة. الحرب هى مقاتل وسلاح وأرضية ويجب أن يحدث توافق كامل بين العناصر الثلاثة، والنصر فى الحرب هو قيادة وإرادة وخطة (*) وهى عناصر بدورها يجب أن تنصهر فى بوتقة واحدة حيث عناصر الحرب جميعها، يجب أن تندمج فى الإرادة وكان على الفكر العسكرى الإسرائيلى أن يكتشف ذلك فى لبنان.

ثالثاً: عدم تدريب المقاتلين على حرب الجبال، بما تعنيه من مهارة معينة، وعلى حرب

(1) من أجل هذا حرصت أمريكا ودول حلف الأطلنطى على عمل مناورات مشتركة مع مصر وغيرها من بلاد العالم العربى؛ لأنها أرض المعارك المستقبلية، ومن أجل ذلك حرصت الدول التى تقدم معونات إلى العالم العربى على ربط ذلك بعملية مسح شامل للبلد التى تقدم له المعونة. مسح من ناحية الثروات، مسح من ناحية السكان، مسح من ناحية الكفاءات. راجع كتاب (المؤامرة على التعليم والعلم) صلاح الدين محمد وآخرون، دار الوفاء للطباعة والنشر. راجع المقالة فى الأهرام الاقتصادى «المعونة الأمريكية لمن؟ لمصر أم أمريكا بقلم دينا جلال، عام 1988.

(*) نموذج على صحة هذه القاعدة: فتح المدائن.. القادسية على يد سعد بن أبى وقاص.

المدن وما تفرضه من شجاعة من نوع معين وقدرة على المبادأة الفردية. حرب الجبال أساسها مفهومان: الانتشار والاختفاء مع القدرة والصلاحية للتسلق، والقتال أثناء التسلق، حرب المدن بدورها تفترض شخصية من نوع معين أساسها رد الفعل السريع، والقدرة على اتخاذ القرار على جميع مستويات الجندى المقاتل، فضلا عن الصلاحية للحرب المنفردة يعني المقاتل الذى قد يحارب وحيدا أو فى مجموعة محدودة العدد وليس فى صورة تكفل على قسط معين من الأهمية العددية.

رابعاً: الاهتمام المطلق بحياة المقاتلين وهو أمر يتناقض بصفة خاصة مع حرب المدن التى من طبيعته – وكما سبق وذكرنا – متميزة وتتنافى مع مثل هذه الاعتبارات مهما بلغت من أهمية.

حرب لبنان أبرزت ترهل القيادة الإسرائيلية الذى لم يكن قاصرا على القيادة العسكرية فى أغلب صورها، بل تعداها إلى القيادة السياسية، التى لم تعرف كيف تسيطر على هذه القيادة العسكرية، رغم أخطائها ولنتذكر بعض ملامح تلك الأخطاء:

أ – مركزية القيادة التى أضحت بحيث لم يعد يتم اتخاذ أى قرار إلا فقط وأساسا على أعلى مستوى، وهذا يخالف جميع تقاليد جيش الدفاع الإسرائيلى التى عرفها ومارسها بصفة خاصة فى حروبه الأربع السابقة.

ب – اتجاه القيادة العسكرية لعدم احترام الأوامر القيادية الصادرة من الطبقة المسؤولة عن إدارة دفة العمل القومى، وهذا كان لابد وأن يعكس بدوره اختلالا فى نفس داخل القيادة العسكرية من حيث احترام مستويات التعامل التصاعدى.

جـ – سيطرة التفكير التقليدى على القيادات الميدانية، الأمر الذى لابد وأن يقود إلى اختفاء الشجاعة والقدرة على المبادرة مع ما يعنيه من تحمل المسؤولية.

وهكذا اختفت فى حرب لبنان كل ما تعودناه سابقا فى جيش إسرائيل من المبادرة والأخذ بزمام الموقف، والنبوغ فى التصور، وسرعة رد الفعل، والشجاعة فى تحمل المسؤولية، رغم جميع المخاطر التى يمكن أن تحيط القائد الميدانى.

هذا الترهل فى الجيش الإسرائيلى، له مصادر متعددة: أبرزتها فى صورة ساطعة حرب لبنان 1982، وكان لابد وأن تعيد القيادة العسكرية الإسرائيلية بناء تصورها للتعامل على أساس وضع حد لهذه النقائص.

ما هى أولا مصادر هذا الترهل؟

أولا: الترهل العام فى المجتمع الإسرائيلى، لابد وأن يعكس نفسه فى الجيش والقطاع العسكرى، فالجيش الإسرائيلى هو الأمة المحاربة، وهو يتضمن جميع قطاعات المجتمع

دون استثناء.

ثانياً: ضعف المتغير الأيديولوجي، الذي عبر عنه بأزمة الصهيونية، والذى برز واضحاً فى حرب لبنان بسبب طبيعة تلك الحرب وأهدافهاالتوسعية والخفية.

ثالثاً: سيطرة العنصر المهنى - أى الجندى المهنى - على القيادات أنه ليس القائد الذى تعودناه صهيونى متعصب، عمل فى الحياة السياسية وانتقل ليصير جنديا ونموذجه موشى دايان، ولكنه عسكرى منذ نشأته لم يعرف حياة السياسة إلا نسبيا، وفى مرحلة متأخرة نموذجه الواضح رؤساء الأركان منذ حرب لبنان حتى اليوم، ودون استثناء مثل هذا النموذج للجندى فى حاجة إلى إطار للتعامل له خصائص معينة، لم توفرها له حرب لبنان.

رابعاً: الجندى الذى حارب عام 1982 هو جندى مرفه ماديًا ومعنويًا. ولد فى أرض إسرائيل، وعاش انتصارات 1967 شاباً فملأه الغرور على عكس جندى حرب 1967 الذى جاء من الخارج صبيا مشرداً وعاش عشرين عاماً، وهو يتساءل: هل سوف يقدر له أن يكون له وطن حقيقى؟ أم سوف يفرض عليه من جديد ترحال آخر كما عرف أباؤه وأجداده؟ هذا الفارق الزمنى الذى لم يتجاوز خمسة عشر عاماً، هو فارق بين جيلين، بين عقليتين، وكان لابد وأن يحدث أثاره.

يرتبط بهذا التغيير الداخلى فى القيادة العسكرية الإسرائيلية التفسخ فى المجتمع اليهودى ذاته من جانب، واختفاء القيادات الكبرى من جانب آخر، كلاهما متغيران على قسط خطير من الأهمية حيث المتغير سبب ونتيجة فى آن واحد. والواقع أن هذين المتغيرين، كان لهما دور آخر لايقل خطورة فى تطور الرأى العام الدولى. الرأى العام الدولى لم يعد ينظر إلى إسرائيل نفس النظرة التى سيطرت عليه حتى حرب عام 1973 كيف كانت نظرة الأوربى إلى الإسرائيلى؟ هو اليهودى المتحفز الذى يرفض مصيره من جانب، والمؤمن بمثاليات معينة من جانب آخر، والذى حفر - بفضل دعاية واعية ومخططة- خنادق ثابتة من التأييد والإعجاب فى الرأى العام الأوربى. هذه النظرة قد اختفت بل وإلى غير رجعة، وجاءت لتحل محلها صورة اليهودى المنحل، الذى لاقيم له، ولا أخلاق، والذى هو على استعداد لأن يستخدم أقذر السلوكيات لتحقيق أهدافه. اليهودى فى صبرا وشاتيلا هو اليوم الذى يسيطر على ذهن الرأى العام الأوربى. صحيح أن الدعاية العربية لم تعرف كيف تستخدم هذا التحول، ولكنه لم يعد من الممكن أن يعود، ولو فى الأمد القريب الرأى العام الغربى إلى نظرته التى عرفها نحو الإسرائيلى حتى عام 1973. حتى فى الولايات المتحدة، والتى تعلن عن التأييد المطلق لـ «إسرائيل» بدأت تصوغ لغتها باعتبارات المصلحة القومية، وليست بأخلاقيات التعامل اليهودى - مما لاشك فيه - أن

النتيجة تظل واحدة، وهي التأييد المضطرد للسياسة الإسرائيلية، ولكن يجب أن نعترف بأن الفارق جوهري بحيث يتضمن شرخا في حقيقة العلاقة بين واشنطن وتل أبيب، في حاجة إلى القائد الماهر الذي يعرف كيف يخترقه.

ولكن هل تظل القيادة العسكرية في مواجهة هذه التطورات تقف موقفا سلبيا، أم أنها تسعى لإعادة التعامل مع هذه المتغيرات الجديدة؟ وما هي حدود هذا التعامل الجديد؟ الإعداد لانقلاب كامل. أم التوغل في مراكز صنع القرار – أيضا – المدني، أم الاكتفاء بالعمل في صمت وهدوء للإعداد لبناء جديد للدولة في حدود تعاملها مع جيش الدفاع استعداداً للمعركة القادمة؟

الأسئلة تتدافع ولكن لم تحن بعد لحظة الإجابة عليها.

على أن أخطر النتائج المرتبطة بحرب لبنان، وما فرضته وما أبرزته من تطورات هي تلك المتعلقة بالسياسة الخارجية. سياسة إسرائيل الخارجية، حتى بداية الثمانينات كانت سياسة ناجحة. وقصة الحوار بين «مناحم بيجن» و«السادات» هي قمة هذا النجاح. فالرئيس «السادات» استطاع القائد الإسرائيلي أن يحيله إلى أرنب يرقص على وقع أقدامه. وذلك رغم موقف مصر التفاوضي الصلب في تلك اللحظة. فهي منتصرة أو على الأقل نصف منتصرة في حرب أكتوبر، والولايات المتحدة متلهفة على فتح قناة السويس، والعودة إلى المنطقة العربية بقواعد ثابتة تسمح لها بخلق عملية توازن مع إسرائيل، ومصر لم تسقط بعد في مستنقع الأزمة الاقتصادية الطاحنة، فإذا نظرنا إلى الأداة الخارجية الإسرائيلية في أواخر الثمانينات لهالنا الفارق، هذه الأداة لا تعرف كيف تتلاعب «بحسني مبارك» رغم أن مصر في وضع لاتحسد عليه: انتصارها في أكتوبر قد تبخر وانتمى إلى التاريخ، علاقتها بالعرب واضحة صريحة من حيث المقاطعة.

أزمتها الاقتصادية الطاحنة لامثيل لها، واشنطن قد تخلت عن فكرة خلق قواعد عسكرية خارج إسرائيل، واكتفت باتفاق استراتيجي مع تل أبيب، الفريق المحيط بالرئيس «حسني مبارك» لايملك أي قدرات قيادية حقيقية أو على الأقل هو لايمثل قدرة التماسك والتناسق، هذه الإدارة الإسرائيلية أيضا تقف أمام «جورباتشوف» مكتوفة الأيدي، رغم ما تتجه لها سياسته من إمكانيات غير محددة لم تعرفها في أي مرحلة من تاريخها، على أن أخطر ما يعنينا هو أنها فقدت القدرة على التأثير الحقيقي على دول الجوار الجغرافي للمنطقة العربية، حرب الخليج أتاحت للدبلوماسية الإسرائيلية فرُصا لا حدود لها، لم تعرف كيف تحيلها إلى فعل حقيقي، تركيا لاتتردد في أن تلقي بشباكها نحو العالم العربي بثبات بدأت بسوريا والعراق، وأعقبت بمصر دون أن تترك جانبا السعودية، الحبشة فتحت بابها على مصراعيه للنفوذ المصري، كل هذا يفصح بوضوح عن أن النجاح الإسرائيلي قد

تقلص أو على الأقل لم يعد بسابق قوته التى عرفناها خلال الفترةالممتدة من حرب 1967 حتى حرب 1973 ثم من اتفاقية فك الاشتباك الثانية عام 1975 وحتى موت الرئيس «السادات».

فما هي حقيقة الأحداث؟ هل هذا تطور تلقائي تعبير عن طبيعة الجسد الإسرائيلى؟ أم أن هناك مُخططا يستتر خلف تلك الوقائع أم لا تستطيع العين المجردة أن تكتشفه، ولابد من الغوص فى أعماق متغيرات التطور، لاكتشاف معناه الحقيقي؟ وأين من هذه المؤسسة العسكرية؟

تحليل هذه النواحى (*) لايمكن أن يكون كاملا إلا إذا ربطنا التطور الداخلى فى المجتمع الإسرائيلى، بالإطار الدولى والإقليمى (1)، وهو أمر لم يَحِنْ بعد أن نتصدى له.

(*) هذه دراسة متأنية مخلصة من عالم (فقيه) بمنطقة الصراع العربى الإسرائيلى لم تستفد الأمة العربية منه.. بمقدار ما استفاد العدو!!

(1) هذا الجانب قد تعرض له بالتحليل اللواء أركان حرب دكتور فوزى محمد طايل أستاذ الاستراتيجية الشاملة بأكاديمية ناصر العسكرية (رحمه الله) فى كتابه كيف نفكّر استراتيجياً، مركز الإعلام العربى عام 1997.

المبحث الرابع

ميلاد المجتمع العربى الجماهيرى
والتخطيط للتعامل مع المنطقة

*** من هو العدو الذى سوف ننازله؟**

*** من هو الخصم الحقيقى الذى ينبغى على إسرائيل أن تتعامل معه فى الحقبة القادمة.**

*** مبادئ التعامل الإسرائيلى مع المجتمع الجماهيرى:**

- صنع التضامن العربى ووسائله.

- تخريب الجسد العربى ومشاكله.

- أهمية الضفة والقطاع بالنسبة لأمن إسرائيل.

حول هذه الموضوعات كتب حامد ربيع:

«فى مواجهة الضعف الإسرائيلى الذى قد يبدو غير واضح لأول وهلة، نلحظ ازدياد القوة العربية أو إن شئنا بعبارة أكثر دقة ميلاد قوة عربية لم تتبلور بعد، ولكن مظاهر وجودها قد أثبتت أنها فى طريقها للتبلور. السياسة الخارجية الإسرائيلية خلال السبعينات ومنذ حرب الأيام الستة، أساسها تفريغ الجسد العربي (1) من جميع عناصر القوة فى أعقاب حرب أكتوبر، تبلورت تلك السياسة فى صورة واضحة، عناصر القوة كما أثبتتها الأحداث ثلاثة:

أولاً: الكمّ المصرى.

ثانياً: الاندفاع الأيديولوجى السورى.

ثالثاً: الثبات العراقى.

(1) من هنا نبعت ضرورة تصفية القوة العراقية من خلال أزمة الخليج وتمزيقها إلى دويلات.

في مصر يوجد كم يرتبط به تقدم تكنولوجي وحضاري، يمثل أكثر من نصف القدرة العربية.

في سوريا الإيمان والقناعة ذات التقاليد التاريخية بوحدة الصف العربي.

في العراق هناك إسبرطة العربية (1). استطاعت السياسة الخارجية أن تفرغ هذه القدرة وبتدرج لم تفهمه القيادة المسؤولة العربية، فهي أولا منعت هذه القدرات من التلاحم الذي بدا واضحا أنه في بداية هذا الطريق، أثناء حرب أكتوبر، ثم أوقعت كلا من هذه القوى في أحد المستنقعات. **أخرجت مصر من الصف العربي باتفاقية «كامب ديفيد»، ودفعت هذا المجتمع بوسائل خفية وغير واضحة إلى التوحل في مشاكله الداخلية، وليس من قبيل المصادفة انتشار المخدرات في هذا المجتمع. ثم هي شجعت النظام السوري على أن ينكفئ على نفسه، ويتوحل في لبنان. وتركت لإيران أن تتولى إجهاض أي قوة أو قدرة عراقية. وهكذا وبهذا التوجه فرضت على كل قوة أن تعيش مشاكلها، ثم أكملت ذلك بعملية تخريب داخلية واسعة النطاق، ارتبطت بحرب نفسية لم يعرف العالم العربي حتى الآن كيف يواجهها.**

رغم ذلك، ورغم النجاح الذي سجله هذا التخطيط حتى الآن فإنه في الأمد البعيد لن ينتظره سوى الفشل، والذي أفشل هذا المخطط حتى الآن بأن منعه من تحقيق أهدافه والذي سوف يفشله في الأعوام القادمة هو: أولا وقبل كل شيء آخر قوة الجماهير، أو بعبارة أكثر دقة هو **ميلاد الأمة الجماهيرية.**

ثم لا نزال في بداية المرحلة، ولكن هذا الميلاد واضح لاريب فيه، والغريب أنه بقدر أن القيادات العربية غير واعية بتلك الحقيقة، فإن القيادات العسكرية الإسرائيلية قد لمست ذلك وأعدت عدتها لمواجهته في معركتها القادمة(2) ميدان للمعركة. مراحل للمعركة. سلاح للقتال. أسلوب لإدارة القتال.

والحديث ذو شجون.»

واصل الدكتور حامد ربيع تحليله بقوله:

«أحد العناصر الأساسية التي تشغل تفكير القيادة العسكرية الاستراتيجية الإسرائيلية.. هو ميلاد المجتمع الجماهيري العربي. خلف هذا التفكير سؤال آخر أكثر

---

(1) إحدى المدن اليونانية في مقابل أثينا.

(2) أي أن الحرب القادمة لن تتركز فقط على القوات المسلحة فحسب، بل تستهدف أيضاً الجماهير مركز المقاومة الحقيقية على نمط ما حدث في البوسنة والهرسك وكوسوفا ومن قبل على أرض فلسطين، وما حدث في مدن قناة السويس بعد نكبة 1967.

خطورة يطرحه الفكر العسكرى بإلحاح وتكرار مَنْ هو العدو الذى سوف ننازله؟ من هو الخصم الحقيقى الذى يتعين على إسرائيل أن تتعامل معه فى الحقبة القادمة؟ لقد حدث تطور حقيقى فى المنطقة، ولم يعد عدو إسرائيل هو تلك النظم المتعفنة التى حملت راية الصراع، وجعلت منها مبررا لاستمرار جلوسها فى السلطة هذه النظم ورغم دعواها بالقومية وصراخها حول الوحدة العربية، تعرف القيادة الإسرائيلية كيف تتعامل معها. إن سياسة «كامب ديفيد» ليس لها تطبيق واحد، ورغم أن هذه الكلمة التصقت «بالسادات» وسياسة مصر عقب حرب أكتوبر، إلا أنها فى حقيقة الأمر هى سياسة «النظام العربى» فى المنطقة، ومنذ فترة سابقة على نفس اختفاء جمال عبد الناصر، ما هى هذه السياسة فى جوهرها؟ الحل السلمى من جانب، وفتح باب الاتصال على أساس تقديم التنازلات من جانب آخر.

السياسة الإقليمية بهذا المعنى وجدت لها العديد من التطبيقات. لها تطبيق سابق على حرب الأيام الستة، وآخر لاحق لحرب الأيام الستة، وقبل موت جمال عبد الناصر. التطبيقات غير العلنية عديدة، ذكر أحدها «شيمون بيريز» أثناء وجوده فى الرباط، لانريد ذكر أسماء حتى لا نخلق حساسيات، ولكن المهم أن هذا المفهوم هو الذى يسود النظام العربى. ولكن للمرة الأولى منذ حرب لبنان، بدأت تظهر قوة جديدة **وهى ثبات الطبقات المحكومة وتحولها إلى قدرة قتالية** (1). **إنها لم تستطع بعد أن تتحول إلى مفهوم الأمة المحاربة، ولكنها تسير فى هذا الطريق بخطى حثيثة.** معالم هذا التطور واضحة: رجل الشارع فى مصر الذى أفسد عمليات تطبيع العلاقات المصرية الإسرائيلية، جعل الطبقة الحاكمة فى مصر تجرى وتلهث وراءه ساعية لرضائه، رغم الالتواءات التى تمارسها باسم الديموقراطية، ثم رجل المقاومة فى الشام الكبرى، فى سوريا وفى لبنان وبصفة خاصة فى الأرض المحتلة. لقد حمل سلاح الرفض، وجعل أساس حربه المميتة انتفاضة الحجارة.

إن هذه الانتفاضة ليست موجهة فقط إلى المحتل الإسرائيلى، بل إنها احتجاج موجه إلى جميع الحكومات العربية أيضا. على أن التطبيق الحقيقى الذى جعل القيادة الصهيونية تعيد حساباتها هو فى أرض العراق، حيث استطاع الجندى العراقى أن ينسى جميع الأخطاء ويتكتل خلف الإرادة المقاتلة فى صف واحد، استمر فى عملية الثبات خلال ثمانى سنوات، لم تستطع جميع الأسلحة المستخدمة أن تزحزحه عن موقفه ولو خطوة واحدة، الانتصار العراقى ليس فقط هو انتصار للجندى الذى لايعرف المزايدات، ولكنه

(1) كان بودنا أن توجه هذه المعارك ضد العدو الحقيقى، ولكن طاغية العراق آثر أن يعصى ربه، ويحشد أسلحة الدمار ضد إخوانه فى إيران، والكويت، غباء ... أم عماله؟؟ جماهير الأمة كيف تسمح لمثل هذا الطاغية أن يقودها إلى ما يغضب الله ويوقعهم فيما يهلك الأمة.

يعبر عن ميلاد الأمة الجديدة: الأمة المقاتلة:

المجتمع الجماهيرى العربى، الذى ولد خلال الأعوام الثمانية الماضية فى جميع أجزاء منطقة المشرق العربى، فى حاجة إلى دراسة على حدة، وإذا كانت الأنظمة العربية لم تقم حتى اليوم بهذه الدراسة، فإن الفكر العسكرى الصهيونى أخضع هذه الظاهرة لتحليل كامل، من منطلق اعتبارات الأمن القومى الإسرائيلى، والتى خلاصتها **أن حربه القادمة ليست مع نظم سوف تهوى من أول ضربة، وإنما مع شعوب كاملة تملك إرادة الرفض والمقاومة.**

هذا الواقع الجديد فى حاجة إلى تعامل من نوع جديد، فى هذا التعامل يجب أن نميز بين مرحلتين من مراحل التعامل: المرحلة السابقة على الحرب إذ يجب أن تخلق حالة الشلل فى الواقع الجديد، لتجهض هذا التطور، فى مرحلة الحرب لتستطيع أن تستأصل المجتمع الجماهيرى، وتحيله إلى حالة اليأس والاستسلام التى ميزت المجتمع العربى حتى سياسة «كامب ديفيد».

فلنقتصر مؤقتا على المرحلة الأولى: مرحلة التعامل السلمى والسابقة والمعدة للحرب القادمة.

مبادئ التعامل الإسرائيلى مع المجتمع العربى الجماهيرى:

نستطيع أن نحدد مبادئ هذا التعامل حول ستة عناصر أساسية:

أولاً: منع التضامن العربى من أن يحدث أى نوع من أنواع التقارب بين دول المشرق العربى.

ثانياً: إجراء عملية تخريب واسعة النطاق فى جميع أجزاء الجسد العربى.

ثالثاً: استخدام ورقة الإسلام السياسى كأداة للإرباك وخلق التناقضات.

رابعاً: تدعيم الترابط مع الولايات المتحدة وتحويله إلى تحالف استراتيجى.

خامساً: البحث عن حلفاء جدُد فى عملية المساندة الدولية.

سادساً: خلق التحالفات الإقليمية الضاغطة.

قد يبدو لأول وهلة أن العناصر الثلاثة الأخيرة محدودة العلاقة بحقيقة هذا التطور الجماهيرى، ولكن هذا غير صحيح. وسوف نرى فى موضع آخر مدى العلاقة الخفية بين هذه المبادئ وتطور منطقة الشرق العربى،نحو خلق الأمة المقاتلة (1)، وسنقتصر فى هذا الموضع على تحليل العناصر الأولى.

(1) رغم ضعف الأمة فإن العدو لا يستطيع أن ينازلها فى معركة حقيقية وجهاً لوجه، ولهذا فإنه يسعى إلى تفتيت وحدتها حتى يتمكن منها! كما أنه يخلق حالة من العداء بين الرعاة والرعية لتقوم الرعاة بضرب ظهور أبناء الأمة لمصلحة العدو.

على أننا قبل أن ننطلق فى تحليل هذه العناصر المختلفة، والتى أضحت تُكوّن البعد السياسى لمفهوم الأمن القومى الإسرائيلى.

علينا أن نتذكر مرة أخرى بإلحاح عنصراً ثابتا فى هذا الإدراك العام وهو (موضع الضفة الغربية) من مفهوم الأمن القومى ونكرر (الضفة الغربية) مع استبعاد قطاع غزة فى هذه اللحظة التى يتحدث فيها الجميع عن مخطط السلام، واحتمالات حل مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى. يجب أن نفهم بوضوح حقيقة الإدراك الإسرائيلى، وبصفة خاصة العسكرى، والذى سوف يتحكم فى صُنْع القرار. لقد سبق ورأينا المحللّين الأجانب يعتبرون أن احتلال هذه المنطقة ليس ضرورة لحماية الأمن الإسرائيلى، وأنها مسألة عاطفية. ولكن على العكس من ذلك فإن جميع الكتابات الصهيونية، وبصفة خاصة فى الفكر العسكرى تؤكد على الفكرة المخالفة.

السيطرة الإسرائيلية والضفة الغربية

الأسباب التى تجعل من السيطرة الإسرائيلية على تلك المنطقة، أى (الضفة الغربية)(1) بغض النظر عن المسميات، وبحيث تستطيع الإرادة الصهيونية أن تتحكم فى جميع المجريات الأمنية، بل وبحيث تصل إلى حد رفض فكرة نزع المنطقة من السلاح، تنبع من متغيرات أساسية، وهى جميعها لاترتبط بالمفهوم الأيديولوجى المتعلق بـ «إسرائيل الكبرى» وغيره من الادعاءات التى تساق عادة بذلك الخصوص.

* **المتغير الأول**: إن هذه المنطقة ضرورية لكل ما له صفة بالإنذار المبكر لأى هجوم مفاجئ، وبصفة خاصة مع الأخذ فى الاعتبار:

أ – أن القوات الأردنية أضحت اليوم تملك قدرة هجومية لايجوز أن يُستهان بها، وبصفة خاصة والأردن يملك قدرة معينة على الدفاع الجوى، لم يكن يملكها فى أى مرحلة من تاريخه، وهى الذريعة الأساسية التى بررت منعه من المشاركة فى حرب عام 1973.

ب – احتمالات إجراء تحسن على شبكة الطرق التى تربط العراق بالأردن، والذى يجعل إمكانية وصول القوات المدرعة العراقية إلى الأردن للمشاركة فى هجوم مخترقاً منطقة الضفة فى أقل من أربعين(2) ساعة.

جـ – مع ملاحظة أنه فى مثل هذا الهجوم، وبصفة خاصة لو ارتبط بهجوم آخر من

(1) أمل من الزعماء والقادة وأجهزة الإعلام أن تتقى الله فى أمتنا، فالعدو الصهيونى لن ينسحب من الضفة أو القطاع، إنما يسعى لإعادة نشر قواته بحيث تُساعده السلطة الفلسطينية فى الحفاظ على أمنها، أما الانسحاب من الأراضى المحتلة فهذا وهمٌ يجب أن نتخلص منه الأمة.

(2) هذا من أخطر عناصر الضعف فى قاعدة الاحتلال الصهيونى.

الشمال عبر سوريا، فإن القوات الإسرائيلية التى سوف يتعين عليها مواجهة القوات الأردنية هى قوات الاحتياطى، التى هى فى حاجة بدورها إلى ثمانية وأربعين ساعة لأن تصير فاعلة، ومن ثم فإنها لن تستطيع التواجد الحقيقى قبل وصول المساندة العراقية. لذلك فإن التواجد الإسرائيلى فى الضفة لإجراء عملية رصد فى النقاط الاستراتيجية هى وحدها التى تسمح بالإنذار المبكر.

* **المتغير الثانى**: ويرتبط بالمعطيات الجغرافية التى تميز الضفة من حيث علاقتها بالمناطق الحيوية داخل إسرائيل:

أ - فالجزء الأوسط من إسرائيل والذى يضم حوالى 87٪ من مجموع السكان يمتد على منطقة يتراوح عرضها بما لايتجاوز 30 كيلو متراً، ممتدة بمحاذاة الضفة الغربية فى حالة الحرب، ضرب هذه المنطقة من الضفة الغربية مسألة تصير أمراً عادياً، سهل المنال وبصفة خاصة لو وُجد سلاح الصواريخ أرض - أرض بكثافة معينة.

ب - كذلك **فابتداء من هذه الضفة يمكن بخطوة سريعة تحقيق أخطر هدف استراتيجى يمكن أن يسعى إلى تحقيقه أعداء إسرائيل وهو شطر إسرائيل إلى نصفين**. بل إن هذا الهدف قد يكون فى ذاته سبباً فى إغراء حقيقى لأى قيادة عربية قوية مغامرة تتحكم فى تلك المنطقة.

* **المتغير الثالث**: وهو بدوره يرتبط بالطبيعة الطوبوغرافية لمنطقة الضفة. إن هذه المنطقة هى امتداد طبيعى للأرض الإسرائيلية، بحيث إنه لاتوجد أى حدود مادية حقيقية بينها وبين إسرائيل. بينما هى منفصلة جغرافيا عن الأردن، ولذلك فهى خنجر مصوب إلى إسرائيل سهل وغير مكلف، بينما الهجوم من الأردن نفسها أكثر صعوبة.

الضفة تسيطر على المناطق الساحلية القريبة فى إسرائيل، ولذلك فإن الخط الدفاعى الإسرائيلى على طول نهر الأردن يتطلب قوات أقل للدفاع، بينما فى الضفة يتطلب قوات أكبر وبالعكس، المهاجم من الأراضى الأردنية فى وضع أكثر سوءاً بدرجة كبيرة منه لو هاجم من الضفة. والخلاصة: **إن الضفة منطقة حيوية للهجوم من جانب الأردن وللدفاع من جانب إسرائيل.**

* **المتغير الرابع**: وهو يبرز فى صورة واضحة لو أدخلت فى المنطقة الصواريخ أرض - أرض، وبطبيعة الحال باتجاه إسرائيل وذلك مع الأخذ فى الاعتبار:

أ - أن إطلاق الصواريخ من الضفة أكثر خطورة على إسرائيل من إطلاق المدافع، وإذا كانت الأردن لا تملك حاليا صواريخ أرض - أرض فإن الاحتمال الأكثر توقعاً هو حصولها عليها خلال الأعوام القادمة، فضلا عن أن احتمال تقديمها من العراق أو مصر

أو سوريا احتمال قائم.

ب – أن قصر المسافة بين الضفة وإسرائيل سوف يسمح للأردن بتحقيق أكثر من هدف واحد:

أولا: الاكتفاء بالحصول على الصواريخ المتوسطة المدى بل والقصيرة المدى.

ثانيا: وهى سوف تكون صواريخ متحركة، الأمر الذى يَسهُل معه إدخالها الضفة وبسرعة من جانب، ومن جانب آخر لتنقلها، لإجراء عمليات الإخفاء المطلوبة بسرعة وبحيث يمكن تجنب خضوعها لعمليات استئصال من الجانب المعادى.

ثالثاً: وكذلك سوف يُمكِنُها من رفع نسبة الدقة فى الإصابة وهو أمر معروف، أنه كلما كانت المسافة أقصر كلما كان احتمال الإصابة المحددة والمنضبطة أكثر.

رابعاً: كذلك يجب ألا ننسى أن استخدام هذه الصواريخ بتوقيت معين سوف يمكن من (إعاقة) إن لم يكن (منع) تجنيد القوات الاحتياطية الإسرائيلية.

جـ – ضيق المسافة بين أطراف المثلث الذى تتكدس فيه الحياة الصناعية والمدنية فى إسرائيل، ما بين تل أبيب والقدس وحيفا، سوف يجعل من هذه الصواريخ سلاحا فتاكا ضد إسرائيل بل أحد عناصر التهديد الحقيقى (1) لأمنها.

* **المتغير الخامس: فإن الضفة الغربية لو كانت منزوعة السلاح فإنها من الممكن أن تضع إسرائيل أمام خطر حقيقى**، بهجوم تستطيع القوات الأردنية أن تشنه عبر الضفة بمساندة القوات العراقية، ودون حاجة لأن ترابط به أى بالضفة أية قوات عسكرية أردنية وذلك بشرط أن يملك صواريخ أرض جو متنقلة، وبصفة خاصة لو رافق ذلك الهجوم من الجانب الأردنى هجوم آخر سورى.

ويتصور المخططون العسكريون الإسرائيليون ذلك الهجوم بأنه سوف يأخذ الشكل التالى:

أ – عملية إنزال بطريق الجو من جانب الأردن فى الضفة، لإغلاق المحاور الطويلة المتجهة من الغرب إلى الشرق.

ب – هجمات على المطارات الإسرائيلية لمنع الطائرات المقاتلة من الإقلاع.

جـ – استخدام الصواريخ أرض – أرض – على نطاق واسع بعد إدخالها فى الضفة لإرباك عملية تجميع قوات الاحتياطى الإسرائيلى.

د – تقدم الفرقتين الآليتين التى تملكهما الأردن فى المنحدرات الغربية.

---

(1) هل ننتبه إلى ما قاله حامد ربيع رحمه الله؟!.

هـ - تحرك القوات العراقية للانضمام إلى ساحة القتال.

و - استغلال العناصر المدنية العربية فى إسرائيل والضفة، لتشويش التحركات الإسرائيلية، وخلق اضطرابات فى القواعد الخلفية لإرباك حركات التنقل، بل والتجمع للقوى اليهودية. كل هذا لايمكن تحقيقه إلا من خلال الضفة، ولا يستطيع أن يمنع حدوثه إلا خضوع الضفة خضوعاً كاملاً للسيطرة الإسرائيلية، وبصفة خاصة لو وظفت فى تلك الحالة كما يحدث حالياً من توظيف المستوطنات على أنها قلاع متقدمة كخط هجوم أول وخط دفاع أخير لصالح إسرائيل.

حول هذه الناحية أى (موضع الضفة) فى المفهوم الإسرائيلى لنظرية الحرب ليس هناك موضع للخلاف ولعله يوضح ذلك مجموعة من الحقائق:

1 - إن الضفة سوف تظل فى الفكر العسكرى الإسرائيل وهى تخضع للسيطرة الإسرائيلية. إن مشروع ألون نفسه الذى كان قد طُرح فى لحظة معينة، وقيل: إن الحكومة الإسرائيلية قد وافقت عليه، ولم يعد له موضع فى هذه النظرة الجديدة. الضفة بجميع أجزائها جزء لايتجزأ من أمن إسرائيل القومى(1) ويبدو ذلك واضحاً فى مشروع شارون للضفة والذى وضع ونشر فى عام 1980. الأول لم يعد مقبولاً ولنتذكر أنه قد تداولته الأقلام فى عام 1967، والثانى ورغم أنه بدوره كشف عنه فى عام 1982 إلا أنه أضحى لايعبر عن الفكر العسكرى الإسرائيلى.

2 - خلاصة الفكر العسكرى الإسرائيلى المعاصر، تتمركز حول مبدأين:

الأول: أن الضفة هى جدار أمنى.

والثانى: أن فكرة المناطق المنزوعة السلاح لا موضع لتطبيقها بالنسبة للضفة، ومن ثم يصير الطريق الطبيعى هو تفريغ تلك المنطقة من سكانها وإن حدث، فليكن بدفع ماتبقى من سكان الضفة نحو الأردن؛ حيث يتم خلق دولة جديدة. ولتكن فلسطينية تشمل الأردن.

3 - الحديث عن مشروع سلام (1) يضمن للضفة وأهل الضفة أية حقوق سياسية هو وهمٌ آن الأوان لأن تعرف الأنظمة العربية حقيقته المرة.

لن يحدث ذلك إلا إذا حدثت حرب هُزِمت فيها إسرائيل هزيمة حقيقية. فهل نحن على وعى بذلك وبما يعنيه من مقدمات؟

الضفة يجب أن تخضع منذ الآن لعملية استئصال وتهويد، بحيث يصير حديثاً لا

---

(1) نأمل أن يُعلَن عبر أجهزة الإعلام «وهمٌ للبيع» عسى أن يدرك من يهرولون وراء أمريكا وأوربا أن الحديث عن انسحاب إسرائيل من الضفة والقطاع وَهْم ليس بعده وَهْم.

موضوع له، مجرد التشدق بفكرة تقرير المصير، ومن هذا المنطلق فقط تُطرح فكرة الانتخابات وعملية الاستفتاء، ولكن التفصيل فى هذه الناحية سابق لأوانه».

((منع التضامن العربى ووسائله:

أول المبادئ التى سبق وذكرناها بخصوص التعامل الإسرائيلى مع المجتمع الجماهيرى العربى الذى بدأت بعض ملامح تكامله تبدو واضحة فى الأفق، هو منع التضامن العربى من أن يُحدِث أى نوع من أنواع التقارب بين دول المشرق العربى.

– مفهوم تجزئة المنطقة، ومنع الإرادة العربية من التكامل والتماسك، ليست جديدة لا فى الفكر الصهيونى ولا فى الفكر الاستعمارى الغربى. وهى منطقية مع سياسة التدخل فى العالم العربى. إن الضعف الحقيقى فى هذا العالم هو ما يعانيه من فرقة حقيقية هذه الفرقة ليست مرتبطة فقط بعدم وضوح التصور لأهداف الحركة، بل إنها أكثر من ذلك بُعداً.

أولاً: فالفرقة أولا كانت دائما المنطلق الطبيعى والمنطقى لأى سياسة استعمارية أو أجنبية، تسعى للتعامل مع المجتمع السياسى «وتاريخيا قيل: فرق تسد». على أن هذا المبدأ الذى يستمد مصادره من السياسة: الأنجلو سكسونية، التى صاغته كقاعدة استراتيجية للتعامل مع الوطن العربى، يجد صدى عجيباً فى تاريخ ذلك الوطن. فالسياسة العربية ومنذ العصر العباسى، وقبل ذلك، كانت تقوم على أساس أن الحاكم يجب أن يمسك العصا من وسطها، بحيث يصير هو نفسه الحاكم والحكم فى وقت واحد بين القوى السياسية.

ثانياً: ثم جاء مبدأ «التسامح» وزاد من ترسيخ هذه الحقيقة، فالتسامح هو ميزة القوى تجعل الضعيف يشعر بكرم ذلك القوى، ولكن القوى عندما يَضْعُف يصير هذا التسامح هو دليل الضعف. التسامح الدينى ظل دائماً أحد خصائص الحضارة الإسلامية، حتى فى ظل الحكم العثمانى. وفقط عندما ضَعُفَت القوة المركزية، كان هذا المبدأ مصدراً للتفتت، إنه يعنى فَقْد الهيبة، ويعنى فى جوهره بحثاً عن مصدر آخر للحماية لم تعد الدولة المسيطرة قادرة على تقديمها، وهنا يبرز مفهوم الدولة الطائفية والولاء الطائفى.

ثالثاً: فى خلال النصف الأول من القرن الحالى، عُرِفَ هذا المفهوم باسم «بلقنة المنطقة» على أن الواقع أن هذه البلقنة لم تكن خطيرة، لأن الوطن العربى لم يكن يعبر عن حقيقته كقوة دولية، فهو:

أولاً: الدولة العربية لم تكن سوى فكرة، وهى:

ثانياً: تختلط بمفهوم الجامعة الإسلامية، وهى:

ثالثاً: تقتصر على الشرق العربى ودون مصر، وهى:

رابعاً: منطقة محدودة الأهمية، فهى لا تملك الثروات الطائلة وأهميتها الاستراتيجية محدودة.

خامساً: جاء الاستعمار الصهيونى وورث تقاليد السياسة «الأنجلو سكسونية» وطوعها بما يتفق مع مصالحها، وتطورت هذه المفاهيم مع الهزائم العربية المتتالية، ودون دخول فى التفاصيل نستطيع أن نلحظ مجموعة من الحقائق:

1 – إن إسرائيل فهمت بوضوح أن بقاءها مرهون باستئصال إرادة التحدى العربية. لم تكن القيادات الفكرية الصهيونية تتصور العداوة العنيفة المستمرة التى وُوجهت بها فى المنطقة عقب الخمسينات ورغم الهزائم المتكررة.

2 – إن القوى الكبرى بدورها، لم تكن تدرك مدى أهمية المنطقة فى الصراعات الدولية المتتابعة والمتوقعة، وليس أدل على ذلك بالنسبة للاتحاد السوفييتى موقفه من الاعتراف بإسرائيل ثم الولايات المتحدة وموقفها من مشروع السد العالى.

3 – إن نفس الأنظمة العربية لم تكن تُدرك مدى التطور الحقيقى فى المجتمع العربى، وكيف أن هذا المجتمع لم يعد يقبل المفاهيم، ولا المدركات التى تقدمها قياداته من آن لآخر لتهدئة المشاعر والأحاسيس القومية.

ب – عقب حرب أكتوبر عام 1973 بدأت تبرز واضحة سياسة إسرائيلية جديدة، اكتملت مع وصول ليكود إلى السلطة أساسها متغيرات أربع:

أولاً: تفتيت المجتمع العربي.

ثانياً: جعل هذا التفتيت مقدمة لتجزئته فى كيانات هشة.

ثالثاً: تطويق المجتمع العربى وعزله عن محيطه الجغرافى.

رابعاً: التحكم فى هذا المجتمع بإرادة هيمنة إسرائيل.

العملية الأولى ساعدت عليها السياسة الأمريكية. المجتمع العربى فى مواجهة إسرائيل يملك ثلاث قوى: مصر بكثافتها وقدراتها، سوريا بإيمانها بالعروبة السياسية، والعراق بقدراته المادية.

وهكذا برزت أول عناصر المخطط الصهيونى: إغراق مصر فى وحل كامب ديفيد، وسحب سوريا فى مستنقع لبنان. وفرض على العراق مأساة حرب الخليج، التجزئة التى ارتبطت بهذه العملية، حيث راحت النظم كل منها يتهم الآخر هو فى حقيقة الأمر مقدمة لتفتيت المجتمع العربى وتحويله إلى كيانات هشة، حيث كل دولة تتحول إلى عدة

دويلات (*) وبحيث تنشغل هذه الدويلات بالخلافات المذهبية الطائفية والحدودية المحلية، وفي نفس الوقت تسير تل أبيب في سياسة أساسها مد العلاقات مع دول المحيط الجغرافي: ففي آسيا العالم الإسلامي غير العربي أضحى متعاطفاً مع إسرائيل، وقد ابتعد تدريجيا عن تعاطفه التقليدي مع مصدر إيمانه وتعلقه العاطفي.

قصة الصراع بين بغداد وطهران لم تكتب بعد، ولكنها تعبير واضح عن فشل حقيقي لكلا العاصمتين، ونجاح أيضا حقيقي لتل أبيب. وسوف نعود لذلك فيما بعد.

التقارب التركي العراقي من جانب، والتركي المصري من جانب آخر لايجوز أن يخدعنا.

أما عن الحبشة فحدث ولا حرج. إن إفريقيا السوداء التي كانت تعتبر مصر أمها الطبيعية، لم تعد تنظر إلى القاهرة إلا على أنها منافس حول مياه النيل. مما لاشك أنه في هذا التطور استطاعت تل أبيب أن تستغل أخطاء الأنظمة العربية، من قصر نظر وأنانية، وعدم شعور بالمسؤولية. ولكن هذا كله لصالحها، وهو سوف يكون في مقدمة لفرض الهيمنة الإسرائيلية (1).

هذا التخطيط ورغم نجاحه الظاهري قد فشل، وكان فشله - سببه الحقيقي - المواطن العربي. رجل الشارع في مصر، الذي لايزال بحسه ووعيه يعلم أن عدوه هو فقط الإسرائيلي، رجل المقاومة في الشام الكبرى، الذي قَبِلَ التحدي سواء في أرض لبنان، أو في أرض فلسطين، بل وفي نفس سوريا ضد النظم القصيرة النظر. ثم الجندي العراقي الذي يحارب إيران وهو يُحب الإيراني، وصارع القيادات المندفعة الهوجائية وهو يعلم أنه في تلك الأرض - أرض إيران - سوف يجد في يوم من الأيام صديقه الحقيقي الذي سوف يقوده إلى القدس. ورغم أن هذا الفشل غير واضح ولا يزال في بدايته، إلا أن إسرائيل تعمل له كل حساب.

لقد تحول هذا المبدأ في الإدراك الإسرائيلي إلى خطة للحركة، حدها الأدنى، هو: منع التضامن العربي من أن يحدث أي نوع من أنواع التقارب بين دول المشرق العربي. علينا أن تتذكر بهذا الخصوص، ورغم أننا سوف نعود لتفصيل ذلك في موضع آخر، كيف أن مثل

(*) راجع جريدة عرب تايمز عددها 107 بتاريخ 20:11 ديسمبر 1992 ص 38.

(1) وذلك لتحقيق حلمها الأكبر من النيل للفرات، حسب ما جاء في توراتهم المزورة والمحرفة وما جاء فيها نصاً [وعقد الرب مع إبرام عهداً لنسلك أعطي الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات] سفر التكوين 18/15؛ كتاب كيف نفكر استراتيجياً» اللواء أ.ح.د. فوزي محمد طايل، مركز الإعلام العربي طبعة عام 1998. أهداف إسرائيل التوسعية، محمود شيت خطاب، دار الاعتصام، القاهرة؛ كتاب «قراءة في فكر علماء الاستراتيجية الكتاب الأول والثاني دار الوفاء بالمنصورة طبعة عام 1998.

هذا التصور يتفق ويتوافق مع المصادر الفكرية لفلسفة حزب حيروت، فلسفة ليكود تنطلق من مفاهيم جابوتنسكى، وأى محاولة لفهم حقيقة الإدراك الذى يسود القيادات السياسية الحالية فى تل أبيب دون العودة إلى الزعيم الروحى الصهيونى هى فاشلة. أحد عناصر الفلسفة التى سيطرت على جابوتنسكى، والتى تلقفها عنه مناحم بيجن، ورسخها فى تقاليد النخبة الحاكمة بما فى ذلك القيادة العسكرية. إن منطقة الشرق الأوسط لا تمثل أى كيان متجانس ومن ثم، فإن التقارب بين أجزاء الوطن العربى بأى صورة كانت لاتتفق مع طبيعة المنطقة، ولا مع خصائصها. وإسرائيل لاتفعل سوى أن تعمق هذه الحقيقة وتقود المنطقة إلى واقعها الحقيقى. وإذا كان لايعنى القيادة الصهيونية سوى فقط «منطقة المشرق العربى» فإنه يصير من الطبيعى أن تدفع شمال إفريقيا بطريقة غير مباشرة للترابط مع دول السوق المشتركة، أما ما يتبقى من الوطن العربي - أى ابتداء من مصر حتى العراق، ومن الشام حتى السودان - فإنها تخضعه لعمليات متعددة:

أولاً: حروب جانبية فى العراق، فى لبنان، وفى جنوب السودان (1).

ثانياً: تطويع القيادات: فى لبنان، في سوريا، فى مصر، فى الأردن.

ثالثاً: ترسيب لمفاهيم اليسر والرفاهية - فى منطقة الخليج فى مصر.

رابعاً: الدفاع عن الوضع القائم - فى اليمن.

من هذه العمليات تملك فلسفتها وأدواتها، ولكن الذى يعنينا أن نؤكد عليه مؤقتا أن خلف هذه العمليات هناك حالة خوف حقيقية، تسيطر على القيادات العسكرية المسؤولة من حدوث تضامن يرتفع إلى مستوى التكتل الإرادى من جانب الشعب العربي فى حرب طاحنة ضد الوجود الصهيونى. وهى تعلم جيداً بروز مجموعة من الحقائق تدرك أنها لن تستطيع التعامل معها فى المدى البعيد.

1 - تضخم السلاح العربى. التفوق الذى ميز إسرائيل حتى الأمس القريب، والذى لا يزال قائما، هو صحيح بالنسبة لكل دولة عربية على حدة؛ ولكن لو تجمعت الدول العربية. وفقط (دول المواجهة) ونظمت عملية التعامل من منطلق مبدأ توزيع الأدوار والتحرك خطوة خطوة نحو الجسد الإسرائيلى لقضى على إسرائيل. إن التفوق الكمى بالنسبة لإسرائيل فى هذه اللحظة لم يعد يتجاوز 1 : 6 لصالح الجانب العربى. كذلك فإن التفوق النوعى قد دخل فى مساراته التى لايجوز الاستهانة بها. ورغم أن هذا الموضوع سنعود له فيما بعد، إلا أنه

(1) نحن الآن فى عام 1998 والحرب مشتعلة على حدود السودان مع إريتريا والحبشة وأوغندا التى تعاون الصليبى الخائن لوطنه قرنق بدعم من القوى الاستعمارية والصهيونية لتمزيق السودان. وأمريكا بدعم من انجلترا وألمانيا قد أعدت العدة لضرب وتمزيق العراق، ولم يكفهم ما فعلوه عام 1991م.

من العلم به من جانب الخبراء العسكريين أن كل دولة من الدول المحيطة بإسرائيل قد تفوقت في بُعد معين من الناحية النوعية. فسوريا في سلاح المدفعية، والعراق في الإدارة العسكرية، ومصر والعراق في النواحي الجوية والصاروخية، وسوريا ولبنان في قتال المرتفعات الجبلية، ومصر وسوريا في حرب الضفادع، بل حتى السعودية يتوقع لها تفوق معين في خلال عدة أعوام في نوع معين من الصواريخ (1).

2 – كذلك التقدم الواضح في الكفاءة القتالية للجندي العربي – وبصفة خاصة – بسبب استيعاب التكنولوجيا المتقدمة، كنتيجة لتجنيد الخبرات الجامعية، ونسبتها الضخمة في الجيش العامل، برز ذلك واضحاً في حرب أكتوبر، وهو اليوم يزداد وضوحاً بسبب التدهور الواضح في الكفاءة الجندي الإسرائيلي عقب خبرة حرب لبنان، ونحن لا نزال في بداية الطريق.

3 – كذلك فإن هناك تطوراً خفيا في القيادات العربية التي بدأت تفهم بوضوح أن بقاءها في السلطة أضحى معلقاً على قدرتها على التفاهم مع هذا المجتمع الجماهيري، الذي بدوره قد تغير بوضوح لأسباب ثلاثة: ثقته في قياداته، وعدم احترامه لها من جانب. ومن جانب التقدم الديموقراطي الذي سمح وحده ليس فقط بنشر المفاهيم التقدمية، بل والقدرة على تقييم الماضي وأخطائه ثم من جانب أخير، الشعور الواضح بمخاطر الحقبة القادمة وما تعنيه من أخطار على مستقبل الشعب العامل. القيادات الحالية بدأت في إجراء عملية تغيير واسعة النطاق، ويبرز ذلك بشكل خاص في الاهتمام بالتخصص العلمي، في نطاق العمل القيادي، ثم الجدية في التعامل مع المشاكل فضلا عن احتواء مشاعر المواطن العادي، الذي أضحى يُحسب له كل حساب، ولكن كل هذه عمليات ترقيع **والقيادة الإسرائيلية تعرف جيدا أن مستقبلها أضحى متوقفا على ظهور زعيم واحد قادر على أن يكتل هذا المجتمع العربي في إرادة واحدة قادرة على التحدي، ورفع راية العصيان والمخاطرة بكل شيء في سبيل استئصال إسرائيل من المنطقة.**

* وهو ما يجعل الفكر الإسرائيلي يرتعد من مجرد التلويح به.

* فمتى يبرز الرجل القادر على أن يخطو هذه الخطوة؟

* سؤال يخرج بنا عن نطاق هذا التحليل.»

((تخريب الجسد العربي ومسالكه:

أحد الأساليب الحاسمة في مواجهة هذا التطور المحتمل، هو: القيام بعملية تخريب في الجسد العربي.

---

(1) إن الأحداث التي وقعت اعتباراً من أزمة الخليج وغزو الكويت تؤكد أن العدو استفاد من كتابات علماء الأمة أمثال حامد ربيع وفوزي طايل، فراحوا يخططون لإجهاض قوة الأمة العربية.

لقد سبق وأبرزنا المخاطر العنيفة المترتبة على ذلك في المستقبل القريب، والتى بدأنا نلمسها بوضوح منذ عدة أعوام، الصحافة اليومية تنقل إلينا فى بعض الأحيان الكثير من المعلومات التى قد تبدو غير قابلة للتصديق، وأنها تتضمن نوعاً من المبالغة أو الإثارة على أن المتتبع للفقه النفسى والسياسى يلمس مدى صحة هذه المعلومات. إن الذى يجب أن نعلمه، هو أن مسألة إضعاف الجسد العربي وتفريغه من كل عناصر القوة هى مسألة حياة أو موت، والاهتمام بذلك ليس بالجديد. ففى المؤلف الضخم الذى كتبه فى نهاية حياته «ابن جوريون» كانت وصيته للقيادات الإسرائيلية: أن اهتموا أساسا بالخطر الجاثم على حدود إسرائيل الغربية، ويقصد بذلك مصر. بل هو يقول بصراحة: مصر التى سوف تصير ثمانين مليوناً فى نهاية القرن.

الأدوات والأساليب بذلك الخصوص لا تعدو واحداً من اثنين أو كلاهما: تحويل مصر إلى مزرعة لإنتاج القمح، وتصدير العاهرات، الأولى اقتصادية بنزع القدرة الصناعية، والثانية أخلاقية بتسميم العقل وإعادة تشكيل نظام القيم.

إضعاف الجسد العربى مسلكه الأساسى هو عملية التخريب، والتخريب منطلقاته عديدة، فلنتذكر بعضها مؤقتاً:

أولاً: عملية التسلل إلى العقل العربى واستغلال هذا التسلل فى عمليات التخريب فضحناها منذ عدة أعوام (*). وقد آن الأوان لأن نراها عن قرب.

الهدف الأساسى من عملية التخريب، هو خلق حالة التيبس فى المجتمع العربى، وبصفة خاصة فى مصر، وما يحدث فى مصر يمكن أن يحدث فى أى مجتمع عربى، التيبس وسيلة واضحة: القضاء على جميع عناصر التغيير فى المجتمع، بحيث يتحول المجتمع إلى جثة هامدة. ما هى عناصر التغيير؟ هى العقول من جانب، والشباب من جانب آخر.

التخريب المعنوى: يتجه إلى العقول، سواء بجذبها إلى الخارج، أو بتحويلها إلى عناصر مغتربة فى الداخل، أو بتوظيفها ضد مصلحة وطنها الحقيقية، وذلك دون الحديث عن خلق التحلل فى ذاتيتها النفسية، والواقع أن احتواء العقل المصرى (*) ليس إلا نموذجاً للتخريب المنظم بأساليب علمية لم تستطع بعد القيادات المسؤولة أن تواجهه.

ثانياً: أما عن الشباب فأساليبه أخرى. عملية نشر المخدرات فى مصر، لم تعد قصة تروى من قبيل القيل والقال، بل إن الأدلة على أنها بتنظيم حقيقى من جانب المخابرات

(*) راجع مقالات الدكتور حامد عبد الله ربيع، والتى نشرت فى الأهرام الاقتصادى الأعداد من رقم 734 وحتى رقم 739 تحت هذا العنوان (احتواء العقل المصرى)، والتى نشرت تحت عنوان: «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية» الكتاب الرابع.

الإسرائيلية لم تعد موضع مناقشة. وهناك من يتحدث عن أدلة بخصوص نشر مرض الإيدز، بل مخططاً أشرفت عليه المنظمات الأمنية الإسرائيلية، تم تنفيذه فى مصر، عقب أن نُفّذ جزئيا فى لبنان، وكشفت عنه المنظمات المسؤولة فى لحظة معينة. لا يجوز لنا أن **نستهين بعملية التخريب، أو أن نتصور أنها عملية محدودة، من حيث آثارها فى المدى القصير.**

إن المجتمع العربى يعيش عملية تخريب حقيقية منذ أكثر من عشر سنوات، استطاعت أن تحيله نفسيا إلى العديد من المجتمعات، حيث كل منها مستقل عن الآخر، إن لم يكن يناصبه العداء.

أ - الفُرقة الحقيقية تسيطر على العلاقات بين مختلف الشعوب العربية؛ بحيث إن التضامن بين أبناء الأمة العربية قد اختفى، وترسبت العداوة بين هذه الشعوب، وارتفع معها مفهوم الولاء الشعوبى ليختفى كل ما له صلة بالولاء القومى. يعترف المحللون الأجانب بأن مجتمعا كالسورى لم يكن فى أى مرحلة من تاريخه منطويا على نفسه، فاقداً لكل ما يمكن أن ينطوى تحت مدلول القومية العربية، كما يلمسه اليوم، أىُ زائر لأرض العروبة التاريخية.

ب - الفُرقة فى داخل الشعب الواحد، بين أطراف الطوائف المختلفة، ونموذجها الواضح ما يحدث اليوم فى لبنان، والذى تتوالى وقائعه أمام أعيننا، وجميع القيادات عاجزة عن أن توقف سيل الدم المنهار. هذا الذى يحدث فى لبنان، امتد فى لحظة معينة إلى مصر؛ بل وكذلك إلى العراق. **عمق المأساة يبرز فى صورة واضحة عندما نتذكر أن القيادات المحلية هى التى تتولى تنفيذ المخطط وفى كثير من الأحيان بلا وعى ولا تدبر.**

جـ - كذلك فإن الفرقة حدثت بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة؛ حيث سيطرت على الأولى عدم الثقة، وعلى الثانية عدم الاحترام. لم تكن فى تاريخ المنطقة الطبقات الحاكمة أكثر استهتارا فى أى مرحلة من مراحلها كما هى اليوم. ولعل نموذجاً واضحا تتوالى فصوله أمام أعيننا فى مصر التى تزعم أنها دولة التقاليد. منذ متى كان حكم أعلى سلطة قضائية تتطاول عليه شخصيات هزيلة(*) تعلم جيدا أنها ليس لها موضع إلا فى مزبلة التاريخ؟

(*) راجع الجرائد والمجلات التى نشرت قضية حامد نصر أبو زيد، يعطيك الدليل كاملاً على صدق كلام الأستاذ الدكتور رحمه الله تعالى، فى كيفية الاعتراض على حكم المحكمة التى قضت بالتفريق بين حامد نصر أبو زيد وزوجه؛ حيث قضت المحكمة بردته لتطاوله على الله عز وجل وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى كتابه سبحانه وتعالى. وبعد أن أظهرت المحكمة حيثيات الحكم بأنه (مرتد) قامت القيامة ولم تقعد حتى الآن، ثم هرب نصر أبو زيد خارج البلاد.

عدم الاحترام من جانب الطبقات المحكومة في الدول الصلبة الثابتة ليست له سوى نتيجة واحدة: فقد الهيبة، والسلطة ليست فقط حقوق وقدرة، بل إنها أيضاً احترام وثقة. وهذا ما حدث في أغلب أجزاء الوطن العربي وما نراه واضحا في مصر. إن علاقة التماسك التي تميز أي مجتمع سياسي، وبصفة خاصة في لحظات الخطر، اختفت كليا وحلّت موضعها ظاهرة تناقض المصالح، والشعور بأن المجتمع من حيث الواقع تفصله طوابق نفسية يستحيل اجتيازها (1).

د - هذه الفُرقة كذلك حدثت بين الطبقة المثقفة (2) والطبقات الأخرى. وهي ظاهرة واضحة في بعض المجتمعات ذات التقاليد الثابتة، كالمجتمع المصري المثقف الحقيقي يقف من سائر أجزاء المجتمع حاكماً ومحكوماً في حالة اغتراب حقيقي.

هذه العمليات النفسية المتنوعة - وبغض النظر عن تفاصيلها - لابد وأن تقود إلى عملية تخريب في الجسد، فإذا بكل قوة في طريق مستقل، حيث تسوده أهداف مختلفة ومصالح متناقضة، بل وفي بعض الأحيان نُظُم للقيم متميزة ومتعارضة. وهذه هي قمة التخريب. **مفهوم الحرب القادمة لايزال يسود الفقه السياسي الإسرائيلي، ولكنها لم تعد حربا نائمة بمعنى اليقظة والاستعداد الدائم، بل وكذلك في الجانب إلى التخريب المستمر.**

المحور الحقيقي لهذا التخطيط هو: الخوف من الإمكانيات العربية - لو قدر لها التنظيم من جانب - والترابط الأيديولوجي من جانب آخر. وهي ليست إمكانيات بمعنى فقط قدرة الجسد على التحدي، بل بمعنى قدرة الأمة المقاتلة على أن تتصدى للسرطان الإسرائيلي تضع حدا لوجوده بالاستئصال (3) الكامل له من المنطقة.

على أن البراعة الإسرائيلية تظهر في استخدام الإسلام كأداة فاعلة في خلق الفرقة، وتدعيم الارتباك المحلي بين القوى التي يتكون منها هذا الشعب المقاتل، الذي قد أصبحت ملامحه محددة تبدو ظاهرة للعيان.

---

(1) إلا إذا طبقت الشريعة الإسلامية، وحُكِمَ بكتاب الله سبحانه، فإن الفوارق الطبقية ستنتهي تماماً، ويكون هذا المجتمع مجتمعاً نموذجياً كما كان في عهد الرعيل الأول.

(2) لقد أصبح المثقف الذي ينسب إلى الإسلام هو الذي يكون في حالة اغتراب حقيقي.. وهذا الذي يعنيه الكاتب رحمه الله.. والله أعلم.

(3) وهذا لايتحقق إلا بإحياء فريضة الجهاد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[التوبة: 36]، وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: 21].

الفصل الثانى

كيف تفكر إسرائيل

مفاهيم اليهود للسيطرة على المنطقة العربية

المبحث الأول: مفاهيم الليكود .. جابوتنسكى.

المبحث الثانى: الأصول الفكرية .. والمبادئ الستة.

المبحث الثالث: الأصول الفكرية .. وعملية بناء الدولة اليهودية الكبرى.

المبحث الأول

مفاهيم الليكود .. جابوتنسكى

تحت هذا العنوان كتب د. حامد عبد الله ربيع:

«مجموعة من الحقائق تسيطر على الإدراك الإسرائيلى، وتتغلغل فى جميع عناصر التصور المسؤول عن مستقبل الدولة اليهودية فى المنطقة، من حيث خصائص تعاملها مع المنطقة، بحيث أن هذه تكون نسيجاً متكاملاً لحقيقة النظرة الاستراتيجية البعيدة المدى، التى تتغلغل فى ذلك الإدراك.

أولاً: هو يميز فى صراعه بين مرحلتين: الأولى السابقة على الحرب، خلال هذه المرحلة التى سبق ووصفناها فى بعض الأحيان **بكلمة السلام المخادع.. هى مرحلة إعداد واستباق للصدام، يقول المنظرون للعلاقات العربية الإسرائيلية: إن هذه العلاقات يسيطر عليها فكرة الحرب النائمة، ففى لحظات السلام هناك رغم ذلك حرب مستترة خفية، إنها حرب غير معلنة، ولكن هذه هى حقيقة العلاقات، إنها مرحلة الإعداد للأرض التى سوف يتعين على جيش الدفاع أن يجتازها، يجب أن يتم حرث تلك الأرض بطريقة معينة، بحيث تصير رخوة ممهدة لاتملك أى عنصر من عناصر المقاومة**، ومن ثم تستطيع القوة والقدرة الإسرائيلية أن تجتازها بلا صعوبة. يجب أن تتحول إلى قطعة من الزبد يستطيع الجيش اليهودى أن يجتازها كالسكين فلا يجد أى عائق، ويسير فى الاتجاه الذى يريده ليصير سيد الموقف، حتى لو كانت قوته ضعيفة ومحدودة.

مرحلة السلام هى إعداد للحرب.

ثانياً: هذا المفهوم الأول ليس بالجديد فى تاريخ الصراع العسكرى، لقد سبق للفكر النازى أن أبرزه وأصلّه، ولكن الفكر الصهيونى أكمله، وجعل منه عقيدة حقيقية، وهو أمر يفسر كيف أننا لن نستطيع أن نفهم الفكرالسائد فى الإدراك الإسرائيلى إن لم نعد إلى «جابوتنسكى» وتلاميذه، نستلهم منه خصائص الفلسفة التى سادت وبلورت نظرة

الصهيونية اليمينية (1) الواقع أن مجيء ليكود (2) إلى السلطة يعبر عن انقلاب حقيقى فى الإطار الفكرى المتعامل مع الواقع. مما لاشك فيه أن التطور الداخلى فى إسرائيل أعد لذلك منذ حرب 1973 بل يمكن القول منذ حرب عام 1967 أخرت التطور العنيف الذى كان يجب أن يحدث، وجاءت حرب 1973 ففرضت على المجتمع الإسرائيلى أن يستيقظ، وجاءت يقظته فى شكل انقلاب خفىّ غير معلن، انتهى بوصول حزب ليكود إلى السلطة، الذي يعنينا مؤقتا أن نؤكد عليه أن مجيء ليكود يعنى وصول نظام للقيم جديد سيطر على الحياة السياسية وعلى أسلوب التعامل مع المنطقة، المفهوم الصهيونى الذى ساد خلال قرابة ثلاثين عاما منذ إنشاء إسرائيل، ليس هو المفهوم الذى يسود القيادة الإسرائيلية اليوم، صحيح أنه أضعف من التغير العنيف نحو نظام جديد للقيم، لكن الأمر الذى يجب أن نكون على وعى به أن ما يسود القيادة الإسرائيلية من قيم فى نهاية الثمانينات ليست هى القيم التى سادت ذلك المجتمع حتى نهاية حرب الأيام الستة.

سهّل هذا التطور العنيف الذى لاتزال القيادات العربية غير واعية بنتائجه ودلالتها عدة متغيرات:

---

(1) إن استخدام مصطلحات «اليمين» و«اليسار» و«الديموقراطية» فى إسرائيل لايعنى نفس المفهوم الغربى لهذه المصطلحات. فليست المبادئ والقيم الليبرالية هى معيار تحديد هذه الأوضاع والمواقف السياسية، بل يعد «الدين» ومدى التمسك بحرفيته فى الفكرة الصهيوني هما المعيار الحقيقى؛ لذا تتخذ معظم الأحزاب العلمانية مواقعها إلى اليسار، فى حين تتخذ الأحزاب الأكثر تمسكا بنظرية الأمن الإسرائيلى أوضاعها جهة اليمين.

راجع كتاب «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل - دار الوفاء طبعة 2 عام 1992 ص 103 وتتلقى الأحزاب السياسية معونات مالية من المنظمات اليهودية فى الخارج، كى تتمكن من الاستمرار فى أداء دورها. ص 107 مصدر سابق.

(2) حزب ليكود أو كتلة ليكود: هو أحد أحزاب اليمين فى إسرائيل، ومعنى كلمة «ليكود» تدل هذه الكلمة على فكرة «أرض إسرائيل بحدودها التوراتية»، بما فى ذلك «ضفتى نهر الأردن». وقد ظهرت هذه الكتلة قبيل انتخابات الكنيست الثامنة، فى شهر سبتمبر 1973، باسم «التكتل اليمينى الإسرائيلى»، بيد أن كتلة «ليكود» وصلت إلى الحكم فى انتخابات عام 1977م بحصولها على (43 مقعدا) بعد أن كانت حصلت على (39 مقعدا) فقط عام 1973م. وتتكون كتلة «ليكود» من ثلاثة أحزاب رئيسية أهمها: «حركة الحرية» (حيروت)، التى أنشأها «مناحم بيجن»، والثانى «الحزب الحر»، والثالث فهو «القائمة الرسمية» (لاعم) وبعد موت «بن غوريون» التحق «لاعم» بكتلة ليكود.

* وفى صيف عام 1973 نشأت كتلة «ليكود» من ائتلاف «جاحال» «المركز الحر» «لاعم» لمجابهة ما أسموه «بسياسة المصالحة» التى تتبعها رئيسة الوزراء «جولدا مائير».

* وقد بدأت كتلة «ليكود» منذ عام 1981 أكثر اندماجاً، بعد أن كان للأحزاب المكونة لها قدر كبير من الاستقلال الذاتى؛ «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء فوزى طايل ص 118، ص 119 مصدر سابق.

المتغير الأول: الأزمة التى كان يعيشها الفكر الصهيونى، وبصفة خاصة فى تقاليد الاشتراكية الحقيقية.

المتغير الثانى: نشوة النجاح التى أعقبت الثغرة المعروفة فى حرب أكتوبر والتى ضخمتها الدعاية الإسرائيلية على أنها تعبير عن الجيش الذى لايقهر.

المتغير الثالث: الضعف القيادى، ويكفى أن نتذكر من هو الذى كان يتزعم حزب العمل: رابين قائد عسكرى، صفحة حياته تحيطها الكثير من عناصر الشك، وشيمون بيريز تعوّد أن يكون الناجح فقط، وهو فى موضع الرجل الثانى ليذكرنا (بإيدن) البريطانى، الذى ما أن يدعى لأن يؤدى وظيفة الرجل الأول حتى يصيبه التلعثم ويفقد القدرة على التصرف السليم.

المتغير الرابع: بروز اليهود الشرقيين وسطوتهم، وبصفة خاصة وهم أقرب إلى جيل السابرا (*) الذى أضحى هو وحده صاحب الكلمة الأولى والنهائية، مما لاشك فيه أن هذا التغير الذى أصاب القيم القومية فى التعامل الخارجى فى حاجة إلى شىء من التحديد رغم ذلك، فعلينا أن نتذكر منذ البداية أن هذا التغير محدود الفاعلية، من حيث الإطار الحقيقى للتعامل.

أ – فكتلة ليكود لم تستطع أن تنفرد بالسلطة إلا فترة قصيرة لم تصل حتى إلى عشرة أعوام، ويجب أن نعترف بأن مشاركة كتلة العمل مع حزب ليكود لابد وأن يخفف من مبالغات اليمين.

ب – كذلك فإن عدم وجود قيادات يقلل من احتمالات السيطرة الفكرية الكاملة وبصفة خاصة أن شارون الذى يمسك العصا من وسطها، ما بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية رجل أنانى لا يؤمن إلا بنفسه.

جـ – إن مفاهيم جابوتنسكى (1) وقد قام مناحم بيجن بإحيائها، وبغض النظر عن

(*) جيل السابرا أو جيل (الصابر) ويطلق عليهم بالعبرية (تصابريم) وهى جمع، وتعنى ثمار التين الشوكى، وتستخدم الكلمة للدلالة على اليهود الذين وُلدوا فى فلسطين وتربوا فى إسرائيل. راجع كتاب النظام السياسى فى إسرائيل – ص 36 مصدر سابق.

(1) جابوتنسكى اسمه «زعيف جابوتنسكى» أما اسمه الأصلى «فلا ديمير جابوتنسكى Vladimir Jabotinsky وهو الذى أنشأ المنظمة العسكرية (ها إرغون تصفا لئومى). وشهرتها «إرغون» عام 1931، وتولى (بيجن) قيادتها عام 1943. بعد أن بلغت قرابة 3000 مقاتل حرب عصابات. وكان من أشهر قادتها (إسحاق شامير) وقد قامت بالعديد من أعمال العنف والقتل والوحشية فى فلسطين (منها مذبحة دير ياسين) فضلا عن أعمال الاغتيال. وهو الذى كان يدعو إلى نبذ فكرة التدرج والتوفيق، التى كان يدعوا إليها الاشتراكيون فى الحركة الصهيونية، والتوجه إلى الكفاح المسلح =

قدرة جابوتنسكى الأيديولوجية، فإن أفكاره تعود إلى فترة سابقة على إنشاء إسرائيل، ولذلك فإن أفكاره لاتصلح ولا تتوافق مع الحقيقة الدولية التى تعيشها إسرائيل فى نهاية القرن العشرين.

سوف نعود فيما بعد لتحديد خصائص فكر جابوتنسكى، وكيف ساهمت فى بناء نظام جديد للقيم السائدة فى المجتمع، وبصفة خاصة فى القيادة الإسرائيلية، ولكننا نحن بصدد تحديد العناصر العامة التى تسود الإدراك القيادى الإسرائيلى، يجب علينا أن نبرز معالم النظام الجديد للقيم، التى تسود هذا الإدراك والتى تربط القوى الثلاث المتحكمة فى التوليفة السياسية التى تحكم إسرائيل:

1 - أول هذه القيم: هى حق إسرائيل فى الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط.

2 - القيمة الثانية هو أن إسرائيل دولة شرق أوسطية وهى كذلك ليس فقط بسياستها الحالية بل وبتاريخها الطويل منذ أكثر من عشرين قرناً.

3 - القيمة الثالثة وهو سيادة المفاهيم الدينية. فى أى نظام للأخلاقيات السياسية يسود المجتمع الإسرائيلى المفاهيم الدينية، بمعنى التقاليد اليهودية الأصيلة التى أسسها الآباء الأوائل بكل ما تتضمنه من تناقضات أو مخالفات للعالم المعاصر.

المتغير الدينى، يصير من ثم أحد المحاور الأساسية للتعامل السياسى.

4 - إنشاء إسرائيل الكبرى بإقليمها المتسع، وكمها الديموجرافى، ووظيفتها القيادية والحضارية بصفتها الهدف النهائى للسياسة القومية اليهودية (1).

ثالثا: إن إسرائيل ليست مجرد دولة تَجَمّع يهود العالم، إنها تعبير عن الوظيفة الحضارية التى يجب أن تؤديها فى عالم القرن الواحد والعشرين، إن المجتمع اليهودى الذى تقيمه الدولة اليهودية ليس مجرد الشعب الذى ظلم وضحى به، إنه مقدمة الحضارة التى آن لها أن تقود الإنسانية لتهدى وتؤصل نظرة جديدة فى الحياة والوجود. وهذا وحده يعطى إسرائيل حقوقا معينة ويفسر ليس فقط حقها فى السيادة على المنطقة، بل وضعها فى أن تتعامل مع الولايات المتحدة على قدم المساواة من جانب، وأن تنظر إلى من يحيط

= لتحقيق الأهداف القومية لليهود، بالحديد والنار، الأمر الذى بلغ حد العداء بين «جابوتنسكى» و«بيغن» من جانب و«بن غوريون» من جانب آخر. وهو عداء ورثه كتلة ليكود، حزب العمل.

راجع إن ردت التوسع كتاب «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل - مطبعة دار الوفاء ص 119، ص 120 مصدر سابق.

(1) النظام السياسى فى إسرائيل لواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل، دار الوفاء المنصورة طبعة 2 عام 1992.

بها من شعوب على أنها تجمعات متخلفة، هى وحدها التى سوف توظفهم فى أداء تلك الوظيفة التى عهدت بها الإرادة الربانية إلى الشعب المختار.

جابوتنسكى ونظام القيم الجديد:

ما هى أفكار جابوتنسكى؟ والتى أعاد إحياءها حزب (ليكود) لتدخل فى تشكيل مفهوم الأمن القومى الإسرائيلى، ويخضع لها الإدراك القيادى بما فى ذلك القيادة العسكرية، والتى يجب أن نتعامل معها خلال الأعوام القادمة؟

الدراسة الحقيقية لتطور القيم وتأثيره فى صنع السياسة الإسرائيلية، لا وجود لها باللغة العربية، مراكز الأبحاث التى بدأت تنتشر فى الفترة الأخيرة فى العالم العربى، تتميز بصفتين: **الأولى** سطحية رجالها، ويكفى أن نتذكر أنه يكاد يستحيل أن نجد متخصصا فى التحليل السياسى يعرف اللغة العبرية، وهو يعيش فى تحليلاته على فقاعات منقولة من الإعلام الغربى اليومى، وواضح أنه بهذا الشكل ينتهى بتسطيح المشاكل وعدم القدرة على الغوص فى خلفيات الحقائق.

والصفة **الثانية**: إن هذه المراكز لاتعرف ما يسمى بالدراسات الحركية إنها تصف القائم، بل وهى تصف ذلك القائم الذى سيطر على الوضع فى المنطقة منذ عدة أعوام دون أن تدرك أن هناك متغيرات جديدة وتفاعلات أكثر عمقا.

مما نتصور أحد أهداف (غزو بيروت) هو تحطيم الإطار العلمى الذى كانت القيادات الفكرية الفلسطينية قد استطاعت أن تؤسسه رغم كل عيوبه، ومنذ ذلك التاريخ لم يوجد حتى اليوم جهاز آخر فى أى بقعة من بقاع العالم العربى، قادر على أن يحل محله فى خارج لبنان، لا يوجد بخصوص هذا الموضوع سوى الترهل.

التغير فى القيم السائدة فى المجتمع الإسرائيلى، وبصفة خاصة من حيث علاقة ونظرة قيادة ذلك المجتمع، بعالم الشرق الأوسط خطير وعميق، والدراسات بخصوصه عديدة بجميع اللغات، عدا اللغة العربية. المكان لايسمح إلا أن نطرح الموضوع فى أبعاده العامة وبصفة خاصة من حيث علاقته بمفهوم الأمن القومى من جانب، ومن حيث موضع المتغير الدينى فى التعامل مع منطقة الشرق الأوسط من جانب آخر.

هذه المفاهيم جاءت مع ليكود، وكانت بدايتها فى خلاف نظرى حول الثورة المعروفة فى التاريخ اليهودى القديم باسم ثورة «باركوفيا»، والتى انطلقت ضد الرومان، وانتهت بتحطيم المعبد الثانى عام 70 قبل الميلاد، فالعالم المشهور «هاركابى» نظر إلى هذه الثورة على أنها تعبير عن خطأ فى فهم المثالية فى تطبيق السياسة الخارجية، وتصدى له ممثل الفكر الليكودى، العالم «الداد» ليؤكد صواب التطرف المنسوب إلى القائد اليهودى بغض

النظر عن هذا الخلاف النظرى، فإن «هاركابى» أراد أن يلفت النظر إلى مخاطر الفلسفة المثالية وتأثرها بالنماذج التاريخية.

و«الداد» راح يدافع عن صلابة مفاهيم جابوتنسكى وصواب النظرة الجديدة فى التعامل مع سياسة إسرائيل الخارجية.

هذه النظرة الجديدة أدت إلى بروز مجموعة من المبادئ، كان لها أثر واضح فى إعادة تشكيل مفهوم سياسة إسرائيل، هذه المبادئ والتى تقف خلفها جميع القوى السياسية الحاكمة، يجب أن تكون واضحة فى الذهن، ورغم أنها تحتوى مجموعة التناقضات، البعض من هذه المبادئ تحيط به عناصر للغموض، ولكنه لايجوز أن يخدعنا ذلك، **وإذا كانت مراكز صنع القرار الدولى تعلم بها، فقد آن الأوان لأن يعلم بحقيقتها واحتمالاتها كل مواطن عربى، ولعل خطورة هذه القناعات**، وهى التى تفسر التصريح الذى فوجئ به منذ عدة أيام رئيس الحكومة الإسرائيلية، عندما طالب «بيكر» القيادة اليهودية بأن تتخلى عن فكرة إنشاء إسرائيل الكبرى، كل من يعرف حقيقة بواطن الأمور والإدراك الإسرائيلى القيادى، يعلم بأن العناصر المسؤولة فى داخل الدولة اليهودية تؤمن بأن واجبها التاريخى أن تحقق النبوءة، وأن تحيل الخيال إلى واقع، وأن تحقق الهدف النهائى وهو الدولة اليهودية العظمى، التى تتلقف الرسالة الحضارية التى عهدت بها العناية الإلهية إليها، والتى سوف تنتقل إليها فى خط مستمر من القيادة الروحية يبدأ بأثينا ويتلوه بروما وعبر سلسلة متتالية من الماضى، سوف ينتهى فى القدس.

ولكن ما بالنا نتقدم بالنتائج.

عناصر الإدراك الإسرائيلى:

هذا الإدراك الذى تلقفه «مناحيم بيجن» من «جابوتنسكى»، والذى تمت إعادة تطويعه تدريجيا والذى تفاعلت فى داخله مفاهيم «شارون»، ومن خلفه المؤسسة العسكرية، قاد إلى وضع الأصول العامة للإدراك الإسرائيلي، فلنحدد عناصره قبل أن نطرح موضوع الإسلام فى هذا الإدراك:

أ - أول عناصر هذا الإدراك أن العالم العربى ليس إلا تكوينا مصطنعا خلقته الإمبريالية العالمية، الأمة العربية لغو لا وجود له، لا يوجد شىء اسمه العالم العربى. تاريخ هذه المنطقة هو فقط قصة الاعتداءات على الأقليات المسلمة وغير المسلمة، أحد مسالك تفجير المنطقة هو التوترات الدينية، وبصفة خاصة بين الشيعة والسنة، منطقة الشرق الأوسط هى أرض الأقليات الدينية وليست أرض الأمة العربية، التى هى وهم خلقه الإدراك الخاطئ من الجانب الأوروبى.

ب - هذا الواقع يُسهل على إسرائيل مشكلة التسرب فى داخل منطقة الشرق الأوسط، **محور السياسة الإسرائيلية أنها يجب أن توطد علاقاتها مع الشيعة والدروز والطائفة المارونية، لأن هذه القوى تقع فى دائرة الضواحي بالنسبة للسنة وهى من ثم قادرة على أن تخلق نوعا من الضغط الجانبى على القدرة السنية.**

جـ - الزعم بأن إيران ضد إسرائيل ليس إلا لغة غوغائية آن الأوان لإخضاعها لنظرة نقدية حقيقية. العلاقات بين إيران واليهود علاقات تاريخية، والصداقة بين الشعبين رغم أنها اجتازت مراحل متباينة إلا أنها تاريخية وقديمة، هنا ترابط حضارى بين الشعبين الفارسي واليهودى. يجب أن يعود إلى الحياة، وحتى لو من منطلقات جديدة وبمنطق جديد (وفق منظور هذا الإدراك).

د - خلف هذه النظرية هناك قناعة فى القيادة الإسرائيلية بأن العالم العربى على استعداد لأن يتقبل الوجود الإسرائيلى فى المنطقة، العالم العربى لم يَكره اليهود، ولم يعرف مفهوم التعصب العنصرى فى مواجهة الشعب اليهودى. هذا المفهوم صُدِّر له من خلال مفاهيم التعامل السياسى مع القرن العشرين، وهواليوم فى حاجة لأن يتعلم كيف يستقبل الوجود الإسرائيلى، وبصفة خاصة قيادة الوجود الإسرائيلى للمنطقة.

هـ - وهكذا برز مفهوم جديد فى السياسة الخارجية الإسرائيلية ليعلن عن أهدافه بصراحة، وبلا حياء، وهو استخدام القوة العسكرية كأداة لتحقيق أهداف سياسية.

إن مفاهيم «كلاوزيفتش» يجب أن يعاد صياغتها، ومع مجيء «مناحم بيجن» وبصفة خاصة على يد «شارون» برز واضحاً مفهوم أساسى وهو مفهوم مخالف كلية لمفهوم حزب العمل، وأساسه ليس احترام الوضع القائم، أو التظاهر باحترام ذلك الوضع القائم وإنما تغيير هذا الوضع ولو باستخدام الجيش كأداة تهديد، أو أداة تحطيم، ومن ثم برزت ملامح معينة بعضها تحقق وبعضها لايزال لم يُقدر له التحقق، ولكن القيادة الإسرائيلية تعمل بدأب على تحقيقه:

أولاً: إجراء اتفاقية سلام مع مصر، وفتح حدود التعامل بين الدولة العبرية ودولة شمال وادى النيل.

ثانياً: إنشاء دولة درزية فى سوريا ولبنان.

ثالثاً: تحويل العراق (1) إلى دولة فيدرالية متعددة الأجناس.

رابعاً: التدخل العسكرى فى لبنان وتحويله إلى مجتمع مفتت، يفقد فيه أى مواطن

(1) وقد تم ذلك نتيجة حرب الخليج الثانية، وفقد العراق استقلاله وقدراته وها نحن فى انتظار تدخل أمريكى إنجليزى مسلح فى العراق لاستكمال ما بدؤوه فى حرب الخليج (فبراير 1998).

الشعور بالانتماء إلى أى سلطة سياسية تعرف كيف تحميه.

خامساً: إنشاء دولة مارونية فى لبنان توقع على صك مماثل لاتفاقية «كامب ديفيد».

و – كذلك فإن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ليس محورها حاجة إسرائيل إلى المساعدة والمساندة من جانب، وحاجة الولايات المتحدة لخلق أداتها فى المنطقة من جانب آخر. العلاقة أبعد من ذلك وأكثر عمقا إن هناك تحالفاً بين دولتين على قدم المساواة:

أولاً: بحيث إن علاقة تل أبيب بواشنطن يجب أن تسوده النديّة، وهكذا كان التطور نحو التعاون الاستراتيجى، ثم التحالف الحقيقى بين الدولتين الذى تم فى إطار هذه القناعة، وهو أمر يبدو واضحاً عندما كان لايزال مناحم بيجن يجلس في مقعد القيادة فى الجانب الإسرائيلى، وعندما كان «هيج» لايزال مسؤولا عن السياسية الخارجية الأمريكية من جانب آخر، وقد ترتبت على ذلك نتائج البعض منها لا يستطيع العقل الواعى أن يتصوره، وهو تأكيد ودليل على البراعة الإسرائيلية، وكيف أنها استطاعت أن تخلق لها الوظيفة، التى تحيل الضعف إلى قوة.

ورغم أن المكان لم يحن بعد لأن نعلن عن ذلك، إلا أننا نستطيع أن نُلمّح به، والذى يدور حول أن يعهد إلى تل أبيب باستخدام القنبلة النووية التكتيكية لإيقاف التدفق السوفيتى لو قُدر لحلف وارسو أن يحاول اكتساح وسط وغرب أوربا، سوف نعود لذلك فى موضعه، ولكن لنتذكر فقط مؤقتا كيف أن هذا والذي نعتقد أنه خلف التحول الواضح فى الابتعاد، ولو قليلا عن إسرائيل فى الجانب الأوروبى وبصفه خاصة فرنسا، كان يجب أن يكون موضع الدراسة العميقة الجادة من الجانب العربى لخلق العداوة، أو على الأقل عدم الثقة من الجانب الأوروبى فى مواجهة إسرائيل.

ولكن لمن نتحدث وهذه القيادات العربية المترهلة لاتزال تسيطر على مقدراتنا، سواء فى جامعة الدول العربية ومنظماتها، أو فى داخل الدول العربية ومؤسساتها؟

عودة إلى نقطة البداية فإن هذه النظرة إلى واشنطن كان لابد وأن تتبلور حول نقطتين أساسيتين:

أولاً: العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة ليست مجرد علاقة بين دولة صغيرة وإمبراطورية كبرى، إنَّها على العكس من ذلك علاقة بين مجتمع يهودى له وظيفة عالمية يتواجد جزء منه فى الولايات المتحدة، وهو هذا الجزء هو السبب فى الازدهار والتقدم الذى حققته تلك الولايات المتحدة، والأداة النظامية لذلك المجتمع اليهودى، التى تحمل على كتفيها مسؤولية تحقيق تلك الرسالة.

ثانياً: إن المساعدة الأمريكية لايجوز أن تستخدم كسلاح للضغط على إسرائيل، إنها نفقات لحماية التواجد الأمريكي في المنطقة، بل ويجب أن تُدرج في باب النفقات العسكرية وليس المساعدات أو المعونات، وكما أن الشعب اليهودي هو الذي مكن المجتمع الأمريكي من الازدهار والتفوق، فإن إسرائيل هي التي سوف تمكن السياسة الأمريكية من التوغل والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط، بل وفي جميع أجزاء البحر المتوسط.

لقد وصلت هذه القناعات إلى نفس القيادة الأمريكية العسكرية التي عجزت في تخطيطها للتعامل الدولي، ولكن هذا موضوع آخر سوف نعود له في موعد آخر بالتفصيل الكافي، والذي خلاصته بإيجاز مؤقتا أنّه في حالة، اعتداء مكثف من جانب حلف وارسو على أوروبا، فإن العسكرية الأمريكية سوف تستند في تعاملها مع حوض البحر الأبيض المتوسط إلى عنصرين أساسيين:

الأول: وسبق وذكرناه وهو إيقاف التدفق السوفيتي في وسط أوروبا، وبصفة خاصة في ألمانيا بضربة بالقنابل النووية التكتيكية التي هي وحدها تسمح بتحقيق ذلك الهدف وسوف يعهد إلى الطيران الإسرائيلي بالقيام بتلك الوظيفة.

الثاني: أن القوات الأمريكية لمنازلة الغزو السوفيتي سوف تعهد إلى الطيران الإسرائيلي القيام بتلك الوظيفة. لن تعيد قصة الحرب العالمية الثانية في أوربا ولكنها سوف تجتاح شمال إفريقيا، ابتداء من المغرب حتى وادي النيل.

ز – كذلك فإن النظرة إلى الضفة يجب أن تنبع من تلاقي الاعتبارات الأمنية بالحقوق التاريخية، هذه المنطقة جزء من أرض إسرائيل الكبرى، وليس هناك موضع للنقاش بخصوص انتمائها. تنظيم وضع العرب في داخل الأرض التي ليست محتلة، ولكنها محررة مقبول ولكن ليس أكثر من ذلك، إنَّه نفس المنطق الذي سبق وأن استخدمته السلطات السوفيتية وهي تحاول إنشاء دولة يهودية في الاتحاد السوفيتي الأرض الإسرائيلية ولكن تنظيم مصالح أهالي تلك الأرض يمكن أن يُعبّر عن إرادة أهالي تلك الأرض التي تظل موضع الرسالة والوعد الإلهي للشعب اليهودي، منذ مجيء ليكود إلى الحكم فإن نظرته بهذا الخصوص كانت واضحة وصريحة:

أولاً: قانون القدس عام 1980.

ثانياً: ضم منطقة الجولان في عام 1982.

ثالثاً: خطة الاستيطان في القطاع والتي تم تنفيذها بهدوء وبذكاء يتجه في جوهره إلى الاستئصال المعنوي والعضوي للعنصر العربي.

رابعاً: موضوع الانتخابات فى الضفة والقطاع.

علينا أن نتذكر وهو ما سبق وذكرناه، نكرره مرة أخرى رغم أن الوقت لايزال لم يحن بعد للتفصيل فى عناصره. إن الهدف البعيد المدى لإسرائيل، هو أنه فى لحظة معينة سوف يطرح مستقبل هذه المنطقة فى استفتاء تحت إشراف المنظمات الدولية، بعد أن تكون السلطات الإسرائيلية قد وثقت من أن النتيجة سوف تكون لصالحها بمعنى أن أغلبية من يصوت من أهالى المنطقة سوف يطالب بالانضواء تحت السيادة الإسرائيلية أيضا، هذه الناحية سوف نعرض لها فى موقعها بالتفصيل، وسوف نترك بخصوصها الوثائق تتحدث، وبصفة خاصة التقرير الذى صدر عن مركز يافا للدراسات الاستراتيجية بعنوان «الضفة الغربية وغزة منذ عدة أسابيع».

ولكن بقيت أهم نتائج هذا التطور من جانب النظرة إلى إسرائيل، على أنها دولة شرق أوسطية، ومن جانب آخر القناعة بأن الدين هو عنصر أساسى فى إطار التعامل مع منطقة الشرق الأوسط، كلاهما يكمل أحدهما الآخر، **ولكن الذى يعنينا مؤقتا هو عنصر الدين الإسلامى كمحور للتعامل بين القيادة الإسرائيلية والعالم العربى فى صراعه الحالى والمستقبلى.**

الإسلام والصراع العربى الإسرائيلى:

يرتبط بعملية التخريب الداخلى، والذاتى استخدام الإسلام كورقة فاعلة فى الإرباك المحلى، وتعميق التناقضات الفكرية والمذهبية، والواقع أن هذا يرتبط بتلك القناعة الصهيونية بأن الدين هو متغير أساسى فى الوجود السياسى، وفى الحركة المرتبطة بذلك الوجود سواء من حيث التعامل الذاتى أو الصراع الدولى.

على أن هذه الناحية فى حاجة إلى الكثير من الدقة فى التحليل والمعاناة الفكرية فنبدأ بمتابعة **تاريخ التعامل الصهيونى مع هذه الحقيقة الإسلامية:**

أ- فى بداية الحركة الصهيونية كانت أحد أدوات التعامل بقصد تدعيم القناعة بالدعوى الصهيونية، هى عملية **الإغراء التى توجهت إلى القيادة العثمانية (1) فى القسطنطينية.** ورغم أن الوثائق التى نُشرت أخيرا لا تسمح بعد بأن نقول كلمة نهائية إلا أنه واضح أنه عند عناصر معينة لايمكن الشك فى الدلالة التاريخية:

(1) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أ.د. عبد العزيز الشناوى مكتبة الأنجلو المصرية كتاب الطريق إلى بيت المقدس جـ 2. د. جمال عبد الهادى مسعود. طبعة الوفاء، المنصورة؛ الدولة العثمانية، جزءان، نفس المؤلف دار النشر.

الأولى: **إن القيادات الإسلامية فى عاصمة الخلافة العثمانية لم تسمح بأن تحيد ولو لسنتيمتر واحد عن القناعة برفض كل مطالب الصهيونية مهما حدث من إغراءات.** بل إن الوثائق تحدثنا عن بعض من قبض مقدما ورفض الانصياع مؤخراً. كانت الإمبراطورية العثمانية صخرة ثابتة.

الثانى: إن التوافق أو الإغراء نجح فى بعض القيادات الإسلامية المحلية فى أرض فلسطين، ومن منطلق آخر إلى جوار المنطلق الدينى، حيث لعبت الأنانية وضيق النظر دورا هاماً وأساسياً.

الثالث: إن جميع القوى الدولية ورغم نظام الامتيازات الذى فتح بابا واسعا للتحايل لصالح الهجرة اليهودية للمنطقة، عملت حساباً للإرادة العثمانية بما فى ذلك نفس السلطات الروسية.

ب – فى مرحلة لاحقة وبصفة خاصة عقب أن برزت القوة العربية فى النطاق الإقليمى، بدأ الغزل يتجه إلى القيادات العربية من منطلق مفهوم القومية العربية، محور الغزل خلال هذه المرحلة كان أساسه أن اليهودية، قومية قادرة على أن تساند تطلعات المنطقة إلى الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية، التى خانت وعودها مع تلك القيادات. العروبة هى لغة التعامل، وكانت منطلقا للتحالف، بل والتصدى فى حلف واحد ضد الاستعمار بمختلف صوره، وسوف يتسع هذا التصور، وسوف تتبلور هذه اللغة عقب الحرب العالمية الأولى لتتجه أيضاً إلى الاستعمار البريطانى، **وقمة النجاح فى هذه المرحلة بدأت عندما استطاعت القيادة الصهيونية أن تحصل على وعد من «بطرس غالى» وزير الخارجية المصرى فى ذلك الوقت، بإنشاء دولة إسرائيلية فى منطقة العريش، ولم يمنع ذلك المشروع من التحقق إلا التصدى البريطانى، الذى أنهى الموضوع برمته بكلمة من لندن. هل مقتل بطرس غالى ارتبط أيضا بهذه الواقعة؟ سؤال لم يجب عليه بعد المؤرخون.**

جـ – جاءت مرحلة لاحقة استغرقت قرابة عشرين عاما، استطاعت خلالها الدعاية الصهيونية أن تقيم حائطا فكريا بين المشكلة الفلسطينية والعالم العربي. إذا كانت أرض فلسطين ترفض التواجد الصهيونى المكثف، فلم يكن ذلك إلا نتيجة التناقض الطبيعى بين مصالح أهل تلك المنطقة الذين يريدون أن يظلوا فى حالة التخلف، والمجتمع القادم الذى يحمل الحضارة والنبوغ والتقدم خلال هذه المرحلة، والتى تمتد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية نلحظ **ويجب أن نعترف بمسؤولية القيادات العربية وبصفة خاصة فى مصر، لو أن الطبقة المثقفة فى مصر فهمت واجبها الحقيقى وتصدت لهذا التطور لما كانت إسرائيل قد أنشئت عقب الحرب العالمية الثانية.** بل إن المتتبع لمناقشات مجلس الوزراء المصرى فى نفس الفترة التى دارت فيها جولة الحرب العربية الإسرائيلية، والتى سُميت فى الفقه اليهودى بأنها حرب التحرير لايستطيع أن يمنع نفسه من التساؤل:

أين كانت هذه القيادات؟ أين كانت الطبقات المثقفة لتنير الطريق أمام المسؤولين؟ ولكن لماذا نتساءل هل تغير الموقف حاليا؟

د - خلال جميع هذه الفترات الثلاث، نلحظ أن الفقه الصهيونى، كان يجعل منطلقه الثابت هو تشويه التراث الإسلامى والصورة العربية.

ونلحظ بهذاالخصوص وبإيجاز شديد أن أعمدة الدعاية الصهيونية التى كانت تتمركز أولا فى سويسرا ثم انتقلت قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى نيويورك جعلت مساراتها ثلاثة:

أولاً: **إن الترابط بين التراث اليهودى والتراث الكاثوليكى أقوى من أى تهمة يو صف بها الشعب اليهودى، وبأنه مسؤول عن دم المسيح**، فالمصادر واحدة والقناعات الأساسية واحدة والعلاقة بين الدينين هى علاقة توالد وليست علاقة تعارض.

ثانياً: **أنه بقدر هذا الترابط فهناك صدام بين الدين الإسلامى من جانب، وكلا الديانتين اليهودية والكاثوليكية من جانب آخر**، وأن الأول وهو دين فطرى لايعرف المثالية ولايتحدث إلا بلغة الدم والقهر.

ثالثاً: هذا الدين الإسلامى رغم ذلك لم يستطع أن يؤثر فى العالم العربى، الذى لا يصلح لأن يرتفع إلى مستوى الجماعات المتقدمة. إنه فى نهاية الطابور الطويل للوجود الإنسانى، بل إن الزنجى الأسود أكثر منه صلاحية، واستجابة لتعاليم الديانات السماوية.

هـ - خلال الفترة التى أعقبت إنشاء إسرائيل، لم يتغير المنطق الصهيونى، فى كلياته وظل كذلك حتى مجىء ليكود إلى السلطة، ولعل أحد أسباب ذلك سيادة مفاهيم حزب العمل الذى حاول بكل إمكانياته أن يقلص المتغير الدينى فى التعامل، المتتبع للفقه الصهيونى خلال الفترة الأخيرة يلحظ هذا التطور الخطير والجديد:

أولاً: **فهو يحاول خلق الجسور بين ما يسميه الحضارة اليهودية والتراث الإسلامى بل ولا يتردد أن يتحدث عن المصادر اليهودية للقرآن.**

ثانياً: بل هو لايقتصر على أن يطلق هذه الفكرة كبالون اختبار، بل ينقلها إلى مشروع سياسى يرتبط بالقدس، ونجح فى خلق القناعة بها، سواء لدى الرئيس «السادات» أو لدى القيادات المسؤولة فى الفاتيكان.

ثالثاً: ويكتمل ذلك بنظرته إلى منطقة الشرق الأوسط أنها عالم إسلامى، يضم أقليات متعددة ومتباينة ومختلفة عرقيا ومذهبيا، وهكذا تختفى كلمة العروبة فى هذا الإطار كليا.

إسرائيل فى التصور الجديد، دولة تنتمى إلى الشرق الأوسط تاريخيا وحضاريا، بل وعنصريا، وهى اليوم تعود إلى موقعها الطبيعى لتؤدى وظيفتها التاريخية وتصل إلى قمة النجاح عندما توفق فى توريط العالم المعروف بتضامنه مع العرب «جارودى» (1) فيصدر أحدث كتبه بعنوان «فلسطين أرض الرسالات الإلهية».

هذه جميعا مقدمات لفهم لماذا الاهتمام بالمتغير الدينى فى التعامل الإسرائيلى مع منطقة الشرق الأوسط العربية؟ وهى تستخدم هذا السلاح كسكين بحدين تمزق من جانب القدرة العربية، وتلوى من جانب آخر القدرة غير العربية.

كيف حدث ذلك؟

سؤال فى حاجة إلى وقفة تأمل.»

---

(1) لقد لف اللوبى الصهيونى الإعلامى الحبل حول عنق «جارودى» محاولاً أن يقصف قلمه إلى الأبد من خلال أجهزة الإعلام، ويسمع «جارودى» التهديدات باغتياله علناً من خلال أجهزة الإذاعة والتليفزيون. بل هناك برامج مخصصة لذلك بتمويل صهيونى يظهر فيها من يقول: «سأقتل جارودى... سأضربه بالرصاص؛ لأنه أهان اليهودية ويحاول تشويه صورة أجدادى!!».

* وهذه ليست المرة الأولى التى يتعرض فيها «جارودى» إلى مثل هذه العداءات الصهيونية فقد رفعت منظمة (ليكرا) دعوى على «جارودى» عام 1994، لأنه انتقد السياسة الإسرائيلية فى حرب لبنان، ورغم أن الدعوى رُفِضَتْ وحُكِمَ على (ليكرا) بالمصاريف .... ففى صباح 25 أبريل من نفس السنة، سمع «جارودى» طرقات على باب منزله وفتح الباب فوجد أحد المحضرين وهو يمسك ورقة يطلب الحضور إلى المحكمة للرد على قائمة اتهامات قدمها اليهود ويطالبون بمحاكمته لما اقترفه من مهانات، وأكاذيب ضدهم.

* وفعلا قررت الصهيونية العالمية، إعادة محاكمة «جارودى» طبقاً للقانون (جايسو - فاييونى) بتهمة معاداة السامية، وهذه جريمة تشكل جناية وليست جنحة طبقاً لهذا القانون التعسفى.

* والآن وفى نهاية عام 1997 ومع بداية عام 1998 يُقدم «جارودى» للمحاكمة أين؟.. فى فرنسا.. التى يتشدق فيها كل مثقف بأنها أم الديموقراطية.. وبها حرية الكلمة، ولكن ليس هناك عجب، حيث نقرأ فى مذكرات «شارل ديجول» وهو يقول: «لم أكن أعرف أن فرنسا أصبحت يهودية؟!!».

راجع فى ذلك كله: «كتاب جارودى والإسلام وغضب الصهيونية» محمد فوزى - المركز العربى للنشر والتوزيع - ص 3 - ص 8. ؛ جريدة الفيجارو: 26 أبريل 1996. ؛ جريدة ليبراسيون الفرنسية: 3 مايو 1996؛ جريدة الأهرام 96/6/18. * جريدة الأهرام 1996/7/23؛ جريدة الأهرام 1996/7/30؛ كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ومحاورات جارودى بالقاهرة - الناشر دار الغد العربى الطبعة الثانية.

المبحث الثانى

الأصول الفكرية .. والمبادئ الستة التى تسيطر على السياسة الإسرائيلية فى صياغة مفهوم الأمن القومى

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«أخطر ما يعنيه التطور المعاصر للمجتمع العربى، والذى تدخله القناعة فى حساباتها هو ما سبق وذكرناه تحت كلمة (**ميلاد المجتمع الجماهيرى**)، يرفض أساليب التعامل المعتاد، فالتخويف أو الإرهاب لايجدى معه شيئاً، وإن كانت له جدوى فهى مؤقتة رأينا ذلك فى داخل الأرض المحتلة، التى رفعت علم الانتفاضة، والمجتمع الجماهيري يملك قيادات من نوع معين كذلك، فإن منطق التعامل الجماهيرى يندفع من خلايا فكرية مختلفة.

المجتمع الجماهيرى قنبلة يمكن نزع فتيلها، ولكن إن لم يتم نزع تلك الفتيل فى لحظة معينة وبأسلوب معين يعنى انفجار لاتحمد عقباه، وأخطر ما يعنيه المجتمع الجماهيرى أنه لو توفرت فيه عناصر معينة فإنه يعنى أيضا ميلاد الأمة المقاتلة، وهذا هو أخطر ما يعنيه كمفهوم وكإرادة.

العالم العربى اليوم لم يقدم نموذج الأمة المقاتلة، إلا فقط منذ حرب أكتوبر فى حرب أكتوبر ولدت الأمة المقاتلة على ضفاف قناة السويس، هذه الأمة المقاتلة هى التى نجحت فى عبور القناة، ولكن التطور لم يكتمل، وانتقلت إرادة القتال من وادى النيل إلى وادي الفرات. ولكن مرة أخرى فإن التطور لم يكتمل، ومرة أخرى انتهت حرب عربية دون أن تخلق الأمة العربية، وأعقب ذلك الانتفاضة، **وللمرة الأولى اكتملت عنا صر الأمة المحاربة: إرادة قيادية، و ضوح فى الرؤية، شعب يضع حياته فى كفة الجهاد**.. ولكن كل ذلك فى حاجة إلى فيضان.

فهل تساهم «إسرائيل» من حيث لا تدرى فى خلق العدو الحقيقى القادر على استئصالها.

فى هذا الإطار نستطيع أن نفهم حقيقة ومعنى المبادئ التى تسيطر على السياسة الإسرائيلية فى صياغة مفهوم الأمن القومى.

ستة مبادئ أساسية:

أولاً: منع التضامن العربى من أن يحدث أى نوع من أنواع التقارب بين المشرق العربى.

ثانياً: إجراء عملية تخريب واسعة النطاق في جميع أجزاء الجسد العربى.

ثالثاً: استخدام ورقة الإسلام كأداة للإرباك وخلق التناقضات.

رابعاً: تدعيم الترابط مع الولايات المتحدة وتحويله إلى تحالف استراتيجى.

خامساً: البحث عن حلفاء جدد فى عملية المساندة الدولية(1).

سادساً: خلق التحالفات الإقليمية الضاغطة.

سبق أن أبرزنا المبادئ الثلاثة الأولى، وحللناها بالتفصيل الكافى، وبقى أن نتعرض للمبادئ الثلاثة الأخيرة.

كذلك سبق أن رأينا أن مفهوم التعامل مع الولايات المتحدة من جانب تل أبيب، وكذلك وبصفة عامة الوضع فى نطاق الأسرة الدولية، قد خضع لإعادة تشكيل من جانب القيادة الإسرائيلية الجديدة، وبصفة خاصة منذ مجىء «مناحم بيجن» إلى السلطة وتمركز اليمين الجديد فى السلطة، ومحور ذلك ثلاثة عناصر أساسية:

العنصر الأول: إن إسرائيل أضحت فى قناعة بأنها تؤدى فى العالم المعاصر وظيفة حضارية وقيادية تضفى عليها واقعاً معيناً، وتعطيها حقوقاً معينة فى الأسرة الدولية.

العنصر الثانى: إن إسرائيل أضحت تميز فى صورة واضحة بين عملية إنشاء إسرائيل الكبرى، وحقها فى الهيمنة والسيادة على المنطقة.

الأول: هو الوعد الإلهى، ولكن.

الثانى: هو أمنها القومى أكثر اتساعا من حيث ميدان التعامل، يكاد ينقلنا إلى المفاهيم النازية التى عُبِّرَ عنها بفكرة المجال الحيوى.

العنصر الثالث: إن كل ذلك يرتبط بأبعاد اقتصادية معينة، تدور حول حق إسرائيل، ليس فقط فى البقاء بل وفى المحافظة على مستوى الحياة للمواطن الإسرائيلى فى مجتمعه القومى.

---

(1) مثال ذلك تحالفات اليهود مع تركيا، أديس أبابا وأوغندا وأريتريا واليونان وحلف الأطلنطى.

فى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نفهم المبادئ الثلاثة الأخيرة، والتى قد تبدو بعيدة عن ميلاد المجتمع الجماهيرى العربى، ولكنها كما سوف نرى فى صميم هذا التطور الخطير فى منطقة الشرق الأوسط.

النظرة الجديدة للتعامل الدولى والإقليمى:

التطور الحقيقى الذى تعيشه العقلية الإسرائيلية، هو ذلك المرتبط بنظرية التعامل الدولي، ويبدو ذلك واضحاً عندما نلحظ أن المفاهيم السائدة اليوم فى التصور الإسرائيلى ورغم أن صياغتها جاءت على يد (حيروت[1]) وحلفائه، إلا أنها من جانب أقرب إلى الصهيونية الاشتراكية مما نتصور، ومن جانب آخر واستجابة للتطور الاجتماعى والاقتصادى للقوى التى يتكون منها المجتمع الإسرائيلى، ولعل هذا نموذج واضح لكيف أن السياسة الخارجية لاتعرف أيديولوجيات، وإنما تنبع فى داخلها من الواقع الحى.

النظرة التقليدية والتى سادت فى الدوائر المسؤولة الإسرائيلية، وبصفة خاصة حتى عام 1967 ظلت تمارس تأثيرها حتى مجيء ليكود إلى الحكم عام 1977. انطلقت – وبغض النظر عن الجزئيات – من أربعة مفاهيم كل منها يكمل الآخر:

أولاً: مفهوم الأمن القومى يمثل الحد الأدنى للحماية الذاتية، وهو مفهوم مستقل عن السياسة الخارجية، يرتبط فقط بعلاقة إسرائيل بدول الجوار الجغرافى.

ثانياً: مفهوم آخر أساسه أن السياسة الإسرائيلية وجوهرها هو إقامة حائط يحيط بها، أنها مجتمع الجيتو فى منطقة الشرق الأوسط، وقد أضحى حقيقة سياسية، هذا الحائط ليس فقط للحماية السياسية، بل وكذلك لحماية النقاء العرقى.

ثالثاً: التعامل مع العالم يجب أن يكون حذرا، هذا العالم بأجمعه هو الذى كره اليهود، وهو الذى سعى إلى استئصاله، وهو لايزال يكره اليهود، لأن هذا العالم لم يتغير ولم تتغير نظرته إلى إسرائيل، سوى أن يهود إسرائيل يصارعون اليوم مجتمعا وهو المجتمع العربى أيضا بدوره موضع الكراهية مع الأسرة الدولية.

رابعاً: على إسرائيل وعلى قيادتها السياسية أن تتجنب أى تورط.

التورط هو قيود تمنع الحركة وقد تقود إلى نتائج لن تستطيع إسرائيل مهما بلغت من الذكاء أن تتخلص منها فى المستقبل.

---

(1) حزب (حيروت) هو العمود الفقرى لكتلة ليكود، وحزب (حيروت) – الذى أنشأه بيجن عام 1948 – يُعد وريث حزب «الإصلاحيين» الذى أنشأه «زعيف جابوتنسكى عام 1921م. والذى يدعو إلى نبذ فكرة التدرج والتوفيق التى كان يدعو إليها الاشتراكيون فى الحركة الصهيونية؛ «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أ.ح.د. فوزى طايل ص 119 مصدر سابق.

عقب مجيء ليكود وبصفة خاصة عقب حرب لبنان، سوف نكتشف مفهوما جديدا للسياسة الخارجية. السبب الحقيقى فى هذا التغير هو أن إسرائيل لم تعد تمثل مجتمع الجيتو الذى عرفته العقلية اليهودية وسيطرت على القيادة اليهودية حتى عام 1967 وهى رغم هزيمة أكتوبر سرعان ما استعادت نفسها عسكريا، ثم غزت أكبر دول المنطقة دبلوماسيا وهى تهدد وتتصدى فى المنطقة، هذا الواقع الجديد كان لابد وأن يعكس نظرة تتضمن عناصر جديدة للسياسة الخارجية. قد تبدو هذه السياسة غير واضحة وغير مقننة، ولكن متابعة الجزئيات تسمح ببناء عناصرها المختلفة.

أ – لقد توسع مفهوم الأمن القومى، ليصير مرادفا للسياسة الخارجية، إنه لغة القوى وقد أضحى واعيا بقوته.

ب – الحائط الذى أقامه «بن جوريون» وأبناؤه ليس مشكلة حدود مغلقة، وإنما هو سيادة قوية تخيف وترهب.

جـ – التعامل الحذر لايمنع من البحث عن عناصر المساندة وتدعيم تلك العناصر بكل ما تملك إسرائيل من مقومات.

د – التورط هو قَدَر يجب أن تواجهه إسرائيل، ما هى الدولة التى تريد أن تكون ذات فاعلية ولم تتورط كذلك، فإن التورط له حساباته.

هذا هو المفهوم الجديد الذى برز مع ليكود، ثم تأكد مع حرب لبنان، ولايزال سائدا رغم مشاركة حزب العمل فى السلطة.

يعنينا من هذا المفهوم النتائج المختلفة المرتبطة بمفهوم الأمن القومى، وقد برزت هذه النتائج بصفة خاصة فى أبعاد خمسة:

البعد الأول: المتعلق بما سُمِّى فى وقته «البرنامج الكبير» والذى يدور حول حرب لبنان وجوهره البدء بإنشاء إسرائيل الكبرى (1).

البعد الثانى: التمييز بين إنشاء إسرائيل وعملية الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط والتحكم فى مستقبلها من جانب الإدارة الحاكمة الجديدة الإسرائيلية وأبعاد تلك الهيمنة.

البعد الثالث: ويرتبط بالتطور العضوى، الذى أصاب العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

البعد الرابع: ويقودنا إلى حقيقة التطور فى علاقات التعامل مع دول الجوار الجغرافى

---

(1) إسرائيل الكبرى: يعنى من النيل إلى الفرات، حسب توراتهم المحرفة وما جاء فيها فى سفر التكوين 18/15 «وعقد الرب مع إبرام عهداً لنسلك أعطى الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات». ونسى اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان رسولاً مسلماً، والذى يرثه هم المسلمون، وليس اليهود؛ لأنهم كفروا بنبى الله إبراهيم عليه السلام.

المنطقة.

البعد الخامس: وينقلنا إلى دائرة أكثر اتساعا فى التعامل الدولى، حيث يبرز ما يسمى بمنطق المساندة الدولية، وارتباط ذلك بالتعامل الإقليمى.

نتابع هذه النواحى بشىء من الإيجاز:

البرنامج الكبير وحرب لبنان:

فكرة إنشاء إسرائيل الكبرى لم تَخْتَف فى أى لحظة من مخيلة القيادة الإسرائيلية، ومنذ وجود الدولة وقبل وجود الدولة، رغم ذلك فحتى حرب 1967 كانت القيادة واعية بقدراتها، ولذلك فهى لم تحاول فى أى مرحلة أن تحيل ذلك الأمل إلى خطة مركبة عندما طرح موضوع التعامل مع لبنان، بقصد التدخل فى بعض أجزائه الجنوبية أو خلق تحالف مع القيادات المارونية في مجلس الوزراء الإسرائيلى، «وبن جوريون» لايزال فى أوج إيناعه انتهى النقاش بإرجاء الموضوع.

السياسة الإسرائيلية حتى عام 1967 كانت تتميز بثلاثة خصائص أساسية:

أولاً: الواقعية والتى معناها التعامل مع المتغيرات، تبعا للقدرات التى تملكها الدولة.

ثانياً: التدرج فى التعامل، بمعنى البدء بالأهم فالأقل أهمية.

ثالثاً: عدم الإعلان عن الأهداف النهائية بمعنى إحاطة الأهداف الحقيقية من الحركة بكثير من التجهيل والسرية.

هذه الخصائص الثلاث، ورثتها الدبلوماسية الإسرائيلية من تقاليد الدبلوماسية الصهيونية، وبرع فى تطبيقها «بن جوريون» وأعوانه، الهدف الأساسى الذى كانت تعمل جاهدة فى سبيل تحقيقه هو انتزاع الشرعية الإقليمية لإسرائيل. وقف عائقا أمام ذلك من جانب وجود جمال عبد الناصر بهالته الكاريزماتية، ومن جانب آخر قوة الرأى العام العربى المتضامن مع مصر، رغم الخلافات بين الحكام. ومن جانب ثالث العزلة الدولية لـ «إسرائيل» ولكن فى عام 1967 تحققت أول خطوة فى سبيل إنشاء «إسرائيل الكبرى» دون أن تقصد القيادة الإسرائيلية فى إسرائيل. فى حرب 1967 كانت تريد تحقيق شرعيتها الإقليمية من جانب، ولكن من خلال قلب التوازن الدولى فى المنطقة الذى حدث أنها حققت نصراً تميز بخصائص ثلاث لم تكن أى قوة تتوقعه:

أولاً: نصر سريع؛ حيث حسمت المعركة فى الساعات الأولى من بدئها، أى فى صباح يوم الإثنين الذى بدأت فيه المعركة وفى الجبهات الثلاث.

ثانياً: انهيار سريع؛ ومفاجىء فى جميع الجبهات فى مصر، كان الجيش الذى أحاطته

هالة الدعاية يجرى حافى القدمين. فى سوريا استطاعت الدبابات الإسرائيلية أن تقضى على أى إرادة مقاتلة. المنطقة الوحيدة التى وجدت فيها مقاومة حقيقية، وهى شرق الأردن، لم تستطع أن تستمر فى مقاومة الفيضان لأكثر من عدة ساعات.

ثالثاً: عدم قدرة القيادة الإسرائيلية على استيعاب النصر والاستمرار فى قوة الاندفاع، إنها لم تصدق نفسها كانت قادرة على أن تدخل القاهرة ودمشق وعمان فى آن واحد، تحيل هذه العواصم الثلاث إلى رهينة فى يدها، لم تعرف كيف تستغل نصرها كما لم تعرف القيادات العربية كيف تقف على أقدامها.

ولكن النتيجة غير المقصودة، والتى كانت تراود أحلام جميع القيادات الصهيونية هو التوسع والبدء الجدى فى سبيل إنشاء إسرائيل الكبرى، وقد تحقق ذلك فى أبعاد واضحة فى منطقة الجولان، وبصفة خاصة الضفة والقطاع التى اعتبرت دائما أجزاء من دولة إسرائيل التوراتية، ولكن سيناء التى حولها يدور نقاش عنيف، فإنها تصير ورقة للمقايضة كما أثبتت عقب ذلك الأحداث حيث من خلالها تم تطويع الإرادة المصرية.

ومع مجىء مناحم بيجن إلى السلطة تغير هذا الإطار للتعامل:

أولاً: فالجيش الإسرائيلى أضحى أداة من أدوات تنفيذ السياسة الخارجية، فيما هو أبعد من حماية الأمن القومى الإقليمى، حيث تصير القوة العسكرية أداة لخلق الظروف السياسية الملائمة لاختراق الإطار الدولى.

ثانياً: **ولم يعد مقبولا أن يكون جوهر التعامل العسكرى هو فكرة الدفاع، حتى لو كان وقائيا. يجب أن يكون أساسه الهجوم. الهجوم الدائم المستمر دون اعتبار بأى ناحية أخرى** ولنتذكر أنه حتى حرب 1967 كانت فى نظر القيادة الإسرائيلية هى حرب دفاعية ولو من خلال الهجوم المسبق أو الضربة المجهضة.

ثالثاً: والإرادة الإسرائيلية يجب أن تعمل بثبات على إنشاء إسرائيل الكبرى. إن إسرائيل التوراتية هى التى يجب أن يتم تحقيقها، لأن هذا هو وحده الذى سوف يسمح للشعب اليهودى بأن يجد نفسه يَصلُح لأن يؤدى وظيفته المختارة، **وظيفة الشعب اليهودى ليست فقط متجهة إلى الشعب اليهودى، ولكنها تتجه إلى الإنسانية من خلال عناصر ثلاث: الكتاب المقدس، أو التوراة أولا، ثم الأرض التى يحتضنها الشعب اليهودى ثانيا، والإرادة السياسية هى إسرائيل الدولة ثالثا.**

لنستطيع أن نفهم هذه النظرة الجديدة، يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً، وقبل «جابوتنسكى» لنتوقف أمام الأب الروحى للدولة اليهودية ذات الوظيفة الحضارية وهو «موسيس هيس» فى كتابه الذى ظل مجهولاً أو مُجهّلاً، حتى جاء حزب (حيروت) فأخرجه إلى النور بعنوان «روما والقدس».

المبحث الثالث

الأصول الفكرية .. وعملية بناء الدولة اليهودية الكبرى

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«لو حاولنا أن نفهم حقيقة الفكر الصهيونى المتغلغل فى القيادات المسؤولة حاليا، «فى تل أبيب» علينا أن نعود أولاً إلى أفكار جابوتنسكى، وقد سبق ولخصّناها، ثم ثانياً إلى فلسفة (هس) كما لخصها فى كتابه الذى ظل محدود الأهمية حتى قُدّر له أن ينتزع من تراث الصهيونية السابق على يد (هرتزل) ونسلط عليه الأضواء، ليصير فى التقاليد الحالية أحد أعمدة العقيدة الصهيونية الجديدة.

(وموسيس هس) ولد فى أوائل القرن التاسع عشر، وكان أحد أصدقاء وتلاميذ (كارل ماركس). بل وصل به الأمر إلى الاقتناع بالماركسية ورفضه الانتماء اليهودى. كلمته التاريخية: «سوف نظل دائماً أجانب بين الشعوب». وفجأة وبعد قصة من المعاناة عاد (موسيس هس) إلى عشيرته نادما على ما اقترفته يداه. وبدا منذ ذلك الفترة فى بناء نظريته للقومية اليهودية.

من أهم ما كتب بذلك الخصوص، كتابه الذى أخذ صورة عدة خطابات كتبها إلى زوجة أخيه. فى هذا الكتاب والذى لم تكن توجد له حتى ترجمة فرنسية إلى عشرة أعوام مضت وضعت الأصول الحقيقية لما نستطيع أن نسميه **الوظيفة العالمية اليهودية.**

نستطيع أن نحدد عناصر هذه الدعوة فى ثلاثة:

أولاً: اليهودية ليست مجرد تعاليم وقيم تتجه إلى من آمن بها. إنها قيم تتجه إلى كل إنسان وفى كل مكان، إنها تتضمن نظرة وفلسفة، ترفع من الإنسان وتقدسه كقيمة فى ذاته وهى لا توجد إلا فى قدس الأقداس، أى (الدين اليهودى وتعاليمه التوراتية) التى ظلت دائما صامدة رغم كل ما أحاط بها وبمن آمن بها من عذاب وتضحية.

ثانياً: إن المجتمع اليهودى بوصفه كذلك وهو وحده القادر على ذلك مدعو لأن يؤدى

رسالة القيادة للبشرية. هناك رسالة لا شعورية عُهِد بها إلى كل شعب متقدم، وقد تنقلت هذه الرسالة من شعب إلى شعب، الذى وضعت فى جسده ما يسمى «الروح الخالدة».

ثالثاً: هذه الوظيفة تقمصت فى لحظة معينة فى إرادة أثينا، ومنها انتقلت إلى روما، وهى تسير دائما فى تقدم ثابت، واليوم آن أن تحمل هذه الراية القدس(1)، التى سوف تصير عاصمة العالم. إنها هى وحدها التى فيها تتجمع كلمة الرب والشعب المختار والأرض التى من رحيقها تتكون القيم اليهودية.

هذه الإرهاصات فى حقيقة الأمر ليست جديدة فى الفكر الغربى، ولكن بلورتها فى هذه الصورة وبناؤها فى نظرة متكاملة وربط كل ذلك بالشعب اليهودى أولاً، وبمدينة القدس ثانياً، وبوظيفة الدولة الإسرائيلية ثالثاً، لم يتم إلا على يد (موسيس هوس). وقبل أن ينشر هذا الكتاب أقبل عليه المؤرخ اليهودى «جرنز» الذى وجد فيه التأكيد الحقيقى لأبحاثه عن تاريخ الشعب اليهودى، والتطور الخفى للضمير والوعى اليهودى، فى توجهه نحو أداء الرسالة العالمية لتلك الحضارة. وما أن اطلع على النسخة الخطية لذلك الكتاب حتى كتب إلى موسيس هس. «لا أستطيع أن أقول لك كيف أن شكل ومضمون هذا الكتاب أحدث فى نفسى الكثير من الانطباعات» ودعاه للإقامة معه حيث عاش «موسيس هس» فى ضيافة المؤرخ العالمى ثلاثة أشهر اكتملت فيها الصياغة النهائية لهذه الوثيقة.

كتاب ‹روما والقدس› الذى يعود إلى الحياة اليوم مع القناعة الجديدة التى تسيطر على الطبقة الحاكمة الإسرائيلية، يصير أسسا لنظرة جديدة لوظيفة إسرائيل فى العالم المعاصر.
والواقع أن موضوع وظيفة إسرائيل فى العالم المعاصر يرتبط بما يسميه الفقه منذ فترة غير قصيرة بأزمة الصهيونية، محور ذلك، هل أدت الصهيونية وظيفتها ولم يعد لها موضع؟ لقد أرادت الصهيونية أن تُنشىء مكانا يجتمع فيه يهود العالم، ليضعوا حدا لشقائهم على سطح الكرة الأرضية، ولم يستطع اليهودى أن يقضى حياته كأى شخص آخر، الذى حدث وسجله مفكرو إسرائيل بكثير من القلق أمران:

الأول: **أن اليهودى أضحى فى حالة استقرار فى كل أنحاء العالم، إلا فى إسرائيل، حيث لا يشعر بأى استقرار.**

الثانى: أن اليهود المنتشرين فى أنحاء العالم لم تعد تغريهم الهجرة إلى إسرائيل. لقد كان الواحد منهم يترك روسيا إلى النمسا، ومنها يغير توجهه وبدلا من أن يجعل هدفه الوصول إلى تل أبيب، نجده قد وضع كل قدراته فى أن يبتعد عن تل أبيب.

الثالث: أضف إلى ذلك الهجرة المضادة، وأولئك الذين يتركون الأرض المقدسة إلى أى مكان آخر خارج إسرائيل.

---

(1) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، جارودى.

وصلت هذه التساؤلات إلى قمتها عام 1966. حرب 1967 أعادت الأمور إلى نصابها، ولكن فقط لعدة أعوام. حرب 1982 فجّرت مرة أخرى نفس الموضوع. **التساؤلات كانت ومنذ عام 1966 مردا لإثارة مو ضوع وظيفة إسرائيل فى العالم المعا صر.** وثار حول ذلك التساؤل حوار بين أعمدة الفكر الصهيوني ودون تعميق. فمن فريق يتحدث عن إسرائيل دولة بحر متوسطية، يحمل لواءه أبا إيبان. ومن فريق يؤكد وظيفة إسرائيل الثقافية ويحاول أن يخلق من إسرائيل صورة لسويسرا المتعددة الجنسيات يقوده الزعيم الصهيونى «جولدمان».

الفريق الثالث والذى بدأ متلصصاً خجولاً، راح يتحدث عن الإمبريالية الجديدة وكان يمثله بصفة خاصة موشي دايان. هذا الفريق هو الذى أينع وقد وجد فى كتابات «جابوتنسكى» من جانب وفي مؤلّف «موسيس هس» عن روما والقدس من جانب آخر مصادر تنظيرية. على أن أهم ما دفعه للأمام هو التطور الخطير الذى أصاب العقلية الإسرائيلية من جانب ثان، والإعداد الفكرى لبناء وظيفة دولية لإسرائيل من جانب ثالث:

أ – العقلية الإسرائيلية سيطر عليها التطرف والتعصب الذى لا حدود له فى مواجهة العربى، وهو تطور نتج عن تفاعل داخلى فى المجتمع الإسرائيلى، بسيادة الكم الشرقى اليهودى من جانب، والتعاطف بين هذا الكم الشرقى مع التوجه الدينى فى الكم الغربى فضلا عن خضوع جيل السابرا لنفس هذا التوجه، مع سيادة المفاهيم: التعصب والاستعلاء. ومما لاشك فيه أنه شجع على ذلك بصفة خاصة النجاح الإسرائيلى عقب قصة الثغرة المعروفة والتصدع الذى ميز وسيطر على الجانب العربى.

ب – التوليفة الحاكمة لاتجمعها سوى هذه الخصائص. فاليمين المحافظ الذى يمثله حزب «حيروت» يسعى إلى الأسواق الجديدة، والجيش أو المؤسسة العسكرية تحلم بالانتصارات والفتوحات، والقوى الدينية لاتعيش إلا فى نطاق الأسطورة الدينية والوعد الإلهي. وهكذا المحور الذى يخلق الترابط بين القوى الثلاث المتحكمة فى التوليفة السياسية تؤمن بالتوسع والانتشار.

جـ – الإعداد لوظيفة دولية إسرائيلية هو النتيجة الطبيعية للسياسة الأمريكية، وسوف نرى ذلك فى وضوح ودقة فيما بعد.

الذى يعنينا أن نؤكد عليه كنتيجة لذلك يدور حول:

الأول: أن مشروع إسرائيل الكبرى ليس هو التوسع والهيمنة.

ثانياً: أن علاقة إسرائيل بالمنطقة وبجميع دولها، بما فى ذلك مصر، هى علاقة هيمنة وسيادة ولو بطريق غير مباشر.

ثالثاً: أن علاقة إسرائيل بالولايات المتحدة لايمكن أن تُقْبل بالمعنى المتداول والذى ظل يحكمها حتى حرب لبنان، مبدأ واحد، وهو حاجة تل أبيب إلى واشنطن. كلا إن كُلا منهما فى حاجة إلى الآخر، وهى حاجة أبعد من أن تتحدد فقط بمنطقة الشرق الأوسط وإن كانت تنطلق منها.

نتابع هذه العناصر بشىء من التفصيل:

التمييز بين مشروع إنشاء إسرائيل الكبرى
ونظرية المجال الحيوى الإسرائيلى

التمييز بين مشروع إسرائيل الكبرى والمجال الحيوى، هو عنصر أساسى فى الفكر الإسرائيلى السائد، «فإسرائيل الكبرى» تعنى التوسع العضوى للدولة اليهودية، وهو حق المجتمع اليهودى فى ألا يقف عند حدود نهر النيل غرباً، ونهر الفرات شرقاً.. أليس هذا هو الوعد الإلهى؟ وإسرائيل قد سارت بهذا المعنى خطوات محدودة، حكمت عليها الظروف الدولية أن تكون معقدة، وهى لابد وأن تخطو بهذا الخصوص خطوات آن لها أن تصير عملاقة، فرصتها الحقيقية هى الأعوام القادمة.

مما لاشك فيه **أن التعداد الديموجرافى يمنعها من أن تحقق أهدافها بهذا الخصوص كاملة**، ولكن أنصار هذه النظرة من غلاة الصهيونية، يؤكدون بأن الوقت يعمل فى صالحهم وأن الكتلة اليهودية الموجودة فى الاتحاد السوفيتى سوف تبدأ إن آجلا أو عاجلا فى التوجه نحو إسرائيل وأن تظل أقليتها الأمريكية فى الولايات المتحدة، فإن ذلك إلى أجل معين، وعندما يصير القدس عاصمة الإنسانية، وإسرائيل مقدمة العالم المتحضر سوف تسرع تلك الأقلية نحو الأرض الموعودة.

الأعوام القادمة تقدم مزايا معينة:

أولاً: فهناك تحول فى داخل الاتحاد السوفيتى نحو التعاطف مع إسرائيل، وفتح باب الهجرة لليهود الروس.

ثانياً: وأوربا الغربية تتجه إلى الوحدة، وهى فى تلك اللحظة سوف تكون فى حاجة إلى إسرائيل، وخصوصا لو عرفت إسرائيل أن تبرز كقوة مسيطرة على منطقة البحر الأبيض المتوسط الشرقى.

ثالثاً: والأزمة الاقتصادية فى الولايات المتحدة، وصعود الأقليات السوداء بصفة خاصة، إلى القدرة فى داخل المجتمع الأمريكى سوف يجعل من إسرائيل عنصراً جاذباً يستطيع أن يستقطب جزءاً هاماً من الأقلية اليهودية الأمريكية.

من هذا المنطلق **بدأت الحركة الإسرائيلية فى تنفيذ ما أسمته: ((البرنامج الكبير))** الكلمة ذاتها تدعو للتساؤل، فهى كانت تتحدث دائما عن إسرائيل الكبرى، ولكنها منذ مجىء «مناحم بيجن» إلى الحكم - وبصفة خاصة - عقب تكامل البورتسكيا الصهيونية، لم تعد

تتحدث عن إسرائيل الكبرى وإنما استخدمت كلمة «المشروع الكبير». وهو أمر يدعو للتساؤل: هل هذا التغيير فى الاصطلاح يعنى تطورا فى المفهوم، أو أنه مجرد استخدام لاصطلاح جديد؟ الوثائق لا تسعفنا ولكن الأحداث القادمة سوف تحدد حقيقة هذا التطور، الذى يعنينا فقط بهذا الخصوص أن نؤكد عليه يرتبط بثلاثة عناصر فى التطور:

العنصر الأول: أنه مع ذلك المشروع الكبير ظهر تحالف جديد بين خمس شخصيات، كونت فى فترة معينة رأس الطبقة القيادية: «مناحيم بيجن» ومعه وزير الدفاع «شارون» وإلى جواره وزير الخارجية «شامير» ويكمل هذا الثلاثى كل من رئيس الأركان «إيتان» ثم مدير الموساد «يهوشوا سافوى». ورغم اختفاء «مناحيم بيجن» عقب ذلك وابتعاد على الأقل شكليا، «شارون» من وزارة الدفاع، إلا أن علينا أن نتذكر أن هؤلاء الخمسة لايمثلون أنفسهم ولكنهم يمثلون مؤسسات معينة لاتزال تمارس قدرتها فى صنع القرار.

العنصر الثانى: أن حرب لبنان أثبتت فساد النظرية التى سادت العقلية الإسرائيلية المتعلقة بالتعامل مع لبنان. فمحور هذه العقلية الجديدة الافتراض – الذى سبق وحللناه – والذى خلاصته أن القوة العسكرية يمكن استخدامها نتيجة الحرب تدعو للتساؤل حول صحة هذه النظرية:

أ – أن أعداء إسرائيل فى لبنان ليسوا فقط المقاومة الفلسطينية، وقد ساعد الغزو على خلق قوي معادية جديدة لاتقل خطورة وهى قوة الشيعة اللبنانية.

ب – كذلك فقد أثبتت حرب لبنان أن استخدام القوة قد يخلق حركة مقاومة قوية جماهيرية لايمكن الاستهانة بها وأن الأمة المقاتلة قد ولدت أيضا فى لبنان.

جـ – حرب لبنان أحالت الجيش من قوة عسكرية إلى قوة بوليسية، وقد نال هذا حقيقة من هيبة جيش الدفاع سواء فى الخارج أو فى علاقة الجندى الإسرائيلى نفسه بالجيش صاحب التقاليد المزعومة.

د – بل وقد فرضت هذه الحرب على القيادة الإسرائيلية خلافا لتقاليدها، أن تحترم الحماية التى تبذلها الأمم المتحدة.

والواقع أن أخطر نتائج حرب لبنان هو فشل حزب ليكود، فى أن ينفذ حقيقة ما أسماه «البرنامج الكبير» الذى يعنى البدء ولو خطوة فى إنشاء إسرائيل الكبرى، من خلال ابتلاع جزء على الأقل من جنوب لبنان، وخلق دولة موالية تعمل فى فلك تلك الإرادة الإسرائيلية فى لبنان.

السؤال الذى يجب أن نطرحه: ما هى الخطة الجديدة التى سوف تلجأ إليها إسرائيل فى الأعوام القادمة لتحقيق هدفها كاملا؟ هل تعد لأدوات أخرى أو أدوات مكملة؟ التوليفة

الحاكمة لاتزال فى السلطة، وقناعاتها لاتزال مسيطرة، فكيف تعد نفسها للتعامل مع هذا الواقع؟

سؤال يجب أن نطلقه ونحن نعلم مقدما أننا لانعرف بعد حقيقة الإجابة عليه، ولكن عنصراً واضحا يجب أن نؤكد عليه. التمييز الواضح بين إنشاء إسرائيل الكبرى والهيمنة على المنطقة. **إذا كانت إسرائيل الكبرى هى المنطقة التى تنسب إلى الوعد الإلهى، فإن النفوذ الإسرائيلى سوف يمتد إلى ما هو أكثر من ذلك. أنه سوف يتسع شرقا حتى الباكستان وغربا حتى المحيط الأطلسى، وجنوبا ليصل إلى الحبشة، وشمالا ليقف عند حدود تركيا. إن هذه ليست فى حاجة إلى الاحتلال والضم: إنها فقط سيطرة**(1) **حيث سوف تصول وتجول إرادة ونفوذ إسرائيل.**

العنصر الثالث: إن هذا المشروع الضخم للهيمنة لن يتم دفعة واحدة. **فى مرحلة أولى سوف يوجد نوع من التحالف أو تقسيم مناطق النفوذ مع قوى ثلاث تقف على حافة منطقة الشرق الأوسط: إيران وتركيا ثم الحبشة**، العلاقة بين إسرائيل وهذه الدول الثلاثة هى علاقة مزدوجة: فى مرحلة أولى تعاون ولكن فى مرحلة ثانية سوف تخضع نفس هذه القوى للسياسة التى أخضعت لها منطقة الشرق الأوسط العربية، وبعبارة أخرى فإنه فى مرحلة أولى سوف يتم التعامل على أساس تقسيم مناطق النفوذ، وفى مرحلة ثانية يتم استئصال نفوذ تلك الدول وإعادتها إلى حجمها الطبيعى، لتصير دولاً تابعة فى العالم المتسع الذى تتوسطه إسرائيل.

أدوات هذه الهيمنة عديدة وسوف نرى تلك الأدوات بتفصيل فيما بعد، ولكن الذى يجب أن نتذكره فى عملية الهيمنة ومراحلها المختلفة ملاحظتين جانبيتين:

الأولى: تشجيع الوحدات الإقليمية العربية، **ودفع شمال إفريقيا بطرق معقدة وغير مباشرة للابتعاد العربى وتقوية علاقاته ولو مؤقتا مع السوق المشتركة الأوروبية.**

الثانى: استغلال مصر كوسيلة للتغلغل فى المشرق العربى، تحت سيطرة وهيمنة تل أبيب، ولو دون وعى من القيادات المصرية كمقدمة بدورها يعقبها إلغاء الوسيط.

العلاقات الإسرائيلية الأمريكية والتطور الجديد:

الناحية الجديرة بالاهتمام وهى المتعلقة بالتطور العضوى فى العلاقات بين تل أبيب وواشنطن، تفرض بدورها الكثير من القلق.

مما لاشك فيه أن علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل، تعود إلى ما هو قبل إنشاء

---

(1) راجع فى ذلك كتاب «أزمة شيشان» لواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل، مركز الإعلام العربى – القاهرة – ط 1 عام 1994.

إسرائيل، وهى واضحة ومعبرة على الأقل منذ القرارالتاريخى بالتقسيم، رغم ذلك فقد ظلت هذه العلاقة تسودها ثلاثة مبادئ:

الأول: إنه لايتوجها إلا صك دولى.

الثانى: إن كلا الدولتين لاتفصح أو تعلن عن تلك العلاقات، إسرائيل تخشى التورط والولايات المتحدة تعمل حسابا لأصدقائها العرب.

الثالث: المحور الحقيقى هو التعاطف الأخلاقى والشعور الأمريكى بالتزام معنوى نحو مجتمع ضحى به يفضل النظام النازى.

كذلك يجب أن نُدخل فى الاعتبار أن القوى المتعاطفة مع القضية العربية لم تكن محدودة؛ بل كانت تمثل شرائح متسعة فى المجتمع الأمريكى، بينما القوى المناوئة والمناهضة للصيهونية كانت بدورها تملك ثقلاً معينا . التطور الذى عرفه الواقع الأمريكى خلال العشرين عاما اللاحقة لإنشاء إسرائيل سجل ظواهر ثلاث:

الظاهرة الأولى: التقلص فى الوجود العربى وفى المساندة العربية.

الظاهرة الثانية: التوسع المبالغ فيه فى القوى الصهيونية والمساندة للسياسة الإسرائيلية.

الظاهرة الثالثة: الترابط بين المصالح الأمريكية والمصالح الإسرائيلية.

«روزفلت» رغم شعبيته، ورغم قوته، ورغم قناعته بالصهيونية، لم يجرؤ على أن يتخذ موقفا مؤيدا لإنشاء إسرائيل.

«كيندى» كان مؤمنا بأن مصالح الولايات المتحدة تختلف عن مصالح إسرائيل. ولكن رغم ذلك فإن العالم العربى وقدراته لم تعرف كيف تستغل ذلك الواقع بل اندفعت فى مهاترات وإخفاقات متتالية لتنتهى فى عام 1967، فإذا بتغير جوهرى في هذه العلاقات محوره الحقيقى ما أثبتته إسرائيل من إمكانيات بالنسبة للسياسة الأمريكية، رغم ذلك فإن القيادة الإسرائيلية كانت تخشى دائما رد الفعل السوفيتى. أضف إلى ذلك حقيقة قد لاتبدو واضحة وهى أن القيادة الإسرائيلية:

أولاً: باشتراكيتها المالية **وثانيا**: بأصولها الحضارية السلافية. كانت أقرب إلى موسكو منها إلى واشنطن.

حزب ليكود يمثل ثلاثة متغيرات أساسية:

المتغير الأول: مفاهيم جابوتنسكى وسيادة المتغيرات الدينية.

المتغير الثانى: الاتجاه المحافظ الجديد وأهمية الطبقة الوسطى الغنية.

المتغير الثالث: سيطرة مفهوم العرض والطلب على سوق التعامل الاقتصادى.

وهكذا برزت واضحة فى الإدراك الإسرائيلى صورة جديدة للتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية.

أ – فالولايات المتحدة هى الفاعل الدولى الوحيد والجدير بالثقة، سواء على مستوى التعامل الدولى أو على مستوى التأثير فى منطقة الشرق الأوسط.

ب – ولذلك يجب على إسرائيل أن تصوغ سياستها بحيث تخدم الولايات المتحدة فى المنطقة وأن توظف جميع إمكانياتها لصالح – فقط – واشنطن.

جـ – وذلك يعنى أن العلاقة بين واشنطن وتل أبيب يجب أن تكون علاقة استراتيجية فى أبعاد ثلاث:

البعد الأول: من حيث الزمان بحيث إن الولايات المتحدة تستطيع وإلى أمد غير قريب أن تعتمد على مساندة إسرائيل.

البعد الثانى: من حيث النظام الكلى للدفاع على مستوى الكون للمصالح الأمريكية، أن واشنطن وهى تدافع عن الحرية والديموقراطية يجب أن تجد فى إسرائيل أداة أساسية لتحقيق تلك الأهداف.

البعد الثالث: من حيث الوظيفة الحضارية، فكما أن واشنطن تحمل راية حضارية معينة فإن إسرائيل بدورها تحمل راية هى قريبة، بل وهى وحدها المتجانسة مع تلك الحضارة التى تؤمن بها واشنطن.

د – كما أن الولايات المتحدة هى المتغير الدولى الوحيد فى المنطقة، فكذلك يجب أن يُنْظَر إلى إسرائيل على أنها الصديق الوحيد (*) للولايات المتحدة فى المنطقة.

هـ – التعاون مع إسرائيل يجب أن يمتد ليشمل جميع أجزاء منطقة الشرق الأوسط ودون استثناء.

متابعة تطور هذه العلاقات وتوقعاتها بالنسبة للمستقبل ليس هو محور هذه الدراسة وسوف نتعرض له بالتفصيل فى موضع آخر. ولكن الأمر الذي لاشك فيه أنه مع بقاء ليكود فى السلطة ظلت هذه العلاقات ورغم جميع الصعوبات فى تزايد مستمر، لتصير اليوم فى أقوى قوة لها من حيث الترابط الاستراتيجي. بل ونستطيع القول بأنه ورغم أن ليكود هو الذى أسس هذه العلاقات العضوية بتنظير متكامل، فإن اختفاء ليكود من السلطة وهو أمر يجب أن نُدخلَه فى الاحتمال، سوف تترتب عليه زيادة فى قوة هذه العلاقة العضوية، إن

(*) راجع تصريح إسحق رابين عندما وجه كلامه للرئيس كلينتون يوم أن تولى الرئاسة. وماذا قال كلينتون فى حفل تنصيبه، فى كتاب نحو نهضة أمة «كيف نفكر استراتيجيا» اللواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل – الباب الخامس ص 300 هامش 3 – مركز الإعلام العربى – طبعة عام 1997.

مبالغات ليكود التى تُحرِج الإدارة الأمريكية سوف تختفى، ولكن طبيعة العلاقات سوف تزداد قوة وقد وَجَدت لها الإطار التنظيرى.

ولعل هذه الناحية لن تكتمل لو لم نلفت النظر إلى خمس ملاحظات، يجب أن تدعونا إلى التفكير والتساؤل:

الملاحظة الأولى: إن إسرائيل تعمل جاهدة على ألا توجد فى المنطقة أيّة قوة أخرى تستطيع أن تقدم خدماتها للسياسة الأمريكية، فموقفها من أزمة قبرص ثم تعاملها مع الحبشة وسياستها إزاء إيران، خصوصا لو ظل النظام الإسلامى فى السلطة فى طهران ولايوجد ما يدعو للاقتناع بعكس ذلك، يزيد من اعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل. بل إن مصر خضعت فى لحظة معينة لنتائج ذلك، مع ما يعنيه من خلق مشاكل وتوترات بين واشنطن والقاهرة.

الملاحظة الثانية: إن نصوص التعاون الاستراتيجى التى تتجدد سنويا ورغم أننا لانعلم عنها شيئاً على سبيل الدقة، إلا أنها تتسع لتشمل أيضاً منطقة الخليج.

الملاحظة الثالثة: **إن هذا التعاون انتهى أيضا بالتأثير فى الإدراك الأمريكى. لقد كانت النظرة الأمريكية أنه من مصلحة واشنطن أن تعيش المنطقة مرحلة استقرار، اليوم وتحت التأثير الإسرائيلى فإنها تؤمن بأن التوتر والاضطراب بشرط أن يكون مضبوطا ومتحكما فيه أكثر مدعاة للتوافق مع المصالح الحقيقية الأمريكية.**

الملاحظة الرابعة (*): **إن الاستراتيجية على المدى البعيد تسير فى تخطيط أساسه المراحل الأربعة التالية: إنشاء إسرائيل الكبرى، الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، توسيع نطاق المجال الحيوى ليتسع فى أبعاده الأربعة ليصل إلى باكستان شرقا، وتركيا شمالا، والحبشة جنوبا، والمغرب غربا، ثم هى فى مرحلة لاحقة سوف تصطدم بصفة خاصة بإيران، بل وإلى حد معين بكل من تركيا والحبشة. وفى خلال ذلك تعمل على تدعيم وظيفتها الدولية بالمنطقة ومن خلال المنطقة.**

الملاحظة الخامسة: إن فهم كل هذه النواحى حيث تتفاعل المتغيرات الإقليمية بأكثر من معنى واحد بالدولية وجميعها، تترابط مع الوظيفة الحضارية لدولة إسرائيل فى عالم القرن الواحد والعشرين، تترابط بها نواح اقتصادية خطيرة لها أهميتها وتملك دلالتها.

(*) كتاب « نحو نهضة أمة كيف نفكر استراتيجياً » لواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل. الباب الخامس (آليات وأساليب إقامة النظام العالمى الجديد)؟ من ص 300 وما بعدها. مركز الإعلام العربى – القاهرة طبعة عام 1987.

جميع هذه النواحي تفرض عدة تساؤلات بعضها يرتبط بالنظرة الجديدة للتعامل الدولى الإقليمى، التى تسيطر على الإدراك الإسرائيلى، وبما يستتبعه من البحث عن خلفاء جدد فى عملية المساندة الدولية والتحرك الإقليمى. أحد مظاهر ذلك، إمكانية توظيف مصر فى التعامل مع منطقة شمال إفريقيا.

على **العقل العربى أن يعى هذه الحقائق حتى لانقع في الخندق الذى يحفره لنا أعداؤنا.**

الفصل الثالث

السلاح الصاروخى واختلال موازين القوى

المبحث الأول: عملية المساندة الإقليمية.

المبحث الثانى: السلاح الصاروخى .. وموازين القوى فى الشرق الأوسط.

المبحث الثالث: التطوير الإسرائيلى للسلاح الصاروخى.

المبحث الأول

عملية المساندة الإقليمية

تحت هذا العنوان كتب د. حامد عبد الله ربيع:

«الإطار الدولى الذى نعيشه فى هذه اللحظة ينبئ بتطورات عنيفة، لاتزال العقلية العربية، بل وكذلك القيادات العربية غير واعية بأبعادها الحقيقية. تعودت قياداتنا أن تنظر إلى العالم الخارجى من خلال إدراكها الداخلى. وكما تعودت التعامل فى داخل واقعها السياسى، حيث تسود الجهالة من جانب، والتملق من جانب آخر، فهى تتعامل مع العالم الخارجى.

أضف إلى ذلك ثلاثة عناصر كان لابد وأن تحكم عليها بالفشل الحقيقى:

فهى أولا ترى فى السياسة الخارجية عملية مهارة، ولم تفهم بعد أنها نوع من الاحتراف.

فهى ثانيا لاتعترف بالتعاون مع العلماء، وهؤلاء هم فقط من القادرين على فهم حقيقة المجتمعات الخارجية والقوى الكبرى.

وهى ثالثا تتناول جميع المشاكل الدولية بقدر واحد من الأهمية، وليست قادرة على أن تفهم أن هذه المشاكل تتنوع من حيث أهميتها، وهى فى هذا التنوع إنما تنبع من منطق خاص بها، وخاص بالقدرات الدولية.

التطور المعاصر للإطار الدولى بدأ منذ أكثر من عشر سنوات. وقد لفتنا النظر إلى المتغيرات المرتبطة بذلك التطور، منذ أن دُعينا للمشاركة فى وضع خطة لإعادة بناء القوات المسلحة المصرية، ولايزال الرئيس السادات فى أوج قوته. ورغم رفضنا لسياسة الرئيس السادات المتعلقة «بكامب ديفيد»، فقد قَبِلنا ذلك التعاون، ولكن كان علينا أن نُدرك أن النية الحقيقية لم تكن إلا الاستسلام ونُشر تقريرنا الخاص بالبعد الدولى لإعادة بناء القوات المسلحة فى مصر بدمشق منذ عام 1982. (دار الجليل بعنوان: الأوضاع الدولية والتطور المعاصر للدور الإقليمى للمنطقة العربية).

ومع ذلك لم يشعر به أحد واليوم نعيش أول مظاهر ذلك التطور.

* العالم المعاصر يعيش أزمة دولية عنيفة، سوف تقود إلى إعادة تشكيل الإطار الدولى

فى القريب العاجل. وفى مدى لن يتجاوز خمسة عشر عاما. ما يعنينا أن نُذكّر به منذ البداية، أن هذا التطور فى صالح إسرائيل، ولم توجد فى كل تاريخها - تل أبيب - فى وضع أكثر تجانساً مع مصالحها، كما سوف تجد نفسها خلال الأعوام القادمة. لقد بدأ هذا التطور، وثماره سوف تكون ناضجة فى خلال عدة أعوام. وعلى القيادات العربية أن تُسرع، بل وأن تسابق الزمن إذا أرادت تحييد ذلك التطور، على الأقل بمعنى ألا يصير ورقة لا تعمل إلا لصالح إسرائيل، فلنبدأ نحدد ملامح التطور.

عناصر التطور للإطار الدولى:

نستطيع بإيجاز أن نقف أمام خمسة عناصر فى هذا التطور العام للإطار الدولى:

العنصر الأول: وهو اتجاه الولايات المتحدة للبحث عن أصدقاء جدد بما يعنيه ذلك من تفتت للمعسكر الغربى.

العنصر الثانى: انكفاء الاتحاد السوفيتى على مشاكله الداخلية واتجاهه لنوع من العزلة فى النطاق الدولى.

العنصر الثالث: التصميم الأوروبى على تعميق سياسة الوحدة، والتوسع فى مفهوم وإطار الوحدة لتشمل أكثر أجزاء أوروبا التاريخية.

العنصر الرابع: بناء حائط حقيقى يفصل العالم الأبيض الغنى عن العالم الملون الفقير.

العنصر الخامس: خروج دول أمريكا اللاتينية من جانب، ودول جنوب شرق آسيا من جانب آخر من كتلة عدم الانحياز.

نتيجة هذه التطورات المختلفة أن الفقر والتخلف الحقيقى سوف يتمركز فى غرب آسيا والقارة الإفريقية، أى فى العالم العربى، وقد أُلحق به العالم الأسود.

فلنحاول تحليل هذه الأبعاد المختلفة قبل أن نرى كيف وسوف تتعامل معها إسرائيل لتحيلها إلى عناصر قوة فقط لصالحها.

التطور المتوقع للعلاقة بين الولايات المتحدة وأصدقائها:

الولايات المتحدة قد بدأت منذ قرابة عشرة أعوام تفقد أصدقاءها، وهى اليوم تكتشف أن صداقاتها لها حدود، وأن لغة المصالح تفرض التعارض. فهى قد فقدت - أو فى سبيلها لأن تفقد - صداقتها مع اليابان، التى ارتفع صوتها لتتحدث عن مجالها الحيوى فى جنوب شرق آسيا. وهى قد فقدت أيضاً مصداقيتها فى دول السوق المشتركة، ويوم تتحد دول غرب أوروبا، وهو أمر لم تعد تبعدنا عنه سوى عدة أعوام، سوف تكتشف فى تلك الدول

إرادة استقلال لم تعهدها. ودول أمريكا اللاتينية القوية تستعد لطرد واشنطن من أسواق أمريكا اللاتينية.

وإذا كانت الولايات المتحدة تنظر إلى كندا فى الشمال، والمكسيك فى الجنوب على أنها سوف تصير أدوات للتقوية، فهى تعلم أنها لابد وأن تغير من سياستها، وألا تنظر إلى العالم نظرة السيادة الإمبريالية، التى عاشتها منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، فى هذا الإطار تصير إسرائيل صديقاً جوهرياً وأساسياً فى تعاملات واشنطن مع العالم الخارجى.

مشكلة القوميات ... ومستقبل الاتحاد السوفيتى:

كذلك فإن الاتحاد السوفيتى سوف يعيش مأساة أخرى، وهى مأساة القوميات. فالاتحاد السوفيتى هو فى حقيقته دولة آسيوية، ورغم أن القيادة الأوروبية والمفاهيم الأوروبية هى التى تسوده. الدولة الروسية التى بدأت فى توسعها منذ قرابة قرنين لم تدرك أنها تسير ضد التاريخ. وجاء ت الإمبراطورية السوفيتية، ورغم ادعائها باليسارية فلم تفعل سوى أن سارت فى نفس التوجه الإمبريالى. وكان لابد من لحظة معينة أن ينفجر ذلك الواقع. الانفجار بدأ أثناء الحرب العالمية الثانية، وحدثت محاكمات انتهت بأحكام بالإعدام، وغُطى عليها بستار من التجهيل، **ولكننا اليوم نعلم أن حركات المقاومة فى كثير من أجزاء روسيا كانت لاتزال قائمة على قدم وساق. حركة المقاومة الإسلامية على أشدها فى الجنوب، وحيث يتحدث البعض عن حركة إخوان مسلمين لها فاعليتها. ثم حركة المقاومة الصفراء على حدود الصين الشمالية فى منطقة منغوليا، وذلك إلى جانب الاضطرابات العنيفة فى دول البلطيق، وبين الأقليات البولندية والألمانية دون الحديث عن عصر الإحياء اليهودى فى الاتحاد السوفيتى ليست جميعها سوى مظاهر لحالة تخلخل بدأت ملامحها تبدو واضحة للعيان فى الجسد الروسى.** هذا التطور الذى ارتبط به تخلخل آخر فى الأجزاء المدنية من المجتمع السوفيتى، لابد وأن يؤدى إلى انكفاء القيادة الروسية على مشاكلها الداخلية. ولنتذكر أن هذا التطور بدأ مع خروشوف، وليس وليد الأمس القريب. وهو سوف يفرض على الاتحاد السوفيتى نتيجة ذات أبعاد ثلاثة:

الأول: عدم الاهتمام أو الانغماس فى المشاكل الدولية والخارجية إلا بحذر.

الثانى: الاهتمام بتحييد وتطويع علاقاته بالقوى المجاورة،وبصفة خاصة تلك ذات القوة الفاعلية. وسوف يتضح ذلك بصفة خاصة فى **حدوده سواء الجنوبية حيث الورقة الإسلامية فى إيران، وحولها لابد وأن تفرض عليه القلق**..ثم حدوده الشمالية حيث منغوليا الخارجية

تحن إلى العودة إلى الدولة الأم وهى الصين.

الثالث: التوجه نحو مزيد من الحريات فى الداخل، بما فى ذلك حق الهجرة وهو الأمر الذى سوف يفتح الباب واسعاً لتعامل من نوع جديد مع إسرائيل.

عدم الانغماس الأوروبى فى مشكلة الشرق الأوسط:

المتغير الثالث ويرتبط بالتطور الوحدوى فى القارة الأوروبية.

سلّم القيم السياسية فى القارة العجوز قد تغير، بل وقد أُعيد تشكيله فى قمة هذا الهرم يسود مبدأ الوحدة السياسية. لم يعد شعاراً تُردده الصحف أو الإذاعات من آن لآخر؛ بل أضحى القيمة العليا الأولى والثابتة. وهى وحدة بثلاثة مستويات كل منها تقود إلى الأخرى:

أولاً: فهناك الوحدة السياسية لدول السوق المشتركة.

ثانياً: وهناك الوحدة بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية.

ثالثاً: وهناك الوحدة بين أوروبا السوق المشتركة، وأوروبا حلف وارسو.

لا نريد أن نطيل فى هذه الناحية، ولكن يكفى أن نتذكر أن من عمالقة التحليل السياسى من يتصور أن هذه الوحدة سوف تقود إلى استيعاب روسيا الأوروبية لتحقق آمال «ديجول» الراحل.

لانريد أن نعيش فى الخيالات، ولكن الأمر الذى لاشك فيه أن أوروبا ولفترة غير قصيرة لن يسيطر على مدركاتها سوى أمل الوحدة. **وبغض النظر عن حدود هذه الوحدة فإن هذا التطور يعنى مجموعة من النتائج:**

النتيجة الأولى: أن قطب الجذب لدول السوق المشتركة – ولفترة معينة – لن يكون سوى القارة الأوروبية، لن يعنيها بعبارة أخرى البحر المتوسط إلا فى مرتبة ثانوية، ومن المعلوم أن أقطاباً ثلاثة تعودت جذب السوق المشتركة. الأطلنطى فى الغرب، أو البحر المتوسط فى الجنوب، أو أوروبا الشيوعية فى الشرق. **خلال العقد القادم لن يجذب دول السوق المشتركة سوى حلف وارسو.**

النتيجة الثانية: أن دول أوروبا الغربية سوف تزداد فى تدعيم سياستها بعدم الانغماس فى مشاكل الشرق الأوسط. لايجوز أن تخدعنا المظاهر فهى ليست سوى لغة دعائية. الذى يعنى أوروبا الجديدة هو فقط منطقة المغرب العربى التى سوف تصبح حديقة خلفية لأوروبا الجديدة.

النتيجة الثالثة: وهذا يعنى أنه فى لحظة معينة يُتْرك لإسرائيل أن تلعب فى منطقة

الشرق الأوسط، بل وبصفة عامة فى حوض البحر المتوسط الشرقى، وابتداء من ليبيا حتى سوريا ولن تتدخل أو تتورط فى هذه المنطقة إلا بحساب وحذر.

العالم الملون وموقعه من كتلة عدم الانحياز:

العنصر الرابع: يدور حول علاقة العالم الأبيض بدول العالم غير البيضاء، العالم الأبيض أضحى يؤمن بأن غير هذا العالم ليس له الحق فى الحياة. إنه يتكون من عناصر أقل قدرة على العالم الأبيض، وإذا كانت بعض المجتمعات الملونة قد أثبتت قدرتها على التطور والتقدم فهى استثناء. وشعوب العالم الملون الذى يقع ما بين الدول العربية فى غرب آسيا والدول الإفريقية السوداء، يجب أن تترك لمصيرها أنها محكوم عليها بأن تكرر مأساة الهنود الحمر[1]. ومن ثم يجب إقامة سور عظيم يفصل العالم المتقدم الأبيض الغنى[2] عن هذه المجتمعات الملونة المتخلفة التى أثبتت أنها ليست أهلا للحياة. أرضها سوف تصير فى يوم من الأيام امتداداً للشعوب البيضاء تمرح فيها وتستغل خيراتها، وهنا تبدو إسرائيل كجنوب إفريقيا أدوات حاسمة فى ذلك التطور.

المتغير الخامس والأخير يدور حول مفهوم عدم الانحياز، هذا المفهوم قد انتهى عصره. وعلى كل فإن دول جنوب شرق آسيا اليوم تدور فى فلك الرأسمالية اليابانية. أما عن دول أمريكا اللاتينية فهى تخضع لتطور مماثل، حيث تستعد الدول المسيطرة الكبرى فى تلك القارة لتطرد منها الولايات المتحدة. الذى يجب أن نتذكره، الدلالة الخفية خلف هذا التطور، فمن جانب لقد بدأت تظهر إمبريالية جديدة فى نطاق دول العالم الثالث، هذه وحدها موضع احترام الدول البيضاء. أما ما عدا ذلك من دول ودويلات فإنها لن يُنْظر إليها فى القرن القادم، إلا على أنها دول الضعفاء التى سوف تُتْرك لمصيرها. مفهوم عدم الانحياز أى كتلة قادرة على أن تستقل عن كلا الدولتين الأعظم فى معنى حقيقى، والذى أعرضه «شاه إيران» فى لحظة قوته، سوف يعود ليسيطر على علاقة بعض الدول الملونة وبصفة خاصة التى ليست فى حاجة إلى الدول المتقدمة. ونقصد على وجه الخصوص الصين والهند، ودول جنوب شرق آسيا إلى جانب دول أمريكا اللاتينية، وسوف تسعى إسرائيل لأن تجد لها مكاناً قيادياً فى هذه المجموعة.

الإطار العام للتعامل مع الأسرة الدولية وعزلة إسرائيل:

الذى يعنينا من هذا الإطار العام للتعامل فى الأسرة الدولية والمتوقع فى نهاية هذا القرن، ابتداء من منتصف العقد القادم، هو أن جميع عناصره سوف تكون لصالح

---

(1) لقد أباد الأوربيون فى أرض العالم الجديد (أمريكا) ستين مليونا من السكان الأصليين الهنود الحمر.

(2) ومن أجل هذا يتم منع الهجرة من العالم الملون إلى أوروبا.

إسرائيل، سوف ينتهى عصر العزلة الإسرائيلية، لنعيش فترة مختلفة من التعامل الدولى:

أ - فهى سوف تزداد صداقة وترابطاً مع الولايات المتحدة.

ب - وهى سوف تعيد فتح أبواب الحوار الحقيقى مع الاتحاد السوفيتى.

جـ - وهى سوف تصير قادرة على ضمان عدم الانغماس الأوروبى فى مشاكل الشرق الأوسط.

د - وهى سوف تزداد قوة فى ترابطها مع جنوب إفريقيا.

هـ - وهى سوف تجد لها شرعية فى مواجهة عملية استئصال أو استغلال شعوب المشرق العربى. كل هذا يفسر خصائص السياسة الإسرائيلية الجديدة والمتوقعة.

مفهوم المساندة الدولية والسياسة الإسرائيلية:

وهذا يقودنا إلى التطور العنيف الذى يسيطر على مفهوم المساندة الدولية والإقليمية. لقد سبق أن رأينا المبادئ الست التى تسود سياسة إسرائيل الخارجية فى مواجهة التطور العربى، وحللنا جميع عناصر هذه المبادئ، عدا العنصرين الأخيرين المرتبطين بعملية المساندة الدولية والإقليمية. محور ذلك، أن هذا التطور العام الذى لصالح إسرائيل، تستطيع تل أبيب أن تستغله أكبر استغلال لصالحها، ولتحقيق أهدافها.

من حيث المساندة الدولية، فهى تستطيع أن تخرج من عزلتها، بل وأن تفرض العزلة على المنطقة العربية وبصفة خاصة:

أولاً: تدفع المغرب العربى بطرق خفية تارة مباشرة وتارة غير مباشرة، لينصهر فى دائرة أوروبا الغربية ليصير حديقتها الخلفية.

ثانياً: تزيد من ارتباطها الاستراتيجى بالولايات المتحدة؛ بحيث تفرض على واشنطن أن تقدم ثمناً لذلك الترابط الاستراتيجى، والذى لن يكون سوى الهيمنة على منطقة الشرق العربى، بما فى ذلك منطقة الخليج.

ثالثاً: تمارس لعبة الإغراء مع الاتحاد السوفيتى، فى مقابل فتح باب الهجرة أمام اليهود السوفييت، الذين يشكلون المستقبل الحقيقى لإسرائيل.

رابعاً: تعميق الخلافات بين الوطن العربى المشرقى من جانب، وإفريقيا السوداء من جانب آخر، لتكمل بهذا عملية الإحاطة والتطويق.

على أن الناحية الأخرى الأكثر وضوحاً هى المرتبطة بدورها بمفهوم المساندة الإقليمية، وهى الجديرة بالاهتمام؛ لأنها سوف تكون حاسمة فى تطور التعامل مع منطقة الشرق

الأوسط. وقد بدأت ملامحها واضحة للعيان منذ حرب الخليج. إسرائيل لم تعد تؤمن بأنها فى عالم تسوده العداوات ضد المجتمع اليهودى. هذه النظرة آن لها أن تتغير. على إسرائيل أن تنطلق فى العالم، لتخلق لنفسها المساندة فى كل مكان، يجب أن تقوى نفسها فى مواجهة خصومها العرب، من خلال التعامل مع كل من له مصلحة، من الممكن أن تتفق مع مصالحها، وهى لذلك لاتتردد فى أن تُلقى بشباكها نحو الصين، وسوف نرى ذلك أكثر وضوحاً فيما بعد، وفى موضع آخر، الذى يعنينا أن نتذكره، أنه لم يمنعها من ذلك عدم وجود علاقات دبلوماسية مع بكين، بل والصفعات المتتالية التى تتلقاها من قادة الصين. الذى يعنيها هو النتيجة، كذلك مع الاتحاد السوفيتى. الزعيم الجديد وجو التعايش، والوفاق الجديد، يؤهل ويسهل لنوع جديد من التعامل، وذلك دون الحديث عن جنوب إفريقيا.

هذا التصور الجديد يبرز فى صورة واضحة فى أسلوب التعامل مع دول الجوار الإقليمى.

لقد كان المفهوم السائد فى القيادة الإسرائيلية العمالية هو تطبيق مبدأ شد الأطراف. ومن ثم فقد اعتقدت تلك القيادة أن خير سياسة يجب أن تنبع من خلق روابط وثيقة متجانسة أساسها **التحالف العدائى الضمنى مع العواصم الثلاث: طهران، أنقرة، أديس أبابا، وهو تحالف تسيطر عليه مبادئ ثلاثة:**

المبدأ الأول: علاقات ثنائية بين تل أبيب وكل من هذه العواصم الثلاث.

المبدأ الثانى: خلق التجانس بين المصالح الإسرائيلية والمصالح الأمريكية فى تلك العواصم الثلاث، بحيث إن العلاقات الإسرائيلية تماثلها وتتوازى معها وفى دول الأطراف علاقات أمريكية.

المبدأ الثالث: وهكذا يتم **تكتل ثلاثى** ضد منطقة المشرق العربى:

أ - **تل أبيب واشنطن طهران، يسمح بخلق تمركز فى مواجهة** منطقة الخليج العربى.

ب - **تل أبيب واشنطن أنقرة، يقود إلى تدعيم عنصر جاذب فى شمال منطقة الهلال الخصيب.**

جـ - **تل أبيب واشنطن أديس أبابا،** يحيط بجنوب وادى النيل ويتولى بدوره عملية شد الأطراف.

المتغيرات السابق ذكرها جعلت إسرائيل تعيد النظر فى هذه السياسة وبصفة خاصة

منذ السبعينات وقبل حرب أكتوبر.

خصائص سياسة المساندة الإقليمية الجديدة:

سياسة المساندة الإقليمية الجديدة تهدف إلى تحقيق أهداف أكثر بعداً. وبصفة خاصة هدفين:

الأول: الاستئثار بالتوظيف لصالح الولايات المتحدة من جانب إسرائيل.

الثاني: عدم الاكتفاء بشد الأطراف، وتحويل تلك الممارسات إلى بناء إطار يعزل العالم العربى عن عمقه، ودائرته الإسلامية وغير العربية.

ابتدأ ذلك التطور منذ بدأت تبرز أيٍ من الدول الثلاث، وبصفة خاصة إيران كبديل أو مساند لإسرائيل، فى علاقة الولايات المتحدة بتل أبيب. أيٍ من الدول الثلاث تملك وضعاً استراتيجياً متفوقاً لو قورن بإسرائيل، فإيران تتحكم فى الخليج فضلاً عن أنها تمتد لأكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر جنوب الاتحاد السوفيتى. وتركيا لديها المضايق، فضلاً عن أنها المقدمة الحقيقية لحماية القواعد الأمريكية فى منطقة الخليج. والحبشة هى صاحبة الكلمة الأولى فبباب المندب، ومن ثم فى عملية الاتصال بين البحر الأحمر والمحيط الهندى. كيسنجر من جانب آخر قد بدأ يوسع فكرة الأعمدة المتعددة لمساندة النفوذ الأمريكى، حيث لاتصير إسرائيل هى السند الوحيد، وهكذا برزت فكرة تحويل قبرص إلى قاعدة أمريكية، وأكد ذلك الإدراك ما يمكن أن تقدمه شبه جزيرة سيناء، من إمكانيات استراتيجية، ومنذ ذلك التاريخ بدأت إسرائيل تعيد النظر فى استراتيجيتها.

لم يعد أساس استراتيجيتها فقط شد الأطراف، وإنما عزل المنطقة من جانب وشل وظيفة مصر الإقليمية من جانب آخر. كلاهما وجه آخر لعملة واحدة محورها رغبة إسرائيل ليس فى الدفاع عن نفسها، وإنما فى الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط فقط لصالحها.

أ – فهى تسعى لأن تصير السند الوحيد للولايات المتحدة فى المنطقة. وهى لذلك عقب مجىء ليكود إلى السلطة، وبتوافق تام مع فلسفة تسير فى هذا الاتجاه بأدلة مادية تناوئ أى قوة إقليمية تنظر إليها واشنطن بعين الرضا. حادثة ضرب المقاومة فى تونس، ثم قتل رجلها الثانى أيضاً فى تونس، كانت موجهة لواشنطن لتثبت القدرة والفاعلية، بل وهناك معلومات غير مؤكدة عن ضرب الأسطول الجزائرى أيضاً من جانب الطيران الإسرائيلى. الولايات المتحدة فى استراتيجيتها الجديدة تعتمد أساساً على إسرائيل، كأداة فى التعامل، ليس فقط مع المنطقة، بل وانطلاقاً من المنطقة.

ب – وهى لذلك – أى تل أبيب – تعمل بثبات على إضعاف علاقات واشنطن بأى من هذه الدول الثلاث. بدأتها بالحبشة حيث لعبت الورقة اليسارية دورها، ثم أعقبت ذلك بإيران حيث لعبت الورقة الإسلامية أيضاً دوراً مماثلاً. بل إن العملية نفسها فى صورة أقل وضوحاً تمت فى تركيا، وخصوصاً بتشجيع إنتاج القطن الذى سوف يُحيل هذه الدولة إلى منافس له وزنه مع السوق الأمريكية.

جـ – وهى تريد أن تجعل من هذه الدول الثلاث أدوات مساندة لها فى التدخل فى منطقة المشرق العربى، الحبشة فى قرن إفريقيا وبصفة خاصة فى وادى النيل. تركيا فى كل من العراق وسوريا بل إن هناك حزباً تركياً يطالب اليوم علانية بضم بعض أجزاء شمال العراق. وإيران فى منطقةالخليج. إنها تقدم بهذا الشكل لتحركها الاقتصادى وتعد لغزو المنطقة، بل ولما يمكن أن يسمى تقسيم مناطق نفوذ فى هذه المنطقة ولو خلال مرحلة معينة.

د – وهى تسعى لخلق صلة وثيقة بين العواصم الثلاث: طهران وأنقرة وأديس أبابا، وهو ما نسميه تحالف الأعداء، أنه مقدمة لخلق إطار يحيط المنطقة العربية، ويحصر المشرق العربى، بين كماشة ضخمة تمتد من أقصى الشرق إلى الشمال والجنوب. إنه مقدمة لتقسيم الأسلاب من جانب ومنع هذه المنطقة من التواصل مع محيطها الإسلامى الطبيعى من جانب آخر.

هـ – وهى تجعل هذا النفوذ وسيلتها لتقفز إلى ما هو أبعد. فإيران مقدمة للقفز إلى أفغانستان وبصفةخاصة الباكستان، حيث تُحدّثنا آخر الأخبار عن تعاون خفى نووى بدأت ملامحه بين دولة القنبلة الإسلامية وإسرائيل، وأديس أبابا مقدمة للقفز إلى المحيط الجنوبى، وبصفةخاصة زائير من جانب، وأوغندا من جانب آخر، حيث تستطيع أن تشل وتحاصر مصر فى إفريقيا.

و – وهى تُعد أيضاً لما بعد عصر توزيع الأسلاب، عندما يقدر لها أن تنجح فى تصفية الوجود العربى، بأن تحيله إلى كيانات هشة بمعونة هذه الدول الثلاث فتتجه إلى تلك الدول بدورها تمارس فى داخلها نفس اللعبة التى مارستها فى الأرض العربية. ولكن هذا لايزال فى طى الخفاء، وإن كانت بعض ملامحه بدأت تعبر عن نفسها محاولة الشيعة للثورة فى تركيا بمساعدات إسرائيلية، دفع بعض القوى فى إيران لرفض الاستمرار فى التعنت ضد العراق، تشجيع الأكراد سواء فى تركيا أو إيران، كذلك تشجيع حركات انفصالية فى الحبشة: جميعها حوادث تُنْسب إلى أجهزة مخابرات إسرائيلية دون دليل قاطع، ولكنها لو

صحت فهي تُعد لما بعد عصر التفتت للمشرق العربي.

شل دور مصر الإقليمي وجوهر السياسة الإسرائيلية:

المتغير الأساسي والحقيقي في كل هذا الإدراك، هو تفريغ المنطقة الممتدة من حوض وادي النيل حتى باكستان، من أي قوة قادرة على أن تنازع تل أبيب الهيمنة والسيادة. شل دور مصر الإقليمي بكل ما تعنيه هذه الكلمة هو المقدمة. ومن ثم فإلى جانب تفريغها من عناصر القوة وعزلها عن محيطها العربي والإسلامي؛ بحيث يصير حصارها في كل موضع تعودت أن تمارس في إطاره أي وظيفة قيادية يصير منطلقاً طبيعياً لأعمال عملية التخريب. وإذا كانت سياسة «مناحيم بيجن» لم تستطع تطويع الإدارة المصرية من الداخل، وتطبيع علاقاته مع وادي النيل، فإن سياسة خلفائه التي أساسها هو العمل على شل القدرة والفاعلية المصرية بأي معنى من معانيها هو منطلق آخر لتحقيق نفس الهدف.

وهنا يتقدم التطور العام للإطار الدولي ليساند إسرائيل في هذه السياسة، فهل سوف نقف عاجزين إزاء مثل ذلك التطور بشقيه؟ دولي ضد مصالحنا، وإسرائيلي للقضاء على وجودنا؟

سؤال يجب أن نتصدى للإجابة عليه.

المبحث الثانى

السلاح الصاروخى .. واختلال موازين القوى

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«العامل الاستراتيجى رغم صعوبته ودقته، ورغم حاجته إلى نوع من الفن والحساسية التى لا يستطيع العلم أن يصوغها، إلا أن قواعده واضحة وصريحة، نستطيع أن نصوغ تلك القواعد فى ثلاثة:

الأولى: المعرفة بالعدو.

الثانية: التجانس فى مراتب التعامل.

الثالثة: التخطيط المسبق وبالدقة الكافية فى كل عناصر الموقف، أحد أسباب النجاح الإسرائيلى هو احترام هذه القواعد.

القاعدة الأولى: والتى تعنى المعرفة بالعدو، ليست بالجديدة: منذ أقدم العصور، نجد الاستراتيجى أو القائد العسكرى، يبث جواسيسه بين خصومه، يجمع عنهم المعلومات الدقيقة والكافية.

من القصص التى تروى بهذا الخصوص: أن فرنسا عندما فكرت فى غزو مصر أرسلت أحد رجالها الذى قضى فى وادى النيل أكثر من ثلاثة أعوام، ليجمع كل ما يستطيع أن يسجله عن البلاد (*) وعن أهلها، جُمِعَت عقب ذلك فى مؤلف ضخم لايزال موجوداً فى المكتبة الوطنية بباريس، يتكون من ثلاثة مجلدات، كذلك فإن نابليون كان يقضى أياماً كاملة قبل أى معركة فى دراسة شخصية القائد الذى سوف يتعين عليه أن ينازله.

هذه العملية - أى عملية جمع المعلومات - أضحت اليوم أكثر سهولة من جانب، وأكثر صعوبة من جانب آخر، سهولتها فى أن المعلومات المنشورة والمتداولة كافية ولو فى نطاق

(*) كتاب «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية - الكتاب الرابع - الاستعمار والصهيونية وجمع المعلومات عن مصر. د. حامد عبد الله ربيع.

معين للمعرفة بالعدو، ولكنها أكثر صعوبة بسبب ضخامة الكم من المعلومات المتوفرة. الأمر الذى يجعل الحاجة إلى تنظيمها وتنسيقها أمرا شاقا ومرهقا، أضف إلى ذلك أن هناك قسطا من المعلومات فى حاجة إلى أدوات من نوع معين، ليس من السهل توفرها وبصفة خاصة فى البلاد المتخلفة، نقصد بذلك ما يسمى بالمبررات من جانب والمعلومات الأمنية من جانب آخر، **الملاحظة العامة على إسرائيل أن أجهزتها المعلوماتية تعتبر نموذجا متقدما** جديراً بأن تحتذى به نفس الدول الكبرى والمتقدمة؛ هى قد وصلت إلى ذلك بفضل عناصر ثلاثة:

الأول: اهتمامها بالأجهزة المتقدمة **لجمع وحفظ واسترجاع المعلومات**، منذ بدء وجودها منتفعة فى هذا بتقاليد الحركة الصهيونية.

الثانى: امتلاكها لسلاح مخابرات متقدمة، منتفعة فى هذا أيضا بوجود يهود مواطنين منتشرين فى جميع أنحاء العالم، وهم قادرون على أن يؤدوا بهذا الخصوص خدمات لايستهان بها، بحيث يمكن القول دون مبالغة **أنها تمتلك طابورا خامسا فى كل دول العالم، وأغلبها وبصفة خاصة فى دول العالم العربى، ورغم أن عدد اليهود فى الدول العربية قد قل كثيرا عما كان الأمر عليه من قبل، إلا أن هذا العدد القليل كاف لأن يؤدى وظيفة خطيرة فى موضوع جمع المعلومات.**

الثالث: التعاون الوثيق بين الأجهزة الإسرائيلية وبعض أجهزة العالم المتقدم، وبصفة خاصة وكالة المخابرات الأمريكية، وتلك التابعة لحلف الأطلنطى، وهو تعاون يمكنها من الحصول على معلومات دقيقة لاتتوافر لها، كما أنه يمكنها من التنسيق الحركى مع تلك الأجهزة، بحيث يمكن القول بأن كل ما تحصل عليه تلك الأجهزة من معلومات هى تحت تصرف تل أبيب.

القاعدة الثانية: واضحة وليست فى حاجة إلى تفصيل.

القاعدة الثالثة: تنقلنا إلى صميم العمل العسكرى، سبق وتعرضنا لذلك بخصوص مراتب التحرك الاستراتيجى، لا نريد أن نعيد ما سبق وذكرناه، ولا نريد أن نخرج عن موضوعنا فى أضيق نطاق، وبصفة خاصة فى علاقة الاستراتيجيات الثلاث المتتابعة، لابد من بعض الإيضاح، سبق وذكرنا أن أى **استراتيجية تملك ثلاثة مستويات:**

الأول: المستوى الذى يُسمى عادة بالاستراتيجية العليا، حيث تتبلور أهداف السياسة القومية التى يجب أن تسيطر على توجه المجتمع الداخلى والخارجى، ولو فى فترة معينة، وحيث تتحدد تلك الأهداف بوضوح، وترتيب تصاعدى واضح، ثم تَعقُب هذه الاستراتيجية العليا تلك العسكرية التى هى فى جوهرها صياغة عسكرية للاستراتيجية العليا، أى هى

بعبارة أخرى كيف تستطيع الأداء العسكرى، أى أداة العنف المنظم، أن تحقق تلك الأهداف من خلال القتال، وهكذا هذه الاستراتيجية هى التى تُحدد متى يجب أو يتعين علينا أن نقاتل.

الاستراتيجية القتالية تأتى فى مرتبة ثالثة، لتجيب على السؤال الجوهرى: كيف يجب أن نقاتل؟ السلاح الأمثل، الموقع الأصلح، الأسلوب الأكثر فاعلية، بل ويدخل أيضا فى هذا النطاق عملية اختيار القائد الأكثر استعداد للتعامل مع مجموعة هذه التساؤلات، هكذا نجد أنفسنا أمام ثلاثة استراتيجيات متتالية:

استراتيجية عليا، استراتيجية عسكرية، استراتيجية قتالية، ما يجب أن نتذكره أن هذه الاستراتيجيات الثلاث يجب أن تملك تناسقاً كاملاً، وأن علاقة التناسق يجب أن تكون مطلقة لاتحتمل أى نوع من أنواع التناقض أو التعارض.

هذا هو أحد عناصر قوة إسرائيل، وهو عنصر ثابت فى جميع مراحل التاريخ اليهودى مع مشكلة الشرق الأوسط، ومنذ وجود الدولة اليهودية، وسوف نتلمس مظهرا آخر من مظاهر ذلك الترابط فى التعامل القتالى، وتوظيف مختلف الأسلحة التى تمتلئ بها الترسانة الإسرائيلية. لقد توقفنا أمام الاستراتيجية القتالية فى موضعين: السلاح النووى من جانب، والسلاح الكيميائى والجرثومى من جانب آخر، وليكتمل ذلك علينا أن نطرح السلاح الصاروخى وموضعه، من حيث التوظيف فى الفكر العسكرى الإسرائيلى.

ولنحدد عناصر ذلك الإدراك:

أولاً: السلاح الكيميائى والجرثومى. هو رأس الحربة أو المحور الأساسى فى التعامل مع منطقة الشرق الأوسط.

ثانياً: السلاح النووى هو أداة إسرائيل الإقليمية، تقوم على فكرة العزل والتطويق فكذلك نجد أن سياستها العسكرية تنبع من نفس المبدأ، وسوف تستخدم السلاح النووى أداتها فى ذلك.

ثالثاً: أمّا السلاح الصاروخى: فهو قوتها فى تحطيم القدرة الهجومية لدى الدول العربية. كيف ذلك؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن نحاول الإجابة عليه.

القدرة النووية الإسرائيلية:

قبل أن نواصل هذا التحليل، يجب أن نحدد بصورة دقيقة، القدرة النووية الإسرائيلية وخصائصها، المتغيرات التى تتحكم فى نوعية وخصائص السلاح النووى الإسرائيلى ثلاثة:

أولاً: سيطرة القنابل الصغيرة، أى القنابل النووية التكتيكية، وقد سبق وذكرنا خصائصها، وكيف أنها قَلَبَت رأساً على عقب جميع خصائص التعامل الاستراتيجى مع المنطقة لماذا؟ ولماذا لن تتعامل إسرائيل مع المنطقة من خلال القنابل الكبيرة أو المتوسطة الحجم؟

1 – توزيع الأهداف فى منطقة الشرق الأوسط التى سوف تكون مسرحا للعمليات ومن ثم، فامتلاكها لعدد كبير من القنابل الصغيرة سوف تُمكّن تل أبيب من إصابة العديد من الأهداف على تلك الرقعة الممتدة من العراق حتى ليبيا.

2 – كذلك فإن قذف القنابل أكثر سهولة بل وهو أكثر دقة.

3 – وهى أقل تكلفة، حيث إن نفقات قنبلة متوسطة، تساوى نفقات ثلاث إلى أربع قنابل صغيرة.

4 – وذلك إلى جانب أن القنابل الصغيرة ليست فى حاجة إلى إجراءات تفجير، وهو أمر يجعل إسرائيل تملك استقلالا معينا حتى فى تعاملها مع جنوب إفريقيا.

5 – وأخيرا فإنها – هذه القنابل – محدودة القدرة، من حيث الإشعاع وبصفة خاصة لو أُطلقت من ارتفاعات عالية، وهو ما يجعل إسرائيل مطمئنة ولو نسبياً بحيث أن هدفها الأساسى يتحقق دون أن تخضع لمخاطر غير محسوبة.

ثانياً: أما عن عدد القنابل الصغيرة التى تملكها إسرائيل حالياً، فإنه طبقا للتقارير المتداولة وبصفة خاصة عقب تسريب المعلومات من جانب الخبير الإسرائيلى «فانونو» والتى أخضعت لتحليل عميق من جانب المتخصصين، وكذلك بناء على تقارير وكالة المخابرات الأمريكية فإن إسرائيل تملك حتى عام 1986 ما بين مائة قنبلة إلى مائتين من الحجم الصغير، الذى لايتجاوز وزنه 2.5 كيلو جرام، وقد لا يتعدي فقط 2 كيلو جرام، وإن إسرائيل قادرة منذ ذلك التاريخ على إنتاج من قنبلتين إلى ثلاث سنويا.

ثالثاً: هذه القنابل مفككة وهى بحاجة إلى تركيب، عمليةالتركيب هذه فى حاجةإلى 72 ساعة، هذا التصور يستند إلى المعلومات التى توفرت لدينا عن موقف إسرائيل أثناء حرب الأيام الستة، ولكنه لايوجد ما يمنع من أنه عقب ذلك تم تركيب بعض هذه القنابل بحيث تصير صالحة للاستخدام النووى، وبصفة خاصة عقب ضرب المفاعل النووى فى بغداد.

رابعاً: هذه القنابل مُخزّنة فى أقبية تحت الأرض، فى موقع قريب من مفاعل ديمونا أو تحت نفس المفاعل. والواقع أن هذا خير موقع لتخزينها؛ سواء لأن صحراء النقب أفضل مكان فى إسرائيل، بعيد عن أعدائها، سواء لأن هذه الصحراء مكان غير مسكون، ومن ثم تصير مكانا مثاليا لتخزين الأسلحة النووية، بحيث أن الخسائر لو حدث انفجار تكون

محدودة، وسواء لأن التدابير الأمنية فى ذلك المكان أكثر سهولة وأكثر فاعلية.

السلاح الصاروخى وموازين القوى فى منطقة الشرق الأوسط:

السلاح النووى يطرح من أوسع أبوابه السلاح الصاروخى. والواقع أن حرب لبنان التى لا نزال نعيش أحداثها، وقبل ذلك حرب الخليج، أفرزت الكثير من المعطيات الجديدة وبصفة خاصة بالنسبة للقدرات العربية الصاروخية، التى لابد وأن يدخلها، وأن يستوعب دلالاتها الفكر العسكرى الإسرائيلى، ورغم أن إسرائيل هى التى كانت أول من أدخل السلاح الصاروخى فى المنطقة، إلا أن تتابع الأحداث خلال الفترة الأخيرة سواء أثناء الجولات التى شاهدناها فى حرب المدن بين إيران والعراق، وسواء المتعلقة بالعلاقات المصرية الأمريكية، وما ارتبط بذلك من اتهامات ومحاكمات قاد المنطقة إلى وضع جديد يستحيل تصور أبعاده المختلفة، وبصفة عامة من حيث التوازن الفعلى بين الطرفين المتصارعين إسرائيل من جانب، والجانب العربى من جانب آخر.

تحليل السلاح الصاروخى فى المنطقة، يقود إلى نتائج معينة نطرحها منذ البداية ونحاول التعامل الفكرى معها، كما يتصور الإدراك الإسرائيلى:

أولاً: إن السلاح الصاروخى يعكس حاليا وفى المستقبل حالة عدم التوازن فى المنطقة لصالح الجانب العربى.

ثانياً: إن إعادة التوازن تفترض تطويرسلاح إسرائيلى مضاد للصواريخ العربية.

ثالثاً: وأنه لمواجهة هذا الواقع، يجب أن تكون المعركة الإسرائيلية القادمة (*) وقد اتصفت بعنصرى **المباغتة من جانب، وبالعنف إلى أقصى** حدوده من جانب آخر.

فلنقتصر مؤقتا على تحليل العنصر الأول.

القدرة الصاروخية واختلال موازين القوى فى منطقة الشرق الأوسط:

جميع الخبراء العسكريين يجمعون على أن الحرب القادمة بين إسرائيل والعالم العربى سوف يتحكم فيها السلاح الصاروخى، ورغم أن حرب الخليج لم تنته بعد، لأن إيقاف إطلاق النار لايعنى انتهاء الحرب، فضلاً عن أن جميع المعلومات المتوفرة تؤكد أن إيران لم تستسلم حقيقة، وهى تحيل أرضها إلى ترسانة مسلحة، وتواجهها العراق بالمثل إلا أن النتائج التى أفرزتها تلك الحرب، وما سبقها وما صحبها من أحداث، وبصفة خاصة خلال العام الأخير من القتال، يسمح برسم صورة واضحة للواقع الذى تشهده المنطقة، والذى قد

(*) «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية»؛ الجولة العربية الإسرائيلية السادسة لواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل. ضمن سلسلة نحو وعى سياسى واستراتيجى وتاريخى – الكتاب الأول. إعداد د. جمال عبد الهادى مسعود. الشيخ عبد الراضى أمين.

تشهده خلال الأعوام القادمة ولنحدد العناصر:

أولاً: فالعراق عاش فترة من التردى النفسى الى أن بلغ بأهل بغداد فى لحظة معينة إلى الإحباط، الذى عاشه كل من عاصر الفترة التى انهالت فيه على العاصمة العراقية الصواريخ، ورغم قلة عدد الضحايا والخسائر الحقيقية، وكان مرد ذلك الضرب المتواصل بالصواريخ الإيرانية.

ثانياً: إن الآية لم تنقلب وفجأة إلا بسبب سلاحين: أولهما: الصواريخ العراقية التى لم تترك بقعة فى إيران دون أن تنالها، والتى أحالت طهران طبقا لما أوردته الصحافة المحايدة إلى مدينة أشباح، **والسلاح الكيميائى** الذى سمح للعراق بأن تواجه الكم الإيرانى فى ساحة القتال.

ثالثاً: إن قبول إيقاف إطلاق النار لم يكن بسبب القوة الحقيقية للجيش العراقى بمعناه المهنى، ولكن نتيجة للاستخدام الجيد والمفاجىء لهذين السلاحين: الصواريخ من جانب، والكيميائى من جانب آخر، وما أحدثه كلاهما من آثار نفسية مخيفة كان لابد وأن تنتج بدورها آثارها العنيفة على رجل الشارع، وعلى المقاتل فى آن واحد، وبصفة عامة على إرادة الصراع.

رابعاً: إن أحد أخطاء القيادة العراقية أنها لم تستغل ذلك، سواء لاختراق إيران وتغيير نظام الحكم، أو للاستيلاء على (عبدان) وجعلها ورقة أساسية فى الضغط على القيادة الإيرانية للإنهاء الحقيقى للقتال.

السلاح الصاروخى قلب رأسا على عقب موازين القوى بين العراق وإيران، وهذا ما يعترف به كل من تابع قصة حرب الخليج، كذلك فإن خبرة سلاح الصواريخ فى لبنان، تملك مذاقها الذى لانزال نعيش نتائجه، وإذا كانت بعض القوى اللبنانية تقف تتحدى الجيش السورى، فإن السبب الحقيقى يعود إلى هذه القدرة الصاروخية، رغم محدودية القدرة اللبنانية، فى مواجهة الفاعلية السورية، بل إن البعض يتحدث عن خطورة هذه القدرة فى التعامل مع إسرائيل، قد يكون هذا مبالغة لتبرير شرعية المؤازرة للعناصرالمارونية، ولكن الأمر الذى لاشك فيه، أن عنصر المواجهة مع دمشق يتحكم فيه بصورة قاطعة هذا المتغير، فهل كان ذلك سببا للموقف الإسرائيلى من إعلانها عدم الاستعداد لأى تورط فى الصدام بين دمشق وبيروت غير المسلمة؟ وهل سوف تترك إسرائيل هذا الدرس بدوره دون تحليل لنتائجه.

السلاح الصاروخى والإمكانيات العربية:

قبل أن نحاول التحديد الكمى للسلاح الصاروخى فى الجانب العربى، يجب أن نلاحظ

منذ البداية كيف أن العالم الصناعى المتقدم، والذى يملك القدرة الحقيقية على إنتاج الصواريخ، يقف من الطرفين المتنازعين أى إسرائيل من جانب، والعالم العربى من جانب آخر – موقفا غير محايد؟ ورغم أن إسرائيل هى أول من أدخل سلاح الصواريخ فى المنطقة، تجد **أن الدول الصناعية السبع دون استثناء اليابان تقف من إسرائيل ليس موقف المحايد؛ بل موقف المشجع على عملية التوسع والتقدم فى إنتاج واستخدام السلاح الصاروخى فى مواجهة الموقف الرافض للدول العربية.**

هذه الدول السبع سواء علانية أو بطريق غير مباشر، تقيم جميع العقبات والعراقيل ضد الدول العربية فى امتلاك السلاح الصاروخى، سواء عن طريق الشراء أو الإنتاج الذاتى. وقد وصل الأمر إلى اتفاق جنتلمان فى عدم تقديم لأى دولة عربية أى مساعدة تكنولوجية، أو فنية مرتبطة بإنتاج الصواريخ بين الدول الصناعية السبع، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هو اتجاه الدول العربية للاتحاد السوفيتى من جانب، ولبعض الدول المتخلفة حيث إن هذه الصناعة وصلت مستوى معيناً من التقدم، وهذا يعنى أن العالم العربى في وضع غير مثالى بالنسبة لنوعية السلاح، فما يملكه أقل من حيث المستوى من مثيله الذى تحت تصرف العسكرية الإسرائيلية.

الملاحظة الثانية: والمرتبطة بتلك الأولى، تدور حول انتشار سلاح الصواريخ فى منطقة الشرق الأوسط، لقد أضحى من المعلوم أن هذه المنطقة يوجد بها عدد مخيف من الصواريخ، بل وبعضها على درجة عالية من التقدم. ورغم أنه لايمكن تحديد عدد هذه الصواريخ بدقة إلا أنه من المسلم به أنه توجد فى البلاد العربية المحيطة بإسرائيل بما فى ذلك ليبيا وحدها حوالى (ثلاثة آلاف صاروخ) وأن هذه الدول: مصر والعراق والكويت والسعودية وسوريا ثم ليبيا تملك حوالى (300 منصة إطلاق صواريخ) هذه الصواريخ يمكن تصنيفها بالشكل التالى:

أولاً: الصواريخ غير الموجهة، والتى يتراوح مداها بين 40 ، 70 كيلو متر وتعرف بفروع 7، هذه الصواريخ سوفيتية الصنع، وتوجد فى كل من العراق ومصر والكويت وسوريا واليمن الجنوبى وليبيا. كذلك فإن البرازيل زودت بعض دول المنطقة بصواريخ مماثلة (استروس 2) وهى من نفس النوع، ولكنها لاتتجاوز من حيث المدي (40 كيلو متراً) خطورة هذه الصواريخ بصفة خاصة، تبدو لو استخدمت من الأردن حيث تصير قاتلة.

ثانياً: ثم هناك صواريخ البعيدة المدى التى تحمل أجهزة توجيه، أهم هذه الصواريخ المتوفرة فى المنطقة، الصاروخ السوفيتى المعروف باسم (21 اس اس) والتى تم تزويد سوريا به، فى حدود (مائة صاروخ)، كذلك الصاروخ الصينى (D.T.3) والذى يتفوق على الصاروخ الروسى من حيث مداه، حيث يصل الصاروخ الصينى إلى (ألفى كيلو متر) بينما

يصل الصاروخ الروسى إلى فقط (300 كيلو متراً) ولكنه لايتفوق عليه من حيث دقة التصويب، بل العكس حيث إن الصاروخ الروسى يستطيع أن يصيب الهدف فى إطار (خمسين متراً) بينما الصينى يقع على بعد من (2 كيلو متراً إلى ثلاثة كيلو مترات) من الهدف.

ثالثاً: السباق على التسلح الصاروخى، لايقف عند ذلك الحد، فقد ذكرت مجلة نيوزويك فى عددها بتاريخ 1988/6/21 أن سوريا طلبت من الصين تزويدها بصواريخ (أم – 9) التى يتراوح مداها ما بين (600 إلى 800 كيلو متراً)، ورغم النفى القاطع من الجانبين فإن الذى نعلمه على وجه اليقين أن السعودية قد وصلتها فعلاً. من بكين صواريخ (ريح الشرق: د ى ت – 3)، والتى تستطيع أن تصيب أى بقعة فى إسرائيل.

رابعاً: على أن أخطر ما يعنيه السلاح الصاروخى، هو البرامج التطويرية الضخمة التى تعرفها جميع البلاد العربية تقريبا، بخصوص امتلاك القدرة الصاروخية المحلية والقادرة على الإنتاج الذاتى للصاروخ، ولو بمساعدة بعض دول العالم الثالث، فمصر تساهم فى ثلاثة برامج منفصلة، أحدها بالاشتراك مع الأرجنتين لتطوير صاروخ مداه (900 كيلو متراً) وهى كذلك بالاشتراك أيضاً مع الأرجنتين والعراق، تعمل على تطوير صارخ (كوندور – 2) الذى يبلغ مداه 800 كيلو متراً. والعراق يملك برنامجين أديا إلى إنتاج صاروخ الحسين بكفاءة (650 كيلو متراً) ثم العباس والذى وصل (900 كيلو متراً) والحديث عن تعاون مكثف بين العراق ومصر والبرازيل، بل وكذلك الأرجنتين بهذا الخصوص، تتداوله جميع مصادر المعلومات، ليبيا بدورها تملك برنامجاً آخر لتطوير صاروخ صغير بالتعاون مع الأجهزة الفنية فى ألمانيا الغربية، بل والحديث عن برنامج مصرى مستقل لتطوير صواريخ متوسطة المدى، كان سببا فى كشف بعض مراكز التجسس لصالح القاهرة فى واشنطن، انتهت بالتخلص من وزير الدفاع المصرى أمر تلوكه الألسنة.

مخاطر التسلح الصاروخى العربى وإسرائيل:

التسلح العربى (الصاروخ) هو أحد المتغيرات الأساسية التى تدخلها العسكرية الإسرائيلية فى اعتبارها، ومن ثم فى بنائها لخطتها فى التعامل مع المنطقة، بل وهى تثير حولها ضجة لاتقل عن تلك المفتعلة بخصوص كلا السلاحين الكيميائى والجرثومى. لماذا هذه الضجة؟ التى فى بعض الأحيان تكاد تكون مفتعلة؟ ولماذا هذا الجهد الدبلوماسى المكثف بحيث تفرض بأسلوب أو بآخر على جميع الدول الصناعية الامتناع عن تقديم أى مساعدات بهذا الشأن، بينما إسرائيل نفسها قد استطاعت أن تبنى لنفسها ترسانة صاروخية، سواء من خلال الإنتاج المكثف، أو باسم اتفاقية التعاون الاستراتيجى، حيث

الترسانة الأمريكية قد جعلت من أرضها مخزنا ضخما لذلك السلاح.

الأسباب عديدة ويكفى أن نذكرها بإيجاز:

أولاً: إنه سلاح سهل التصنيع نسبياً، فهو لايفترض تلك المشاكل التى تفرضها القنبلة النووية، وهو كذلك إن لم يكن من السهل تصنيعه، فإن السوق الدولى للسلاح عامر به، ومن ثم فالحصول عليه بغض النظر عن تكلفته لايمثل أى صعوبة، وقد أثبتت ذلك حرب الخليج، جميع أنواع الصواريخ متوفرة، ولمن يستطيع الدفع، وسماسرة السلاح يتولون عملية الوساطة، برنامج ناصر منذ أكثر من عشرين عاماً، والذى كان يهدف إلى تزويد مصر بسلاح صاروخى متقدم، وقد كان قادراً على ذلك. **لم يمنع من تحقيقه إلا سوء اختيار الأشخاص الذين تولوا المسئولية.**

ثانياً: وقد أثبتت دول العالم الثالث أنها قادرة على التصنيع، وتزويد السوق الدولى للسلاح بأكثر من نموذج واحد، هذه الدول هى التى تعيش مأساة المديونية، وهى التى فى حاجة إلى بيع هذا السلاح، وهى لذلك تقدم بسعة صدر وإلحاح على التعاون مع الدول العربية بشأن تسليحها بهذا السلاح، أو التعاون بقصد خلق صناعة محلية قادرة على التصنيع الذاتى. الثابت اليوم أن عملية تصنيع السلاح الصاروخى، دخلت مرحلة متقدمة فى العراق ومصر، وبصفة خاصة بالتعاون مع البرازيل والأرجنتين.

والخطورة الحقيقية هى **بالنسبة للصواريخ القصيرة المدى، وهى التى تحتاجها الحرب القادمة ضد إسرائيل، أن صاروخا مداه (مائة كيلو متر) كاف لو وجد بكثافة معينة أن يحقق جميع الأهداف، من قتال تشنه الدول العربية على الدولة اليهودية بما فى ذلك تدمير السلاح النووى المكدس فى إسرائيل**، وسوف نعود لذلك لاحقا، الذى يجب أن نتذكره أن هذا والسبب الرئيسى فى رفض أى تنازل بالنسبة للضفة الغربية، وقد حللنا ذلك سابقا وسوف نعود إلى هذه النقطة بالذات بتفصيل أكبر فيما بعد.

ثالثاً: أضف إلى ذلك أن الصاروخ وبصفة خاصة القريب المدى، من السهل إخفاؤه قبل استخدامه، بل وبعد استخدامه، فهو متنقل وبصفة خاصة من الممكن بخصوصه إجراء عمليات تمويه عديدة، الأمر الذى يجعل **الجانب العربى فى موقف القوى، بسبب حدوده الطويلة مع إسرائيل، بشرط ن يكون هو البادئ بالقتال، و صاحب المبادرة، وسوف نرى ذلك أيضا تفصيلا فيما بعد.**

رابعاً: وأخطر ما يثيره السلاح الصاروخى هو إمكانية تزويده برؤوس مدمرة، بما فى ذلك الرؤوس الكيميائية والجرثومية، بل والأخبار المتسربة تحدثنا عن أن مصر تنتج صاروخاً (صقر 8) الذى مداه (ثمانون كيلو متراً) والقادر على حمل ذخائر عنقودية، ومن الثابت أيضاً أن سوريا تملك مصنعا متقدماً قادراً على إنتاج رؤوس كيميائية من الممكن

استخدامها ضد المدن، وهنا تكمن حقيقة الخطورة التى يمثله الصاروخ كما تجلى فى حرب العراق وإيران، **فهو سلاح نفسى** بالنسبة للمدن وسكانها وهو سلاح لايمكن إزاءه اتخاذ أية تدابير احترازية على مستوى المواطن، أنه يفرض **مفهوم الأمة المقاتلة وهو سلاح ولو ضمن تكراره بشكل معين، وبدقة معينة من حيث التصويب، وهى أمور جميعها متوفرة فى الجانب العربى بالنسبة للصاروخ القريب المدى، قادر على أن يفرض الاستسلام للمجتمع المدنى قبل العسكرى دون الحديث عن إمكانياته الرهيبة التدميرية.**

التخطيط الإسرائيلى والتعامل مع الموقف:

كأى عقلية تقوم فى تعاملها على التخطيط، فإن إسرائيل لابد وأن تعمل على تحييد هذا السلاح، وهى من ثم تجعل تخطيطها أساسه التمييز بين موقفين، موقف الهجوم الإسرائيلى، وموقف حرب قد تشنها الدول العربية.

فى الحالة الأولى فمما لاشك فيه أن إسرائيل سوف تجد نفسها فى حالة تفوق وبسبب، بصفة خاصة امتلاكها للقنبلة الذرية التكتيكية التى كما سبق ورأينا قلبت رأسا على عقب، جميع الموازين؛ الذى يعنينا **فقط فى هذا الموضع من التحليل، هو الحرب المفاجئة التى قد تشنها الدول العربية.**

ورغم أنَّنا نقتصر فى هذه العجالة على تحديد موقع السلاح الصاروخى من الهجوم المباغت من الجانب العربى؛ لأن دراسة هذه الناحية واحتمالاتها سابقة لأوانها، إلا أننا يجب أن نُذكّر ببعض العناصر الأساسية المتعلقة بذلك الموقف، كما يتصورها الجانب الإسرائيلى.

الفكر العسكرى يتساءل: لماذا قد يحدث من الجانب العربى هجوم مباغت كما حدث فى عام 1973.

أسباب ثلاثة قد يبرر أى منها مثل ذلك الهجوم:

الأول: الإرادة العربية بشأن تدمير السلاح النووى المكدس فى إسرائيل، وما يعنيه من إمكانيات وبالسلاح التقليدى.

الثانى: الإدارة العراقية الانتقام من إسرائيل بسبب ضرب المفاعل النووى العراقى.

الثالث: الإرادة السورية فى استعادة الجولان.

والأول أخطرها وأهمها مما لاشك فيه، أن العالم العربى مهما قُدّرت له من إمكانيات لن يستطيع أن يتوصل إلى المستوى القتالى الذى تملكه إسرائيل، بخصوص السلاح النووى، أضف إلى ذلك أن الترسانة الإسرائيلية تحتوى من القنابل النووية المتوسطة الحجم على قرابة من (20 إلى 30 قنبلة)، تم تصنيعها وإعدادها قبل التوصل إلى القنبلة

النووية التكتيكية وإن إسرائيل أعدت نفسها لاستخدامها في حرب أكتوبر، وفعلاً كانت لديها الإرادة الحازمة في ذلك، لولا توقف الجيش المصري عن حدود معينة، ثم أعقب ذلك من أحداث أهمها الثغرة، وما ارتبط بها من حصار للجيش المصري، **هذه أيضا يجب تدميرها ومن العبث الانتظار حتى تكتمل للعالم العربي إرادة نووية.**

الثاني: وهو المرتبط بالانتقام العراقي، الحساب بين بغداد وتل أبيب، يسمح بجميع الاحتمالات، خصوصا وأن التهديد الإسرائيلي لم ينقطع، وما يحدث اليوم في لبنان قد يكون مؤشراً بهذا الخصوص، له دلالة ولكن القدرات العراقية الصاروخية وحدها لاتكفي، وما يمكن أن يخشاه المحلل هو أن التوريط العراقي في لبنان قد يكون وسيلة لاستئصال أو **إضعاف حقيقي للقدرة**(1) **العراقية**، بحيث تفرض عليها معركة مباشرة بين الجيشين، لن تكون نتيجتها لصالح بغداد، الأمر الذي يجب أن يكون واضحاً في ذهن القيادات العسكرية العراقية، إن هناك فارقاً بين استخدام الصاروخ البعيد المدى كسلاح منفرد ومتميز، والنزول بالجيش إلى ميدان معركة عسكرية، حيث سوف يكون السلاح المستخدم بصفة أساسية هو السلاح الصاروخي القريب المدى.

الثالثة: أيضا يجب إدخالها في الاحتمالات، سوريا في وضع لاتحسد عليه، فهي قد تورطت في لبنان، وهي لم تحقق شيئا رغم مضي فترة خمسة عشر عاما على حرب أكتوبر، خلافا لمصر التي حققت الكثير، من حيث نتائج حرب الأيام الستة. ولكن في ظل القيادة الحالية السورية فإن هذا أيضا احتمال بعيد التصور.

كيف يتعامل الفكر الإسرائيلي مع جميع هذه الاحتمالات؟

هذه الحقائق جميعها القيادة العسكرية الإسرائيلية على وعي بها، وهي لابد وأن تخطط لمواجهتها، ولكن هل العالم العربي يعرف بذلك؟ هل يدرك بحقيقة قدراته وكيف أنه قادر على أن يهدد الوجود الإسرائيلي ذاته، دون الحديث عن إيقاف المخططات الصهيونية الرامية إلى التوسع في المنطقة؟

سؤال الإجابة عليه في حاجة إلى وقفة تأمل.))

(1) وقد كان.

المبحث الثالث

التطوير الإسرائيلى للسلاح الصاروخى

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«الجوهر الحقيقى لأى تعامل استراتيجى ينطلق من مبداين كل منهما، يمثل الوجه الآخر لحقيقة واحدة، **المبدأ الأول** هو التقوية الذاتية، **والمبدأ الثانى** هو إضعاف الخصم. التقوية إلى أقصى مستوى، والإضعاف إلى حدوده القصوى، كلاهما يسلك طريقين يكمل كل منهما الآخر. التقوية تعنى إبراز ملامح القوة واستخدامها الاستخدام الأمثل، والإضعاف يعنى شل نواحى القصور وإحالتها إلى كم مهمل هذه العناصر التى تصير أساسية فى التعامل مع الذات، تنقلب بتوظيف مختلف مع العدو، بحيث يصير محور الاستراتيجية بها والتضخيم فى عناصر الضعف، بحيث تمثل كماً أكثر مما تعبر عنه حقيقة.

وبعبارة أخرى، فإن أى استراتيجية حصيفة يجب أن تنطلق من حيث مضمونها فيما يتعلق بالتعامل مع الموقف من أربعة مبادئ، تكون نسيجاً متكاملاً لفلسفة الحركة.

أولاً: الإبراز والاستغلال الأمثل لعناصر القوة الذاتية، فالسياسة العسكرية الإسرائيلية - على سبيل المثال - تملك عنصرين هامين للقوة (الأول) القنبلة النووية التكتيكية (والثانى) التعاون الاستراتيجى مع الولايات المتحدة الأمريكية، هذان العنصران رغم أنهما ليسا أهم عناصر القوة فى الدولة الإسرائيلية، إلا أن التضخيم فى كليهما يزيد من خلق القناعة بقوة إسرائيل إلى درجة مبالغة.

فمما لاشك فيه أن القنبلة النووية التكتيكية عنصر قوة لايستهان به، رغم ذلك فهو ليس أهم عنصر، ولكنه أكثرها صلاحية، للتضخيم، كذلك التحالف مع الولايات المتحدة فضلا عن أنه يزيد من الهيبة، ويكثر من عناصر الصداقة، إلا أنه أيضا يطرح موضوع الأسطول السادس وإمكانياته فى التعامل مع موضوع الصراع العربى الإسرائيلى.

ثانياً: ثم شل نواحى الضعف والقيام بعملية تمويه بخصوصها، إسرائيل ضعيفة استراتيجياً؛ بل هناك من عناصر الضعف ما هو قاتل، لقد سبق وذكرنا كيف أن أرض فلسطين التى تعيش عليها إسرائيل لم تكن فى أى مرحلة من مراحل التاريخ مصدراً

لقلاقل، إنها مجرد معبر يجتازه القادمون من الشرق نحو أرض الحضارة فى وادى النيل، أو يخترقه الفراعنة وأحفادهم، وهم يتجهون إلى الشرق العربى، يبثون فى ربوعه الحضارة والمدنية، وهى كذلك معزولة تحيط بها البحار المتسعة، البحر الأبيض المتوسط لقرابة أربعة آلاف كيلو متراً غرباً، والبحر الأحمر بدوره يمتد إلى الجنوب ليجعلها مخنوقه بحريا كما هى مخنوقة برياً، بفضل حائط العداوة الذى يحيطها، ولكن إسرائيل بحنكة وذكاء استطاعت أن تشل عناصر الضعف، فهى أولاً كما سبق وذكرنا جعلت أحد أسس سياستها التعاون الاستراتيجى مع الولايات المتحدة، الأمر الذى مكنها من الاعتماد على الأسطول السادس للدفاع عن نفسها، ثم هى ثانيا خلقت مسالك متعددة للتعاون مع حلف الأطلنطى وصلت إلى حد تبادل المعلومات الأمنية، كذلك فإن علاقتها مع الحبشة ليست فى حاجة إلى تفصيل، ويكفى أن نتذكر أنها تحتل وتستأجر على مدخل باب المندب قرابة ثمانين جزيرة صغيرة، قد وضعت فيها مراكز للمراقبة، وسلحت بعضها بحيث يستطيع فى أى لحظة أن تقفل ذلك المدخل لحسابها، ورغم أن مصر تنبهت لأهمية باب المندب قبل أن تنتبه له تل أبيب، وكان لذلك دور فعال فى حرب أكتوبر، إلا أنها – حتى هذه اللحظة – لم تدرك مدى الضعف الاستراتيجى لإسرائيل فى الجانب الآخر، أى البحر المتوسط، لو أن **مصر استخدمت سلاح الضفادع البشرية فى حرب أكتوبر بقدرة معينة وهو فى متناول يدها، لكانت قد استطاعت إلى حد معين أن تمنع نزول السلاح الأمريكى الذى مكن إسرائيل من استيعاب الهزيمة بل وتحويلها إلى نوع من النصر فى عام 1973.**

شل عناصر القوة:

ثالثاً: ثم شل عناصر القوة فى الجانب المعادى، بحيث لايستطيع أن ينتفع بها فى قتاله العسكرى، أو السياسى، فلو نظرنا إلى العسكرية الإسرائيلية لوجدنا أنها تطبق هذا المبدأ بوضوح، بل وطبقته فى صورة صريحة قاطعة عام 1967. لقد كانت قوة الجانب العربى عنصر الإحاطة والحصار، حيث كانت الجبهات العربية ثلاثا؛ ولو أن هذه الجبهات كانت تمثل درجة معينة من التناسق، لاستطاعت أن تمزق إسرائيل، يكفى بذلك الخصوص هجوم قوى فى الشمال والشرق، يفرض على القوات الإسرائيلية تثبيتها فى الجبهتين، مما يسمح للقوات المصرية اختراق صحراء النقب وشطر إسرائيل إلى قسمين، ثم يعقب ذلك اختراق آخر، عقب تثبيت القوات الإسرائيلية فى الجبهة الجنوبية، والأخرى الشمالية من الضفة حتى القدس، فالبحر المتوسط الذى يعنى تجزئة إسرائيل إلى ثلاثة أقسام، ثم الدق على كل قسم منها على حدة لمواجهة ذلك. **نجد إسرائيل قررت الحرب الخاطفة المجهضة، واستطاعت أن تخلق الاضطراب المخيف فى الجبهة المصرية، ثم عقب أن قضت على كل إرادة للتحدى فى الجيش المصرى، استدارت للجبهات الأخرى، ولعل هذا يؤكد مرة أخرى نقص الفكر الاستراتيجى العربى، بما فى ذلك المصرى، الذى لايزال يعيش حالة استرخاء مخيفة ومحزنة.**

رابعاً: وأخيراً عملية تضخيم مبالغ فيها بقدر الإمكان، ولو من خلال الحرب النفسية التى تتجه إلى العدو المقاتل، المجتمع العربى كأى مجتمع آخر ممتلىء بنواحى النقص، ولكن هل هى قاتلة؟ هل فقط هذا المجتمع هو الممتلىء بالنقائص.

الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية استطاعت بدهاء، لايمكن التشكيك فى عمقه وقدراته - أن تكشف هذه النواحى وتتعامل معها بفاعلية، لانستطيع أن نشكك فى نجاحها، ولنتذكر على سبيل المثال **سلاح المخدرات**. فالمجتمع المصرى عرف نوعا معينا من المخدرات، وتعامل معه خلال فترة طويلة من تاريخه ولكنه عرف نوعية ليست خطيرة ، وهى منتشرة فى طبقات معينة وفئات محددة تتميز بأنها منغلقة اجتماعياً. إسرائيل فهمت ذلك ومدى ما يستطيع أن يقدمه لها من إمكانيات، وخلال فترة لم تتجاوز عشرة أعوام، أحالت مصر إلى مجتمع يعيش وينهل من هذا النبع(*) فى أسوأ نماذجه وأكثرها خطورة.

هذه المبادئ تسيطر على الفكر العسكرى الاستراتيجى الإسرائيلى، كيف يتم ذلك بصدد الأسلحة الثلاث التى سبق وحددنا خصائصها؟

هذا هو السؤال الذى نتصدى له فى هذه الصفحات.

القلق فى الفكر العسكرى الإسرائيلى والسلاح الصاروخى العربى:

هذا السلاح هو مصدر ذعر حقيقى فى الفكر العسكرى الإسرائيلى، أحد أهم بنود القلق فى الإدراك القتالى اليهودى، هو السلاح الصاروخى. لقد سبق أن رأينا أن ميلاد المجتمع الجماهيرى، بمعنى الأمة المقاتلة، هو العنصر الثانى. وكلاهما يرتبط بالآخر. والفكر العسكرى الإسرائيلى لذلك يَعُد عُدته لمواجهة كلا المتغيرين بديناميكية معينة. الأول هو الذى يعنينا مؤقتاً.

والأسباب التى تخلق ذلك القلق وتفرض المواجهة عديدة:

أولاً: فإسرائيل دولة صغيرة محدودة المساحة، ومن ثم فإن هجوماً صاروخياً منسقا وبصفة خاصة. من الأردن وسوريا، تساندهما مصر والعراق والسعودية بالصواريخ المتوسطة والبعيدة المدى، يستطيع أن يصيب جميع القواعد الاستراتيجية فى إسرائيل دفعة واحدة.

ثانياً: وسكان إسرائيل يقيمون فى مثلث محدود بين القدس وتل أبيب، ويافا، حيث - أيضاً - جميع القدرات الصناعية للدولة تقريبا تتواجد قرب هذا المثلث بكثافة معينة يعنى القضاء فى عناصر التماسك المدنى، فضلا عن سهولة تدمير جميع مرافق الحياة المدنية والصناعية التى تمثل الحائط الذى يجب أن يستند إليه القطاع العسكرى.

ثالثاً: توفر السلاح الصاروخى بكثرة لدى الدول العربية المجاورة، يسمح لهذه الدول

(*) البانجو.. وزراعته.

بالقيام بهجوم ساحق مجهض، الأمر الذى يجعل إسرائيل تدخل الحرب وهى قد فقدت مقدماً جميع عناصر قوتها، خصوصا فيما يتعلق بالتعبئة؛ لأن إسرائيل تعتمد على جيشها الاحتياطى، وهجوم مُركّز ومنسق صاروخى سوف يؤخر. إن لم يعطل عملية التجميع لقواتها العسكرية، وهذه فى ذاتها ضربة قاتلة بالنسبة للأداة المقاتلة الإسرائيلية.

رابعاً: بل إن هجوماً بهذا المعنى، يمكن أن يقطع كل علاقات إسرائيل بالخارج، ونحن نعلم أن أى خطة دفاعية لإسرائيل، لابد وأن تستند إلى سهولة الاتصال من خلال موانئها بشرق البحر المتوسط، هجوم مُركّز على تلك الموانئ سوف يفرض على إسرائيل نوعاً من العزلة القاتلة.

بطبيعة الحال لايكفى الهجوم الصاروخى بذلك الخصوص، ولكنه كما سوف نرى فيما بعد فى تخطيط المعركة القتالية، فإن هذا يصير العنصر الأساسى الذى يجب أن يأتى فيكمله سلاح الضفادع البشرية.

ولكن هذا موضوع آخر، أضف أيضا ما تسمح به الانتفاضة من إمكانيات الناحية التى يجب أن نؤكد عليها، هو الدور الخطير الذى يستطيع أن يلعبه الصاروخ فى هذا الهجوم المحتمل، كذلك يجب أن نلاحظ خطورة مثل هذه العملية، سواء على تموين إسرائيل بالسلاح أثناء الحرب، أو على علاقة المساندة من جانب الأسطول السادس الأمريكى فى البحر الأبيض المتوسط، لو استخدم مثل هذا السلاح من منطلق هذا التصور أثناء حرب أكتوبر، لما كانت إسرائيل استطاعت أن تنقذ نفسها من الضربة القاتلة التى أصابتها على ضفاف قناة السويس.

خامساً: وأخيرا فإن موقف إسرائيل بسبب مشكلتها الديموجرافية حساس، من حيث الخسائر البشرية، والذى نعلمه من خبرة حرب الخليج، أن كل صاروخ يقتل فى المتوسط من (خمسة عشر إلى عشرين شخصاً) ودون استخدام سواء السلاح الكيميائى أو السلاح البيولوجى، وهذا يعنى أن ألف صاروخ من الجانب العربى سوف يقضى على عشرين ألف إسرائيلى دون الأخذ بالاعتبار أن إسرائيل تتمركز كثافتها السكانية فى بقعة محدوده وضيقة، الأمر الذى يزيد من احتمالات الخسارة على الأقل بنسبة 50٪، ومن ثم فإن عدد القتلى فى هجمة واحدة مكثفة يمكن أن يصل إلى (ثلاثين ألف مستوطن) باستخدام فقط السلاح الصاروخى من جانب الدول المحيطة بإسرائيل، أى سوريا والأردن ومصر ونحن نتحدث فقط عن الصاروخ القصير المدى، وهذا يعنى أن استخدام هذا السلاح ضد إسرائيل سوف يعرضها لخسائر لا حصر لها، ربع هذا القدر من القتلى أكبر مما خسرته إسرائيل فى جميع حروبها منذ إنشائها حتى اليوم.

الصواريخ .. والديموجرافيا:

هذا السلاح الصاروخي يملك مزايا أخرى، ترتبط بالمشكلة الديموجرافية في إسرائيل:

1 – فمن الممكن أن تتم هذه العملية خلال عدة أيام قليلة، بل وخلال عدة ساعات متتالية، لو تم توزيع المصاطب المعدة لإطلاق الصواريخ. إن خمسين مصطبة قادرة على أن تُطلِق بمعدل عشرة صواريخ يومياً، أي عشرين صاروخاً خلال يومين، ومن ثم فهي قادرة على إطلاق ألف صاروخ في فترة لن تتجاوز (**خمسين ساعة**)، المصاطب المعدة لإطلاق الصواريخ القصيرة المدى، كما سبق وذكرنا يمكن تنقلها بسهولة من موقع إلى آخر عقب إطلاق الصاروخ مباشرة، الأمر الذي يجعل من رد الفعل من الجانب الإسرائيلي أمراً محدود الفاعلية، فلنتصور ما يمكن أن يترتب على مثل ذلك الهجوم من فوضى في داخل إسرائيل أيضاً بخصوص الإسعافات الطبيعة السريعة.

2 – مثل هذا الهجوم يصير كارثة حقيقية، خصوصا لو اقترن بهذا الهجوم المكثف بالصاروخ القصير المدى، هجوم آخر ولو بعدد محدود بالصواريخ البعيدة المدى من جانب – على الأقل – العراق دون الحديث عن إمكانيات السعودية ومصر.

3 – وعلينا أن نتذكر أن السلاح الصاروخي لايتضمن قتالا مباشراً، أي بين طرفين متماسكين وجهاً لوجه، وهكذا فإن السلاح الصاروخي يسمح بتجاوز هوة التفوق البشري الإسرائيلي حتى إن وجدت ومهما وجدت.

4 – كذلك فإن السلاح الصاروخي يصيب الهدف المتجه إليه دون أن يعرض المصدر له بأية نتائج مباشرة، إلا إذا حدث تبادل لإطلاق الصواريخ، وفي هذه الحالة نلحظ أيضاً كيف أن إسرائيل سوف تصير في موقف الضعف لسببين، من جانب بسبب حدودها التي تتميز بقصرها. ومن جانب آخر بسبب الكم البشري في مواجهة الدول العربية المحيطة بها. بمعنى آخر فإطلاق كم متساو من الصواريخ من الجانبين لن يُحدث آثاراً متساوية. لتستطيع إسرائيل أن تصل إلى إحداث نفس الآثار في الجانب الغربي، من حيث التدمير والقتل، وخلق الارتباك في الأداة القاتلة، فهي في حاجة إلى إطلاق عدد يمثل ثلاثة أمثال العدد من الصواريخ الذي تطلقه الدول العربية.

السلاح الصاروخي ونتائج انتشاره في العالم العربي والفكر العسكري الإسرائيلي:

انتشار السلاح الصاروخي لدى الدول العربية وتدعيمها بأسلحة أخرى جانبية تقوى من فاعلية السلاح الصاروخي، كالقنابل العنقودية أو الرؤوس المحملة بالقنابل الجرثومية، أو الكيماوية هو عنصر القوة الحقيقي في الجانب العربي، وهو موضع التفكير المستمر في

الإدراك الإسرائيلى. وقد استطاعت الدبلوماسية الصهيونية أن تضع من حيث الواقع قيوداً حقيقية على إمكانيات التعاون مع الدول المتقدمة والصناعية، بشأن التعاون مع الدول العربية بخصوص الحصول على هذا السلاح أو تصنيعه محلياً.

ورغم أن الدول العربية تجاوزت هذا الحصار، بالالتجاء إلى بعض دول العالم الثالث المتقدمة فى هذه الصناعة، مستغلة حاجة هذه الدول إلى السيولة النقدية، ورغم أن الاتحاد السوفيتى قدم بدوره بعض المساعدات الجادة فى هذا النطاق.

إلا أن مستوى السلاح الصاروخى الذى تحصل عليه إسرائيل أو تُصنّعه أكثر قدرة وأكثر كفاءة من مستوى السلاح الصاروخى المتوفر لدى أغلب الدول العربية.

ولكن هذا لايكفى إسرائيل، ففى حرب مفاجئة من الجانب العربى، هذا العنصر للتفوق لن تكون له قيمة، موضع تأثيره الحقيقى لو حصلت حرب يتبادل فيه الطرفان التعامل الصاروخى دون مفاجئة بالقتال من الجانب العربى.

على أن الفكر العسكرى الإسرائيلى لايقف عند هذا الحد. إنه يضع لنفسه مجموعة من الخيارات كل منها يملك خصائصه:

1 - أول هذه الخيارات اتخاذ إجراءات جدية محورها الحقيقى تدمير بطاريات الصواريخ العربية، هو ما سبق وأعلنه الجانب الإسرائيلى، بتهديد صريح واضح مع المملكة العربية السعودية، ويقال: إن الولايات المتحدة هى التى تدخلت بحزم فى واجهة هذا التهديد. على أن هذا الإجراء الذى قد يبدو لأول وهلة سهل التنفيذ، يفترض معلومات دقيقة من جانب، وعمليات عسكرية ومتعددة من جانب آخر، بما فى ذلك عمليات إنزال وما تعنيه من استعادة القوات التى أنزلت حتى تضمن إسرائيل نجاحها تدمير مفاعل نووى أسهل بكثير، فضلاً عن أن نتائجه حاسمة أما بالنسبة للصواريخ، فكما سبق وذكرنا فهى تتميز بأنها متنقلة يسهل إخفاؤها، فضلا عن أن انتشارها يثير مشاكل أخرى.

2 - كذلك إن الفكر العسكرى الإسرائيلى، تصور إمكانية القيام بهجمات مكثفة ضد الأهداف الاقتصادية والصناعية العربية، هذا الإجراء أكثر سهولة، ولكنه أفدحها من حيث النتائج، لأنه من حيث جوهره يعنى حربا مجهضة وبعبارة أخرى، لايمكن فصله عن عملية شن قتال واسع النطاق مع الدول العربية التى تمثل خط الهجوم المحاصر لـ «إسرائيل».

إسرائيل تستعد لمثل هذه الحرب ولكنها تعلم أن هذه الحرب أيضا فى حاجة لإعداد معين، بالنسبة للإطار الدولى الإقليمى والداخلى، وهو أمر لم يكتمل بعد، وفى حاجة إلى فترة معينة وبصفة خاصة بسبب الاضطراب الداخلى فى الدولة العبرية.

3 - تنظيم دفاع مدنى شامل لحماية السكان، وهو أمر مهما تقدم فلا يمكن أن يحقق

سوى أهداف جزئية، فهو لم يمنع من احتمالات التدمير، ولن يمنع من قتل من يصاب من جانب الصواريخ، وتدمير ما يقع فى دائرة تلك الصواريخ، كل ما يمكن أن يحدث هو الحماية من السلاح الكيميائى والجرثومى من جانب، وتقوية إرادة المواجهة من جانب آخر.

4 – تطوير صاروخ مضاد للصواريخ، وهذا هو السلاح الحقيقى الذى يمثل المحور الذى تدور حوله نظرية القتال فى الإدراك العسكرى الإسرائيلى. كيف؟

عملية تطوير نظام «إسرائيلى» مضاد للصواريخ العربية:

الصاروخ الذى علا فى الفترة الأخيرة فى تل أبيب، والذى تجاوبت معه واشنطن، والذى انتهى بالقبض على مصريين بتهمة التجسس، والحصول على معلومات، ومواد استراتيجية ترتبط بتصنيع الصواريخ، وأعقبها التخلص من وزير الدفاع المصرى، لايمنع من أن إسرائيل هى التى أدخلت السلاح الصاروخى فى المنطقة، وأنها هى التى تتعاون مع الصين فى تطوير هذا السلاح، والتى قد يصير فى المعركة القادمة بين العرب وإسرائيل هو السلاح الحاسم، والذى قد يغير جذريا من خريطة الصراع الدولى فى منطقة الشرق الأوسط.

فلنتابع تطور السياسة الإسرائيلية بصدد السلاح الصاروخى:

أ – فإسرائيل هى التى أدخلت الصواريخ فى المنطقة، فرغم المزاعم التى خرجت من القاهرة لم تستطع مصر أن تحيل برنامجها الصاروخى إلى حقيقة فعالة فى الاتجاه إلى التسلح الصاروخى، كما أثبتت الأحداث على أنه سلاح الغد، فإنه لم يثبت فعالية حقيقية فيما يتعلق باختيار القائمين على المشروع.

إسرائيل على العكس ومنذ عام 1968 كانت تملك فعلاً صاروخاً [أريحا – 1] الذى تم تصميمه **وتنفيذه بتعاون سرى مع فرنسا**، وبينما كان ديجول يعلن فى مايو 1967 أن من يبدأ الحرب لن يكون إلا موضع نقد وتأنيب من باريس، وأوقع بذلك جمال عبد الناصر فى الخديعة التى كلفت مصر غالياً، كانت **جميع السلطات الفرنسية تعمل بجد ودأب، لتمكن تل أبيب من أن تملك أقوى سلاح فى الترسانة الإسرائيلية.** هذا الصاروخ [أريحا – 1] هو صاروخ متوسط المدى، يبلغ مرمى إصابته إلى ما يقرب من (أربعمائة كيلو متراً) عقب ذلك بعدة أعوام، وقبل حرب أكتوبر كانت إسرائيل قد حصلت من الولايات المتحدة على صواريخ [لانس] التى تصل إلى (130 كيلو متراً) وقد استخدمت الصواريخ فى حرب أكتوبر على نطاق ضيق، على أن مصر كانت تملك بدورها عدداً محدوداً جداً من الصواريخ (بحر – بحر) وقد استخدمت أحدها فى تدمير الباخرة إيلات، والواقع أن إسرائيل فى تلك الفترة بدورها كانت قد بدأت تكثف تجاربها على هذا النوع من الصواريخ (بحر – بحر) عقب خبرة المدمرة إيلات، ولتستطيع بها تعويض النقص الواضح

فى الأسطول البحرى الإسرائيلى خلال تلك الفترة، فإن التعاون بين إسرائيل وكثير من دول العالم الثالث فى هذا النطاق كان مكثفاً، فهى تتعاون على قدم وساق مع إيران وتايوان دون أن ننسي دولة اتحاد جنوب إفريقيا، على أن التعاون برز عقب ذلك مع الصين والواقع أنه رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية بين بكين وتل أبيب، فإن الجانبين قد أقاما شبكة حقيقية للتعاون الفعلى منذ منتصف الثمانينات، فى نواح عديدة منها - على وجه الخصوص - السلاح الصاروخى كان للطرفين أهدافها. الصين ترى أن هذا التعاون بابا خلفيا للحصول على التقنية الأمريكية، وتل أبيب تعتبر هذا مصدراً أساسياً للحصول على مزيد من القدرة الاقتصادية، هذا التعاون هو الذى أنتج الصاروخ، [أريحا - 2] والذى أطلقته إسرائيل فى يوليه 1987 وقد أثار هذا الصاروخ عدة ردود فعل يجب تسجيلها:

1 - أول ما أثاره أنه يصل من حيث مداه إلى **(ألف ميل)** أى أنه يغطى جميع دول المواجهة العربية.، بل ويصل ليس فقط إلى طهران، بل كذلك إلى جنوب الاتحاد السوفيتى.

2 - إن هذا الصاروخ أُنفق عليه من جانب إيران، **وتم بالتعاون مع الصين، وبعلم بل وتشجيع من جانب الولايات المتحدة.**

3 - إن أول من شَعُر بالقلق نتيجة لهذا الصاروخ هو الاتحاد السوفيتى، بل وعلقت على ذلك الدوائر المسؤولة بلغة وعبارات صريحة وقاسية.

4 - إنه ارتبط بهذا الصاروخ حدثان، كلاهما يجب أن يكون موضع تساؤل:

أولاً: وهو الاتفاق بين واشنطن وموسكو على إلغاء إنتاج الصواريخ متوسطة المدى، وهذا الصاروخ يدخل فى هذه الدائرة.

ثانياً: وهو امتناع موسكو عن تزويد كل من دمشق وبغداد بصواريخ [اس - اس 23] المتقدمة والدقيقة التى تعهدت موسكو بوقف إنتاجها.

ب - فى هذا الإطار وتحت تأثير الأحداث والتوقعات السابق ذكرها فى المنطقة العربية، برزت نظرية الأمن القومى الإسرائيلى، فى بُعْدٍ جديد، ففى صياغتها المعاصرة فى بنيانها العسكرى، تبنت القيادات الإسرائيلية القول بأن انتشار الأسلحة الصاروخية والكيماوية المتطورة فى الدول العربية، أضحت تمثل خطراً استراتيجياً يجب التعامل معه بجدية وحذر.

أسباب ذلك فى الفكر العسكرى الإسرائيلى عديدة:

أولاً: أن السلاح الصاروخى سلاح هجومى.

ثانياً: أن السلاح الصاروخى يمكن أن يهدد الخيار النووى الإسرائيلى.

ثالثاً: أن هذا السلاح خطر مستقبلاً على القوات الأمريكية المرابطة، أو التى يمكن أن تتواجد فى منطقة الشرق الأوسط.

وهذا أوجد التلاحم بين نظرية الحرب الإسرائيلية، ومفهوم الأمن القومى الأمريكى.

جـ – هذه المقدمات هى التى قادت إلى طرح موضوع تطوير نظام إسرائيلى مضاد للصواريخ.

ما معنى ذلك:

معنى ذلك: بناء نظام يستطيع أن يصطادالصاروخ وهو فى طريقه إلى الهدف، فيقضى عليه قبل أن يصل إلى مرماه بفترة ومسافة كافية، هذا النظام الذى استطاعت تل أبيب أن تُقْنع واشنطن بجدواه، لايزال فى حيز الدراسة، ولكنه من المتوقع أن يصير فاعلاً فى القريب العاجل، فهو أولا كان موضوع تفاوض بين الطرفين الأمريكى والإسرائيلى، وقد تعهدت الولايات المتحدة أن تتولى الإنفاق عليه فى حدود 80٪ من تكاليفه، بل واعتبرته جزءاً من ذلك الذى يُسمى «مبادرة الدفاع الاستراتيجى» والثابت أن إسرائيل تعمل فى نطاق هذا الموضوع من حيث الأبحاث المكثفة منذ عام 1983 عندما حصلت سوريا على بعض الصواريخ السوفيتية [اس – اس 21] وهى المعروفة بدقة تصويبها، وهناك تعاون بين إسرائيل وحلف الأطلنطى بهذا الخصوص، بل وعلى درجة عالية من التقدم.

مزايا هذا النظام مزدوجة:

أولاً: إنه يستطيع اصطياد أو بعبارة أخرى أكثر دقة اعتراض أى صاروخ فى حدود (مائة ميل).

ثانياً: إنه قادر على إطلاق وقذف نوع معين من الذرات فى اتجاه الصاروخ بحيث يعطل رؤوسها الحربية قبل أن تصل إلى الهدف.

وهناك من يتحدث عن إمكانية هذا النظام، فى تفجير الصاروخ، أثناء انطلاقه وهو فى الجو على بعد معين من محطة إطلاقه، وفى حدود مكانية معينة، وهذا يعنى أنه يقلب الموازين، بحيث تصير المزايا التى يقدمها الصاروخ لمن يطلقه وبالا عليه، بمعنى أنه قد يسمح بتفجير الصاروخ فى نفس الأرض المعادية التى انطلق منها، رغم ذلك فيجب أن نسجل ملاحظتين.

الملاحظة الأولى: أن كل ما يقال عن تطوير صارخ مضاد لايزال فى حيز الأسرار التى لم تكشف عنها الكتابات المتخصصة.

الملاحظة الثانية: أن هذا التطور فى بناء نظام يسمح باصطياد الصواريخ أثناء

عبورها الجو الإقليمى، محدود الفاعلية، إن لم يكن لا فاعلية له بالنسبة للصواريخ القصيرة المدى بسبب قصر الفترة التى تمضى بين إطلاقه وإصابته للهدف المقصود، ومن ثم فإنه لا يزال الاختلال لصالح القدرة العربية قائم ولو فى حدود معينة.

المعركة القادمة وملامحها الأساسية من الجانب الإسرائيلى:

والخلاصة: إن ملامح المعركة القادمة التى يجب أن تشنها إسرائيل على الجانب العربى تتميز بالخصائص التالية:

أولاً: سوف **تكون حربا هجومية مفاجئة سريعة**، بحيث يستطيع الجانب العربى أن يتمتع بميزته، بفضل السلاح الصاروخى وبحيث فى وثبة خاطفة تستطيع تدمير هذه الصواريخ أو على الأقل جزء كثير منها، وبصفة خاصة الصواريخ البعيدة والمتوسطة المدى.

ثانياً: سوف تستخدم السلاح الكيميائى والجرثومى فى خلق الفوضى والقضاء على الإرادة المقاتلة بالنسبة للدول المحيطة بـ «إسرائيل» مباشرة وعلى وجه التحديد سوريا والأردن ولبنان ومصر.

ثالثاً: وسوف تستخدم القنبلة النووية التكتيكية، فيما هو أبعد من ذلك - وبصفة خاصة لإصابة أربعة أهداف أساسية فى العراق، منطقة الموصل وفى الخليج مضيق هرمز وفى وادى النيل السد العالى وفى ليبيا منطقة طرابلس.

تفصيل ذلك فى حاجة إلى تحليل أكثر تفصيلاً من مجرد التعامل مع الاستراتيجية القتالية، على أننا قبل أن نتناول ذلك، علينا أن نتساءل ومتى تفكر إسرائيل فى تحقيق مثل هذه الخطة؟ سؤال آخر لابد وأن يقودنا إلى السلاح الرابع والذى تحتويه الترسانة الإسرائيلية وهو السلاح البحرى.»

الفصل الرابع (*)

كيف تفكر إسرائيل

الإسلام .. وعملية تخريب الوطن العربى

(*) هذا الفصل يعتبر بمثابة خاتمة.

الفصل الرابع

المبحث الرئيسى:(*)

الإسلام .. وعملية تخريب الوطن العربى

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

«الاستراتيجية الإسرائيلية التى نعيش أحداثها، والتى قد بدأت تتضح معالمها منذ قرابة خمسة أعوام تقوم على ثلاثة أعمدة أساسية:

الأول: وهو إنهاك الجسد العربى، وتحويله إلى كيان مهلهل، بحيث لا يستطيع أى مقاومة إزاء أول ضربة يصاب بها.

الثانى: النظرة إلى منطقة الشرق الأوسط نظرة كلية شاملة بأكثر من معنى واحد. من جانب فهى لن تعمد إلى تحطيم فقط الدول المجاورة للكيان الصهيونى، بل سوف تجعل دول هذه المنطقة مسرحاً لعملياتها. و«الثانى» أنها لن تنسى ولو فى بُعد معيّن الدول الشرق أوسطية غير العربية، سواء بمعنى تطويعها أو تمزيقها.

الثالث: أنها سوف توظف تحركها فى المنطقة لخدمة القوى العظمى بشكل أو بآخر، بطبيعة الحال محورها الحقيقي فى هذه القوى العظمى هو الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها عن طريق الولايات المتحدة تُدخِل فى مسرح عملياتها جميع أجزاء البحر المتوسط حتى جبل طارق. ومن جانب آخر فهى تجعل أحد أهدافها أيضاً تطويع أو استغلال السياسة السوفيتية الجديدة.

علينا أن نتذكر ونحن نحاول أن نفهم الإدراك الإسرائيلى بالنسبة للمستقبل: أن نتذكر مجموعة من الحقائق:

أولاً: أن إسرائيل تقف خلفها القوى الصهيونية، وهى لذلك تملك قوة دولية حقيقية من

(*) هذا الفصل يعتبر بمثابة الخاتمة للكتاب لأن فيه الكفاية.

جانب وتراث من الخبرة والتعامل الدبلوماسى.

والصهيونية ليست مجرد مذهب سياسى، إنها أيضاً قوة دولية تملك أدواتها العلنية والخفية، وبصفة خاصة تملك قدراتها فى التسلل إلى مراكز صنع القرار الدولى.

يجب أن نتذكر أن هناك تحالفاً فعلياً مع:

أ – الشركات الكبرى المتعددة الجنسية.

ب – المنظمات الدولية غير الحكومية.

جـ – قوى التأثير الخفية وبصفة خاصة الحركة الماسونية.

هذه القوى والأدوات جميعها تعمل بتوافق كامل، ومن بين عناصر تعاملها مساندة الحركة الصهيونية التى لن تخدم سوى إسرائيل فى مواجهة هذه القوى يقع العالم العربى وحيداً ضعيفاً عاجزاً. وما هو أخطر من ذلك أنه لم يفهم حتى الآن حقيقة وقدرة هذه القوى. خطورة هذه **القوى الخفية أنها استطاعت أن تضع لها فى كل دولة عربية بؤرة من أشخاص يدينون لها بالولاء، ويعملون بحنكة وحذر لحسابها، ومنهم الوزراء الذين تولوا صياغة سياسة بعض هذه الدول**، لانريد أن نكشف أسماء ولكن هذه القوى وبصفة خاصة المنظمات الدولية غير الحكومية. وبصفة خاصة منظمة «الباجواش» الماسونية وهى التى استطاعت أن تطوع إرادة الحاكم المصرى وتوجهه نحو سياسة «كامب ديفيد».

ثانياً: إن الوثائق التى نُشرت خلال الثمانينات، كشفت عن قوة دولية أخرى مستترة خلف المصالح الرأسمالية، أو ما يسمى القوة الاقتصادية، التى تكونت خلال الفترة اللاحقة **للحرب العالمية الثانية**. هذه القوى يكتفى البعض بتسميتها **الاتجاه المحافظ الجديد**.

الجاسوس الأسبانى (كونزاليز ماتا) الذى نُشرت وثيقته الخطيرة عقب وفاته، وبناء على تعليماته الصارمة بضمان «**الأسياد الحقيقيين للعالم، يحدثنا عن ذلك التنظيم الذى يحمل اسم نادى «بليدبيرج» الذى أحد مهامه خلق القيادات ودفعها إلى مواقع السلطة حيث تصير أدواته الثابتة لتحقيق أهدافه**. ليس موضوع دراستنا تحليل الأدوات المختلفة والتى يُعدها لنا الجاسوس المذكور، الذى عمل طويلاً لحساب وكالة المخابرات الأمريكية ابتداء من القتل واستخدام النساء، ولكن الذى يعنينا على وجه الخصوص:

أ – إن أحد أدوات هذه المنظمة هو خلق الرجال الجدد، ودفعهم إلى مواقع القيادة، ومن ثم التحكم فى توجيه العالم عن طريقهم، ورغم أن الكاتب يكشف عن معلوماته بخصوص أوربا والولايات المتحدة، إلا أن هذه المعلومات وحدها تكفى لتصور إمكانية إخضاع العالم الثالث، وبصفة خاصة العالم العربى إلى نفس المنهاجية.

ولنتذكر أنه فى الصفحة الثانية عشرة من وثيقته المذكورة، يذكر من بين الأسماء أشخاص مثل «رايموند بار» رئيس وزراء فرنسا، و«جيمى كارتر» رئيس الولايات المتحدة.

ب – إن فلسفة هذه المنظمات تدور حول ثلاثة عناصر:

إفقار الشعوب من جانب، وتجويعها من جانب آخر، وتشجيع ونشر الفساد والإفساد فى الإدارة الحاكمة من جانب أخير. وهى أمور جميعها تغمر كما نرى بوضوح العالم العربى.

جـ – إن هذه المنظمات وتوابعها، مترابطة بطريقة واضحة مع الصهيونية العالمية وأدواتها.

ثالثاً: وتبرز فى الفترة الأخيرة ظاهرة «الإرهاب الدولى». ليس الذى يعنينا بهذا الخصوص، الحوادث الفردية لقتل زعيم، أو خطف طائرة. ولكن الموضوع يطرحه الفقيه المتخصص بإلحاح:

هل توجد قيادة دولية فى أحد بقاع المعمورة تتولى توجيه تلك العمليات ودون علم نفس المنظمات الإرهابية، التى تقوم بالتنفيذ الفعلى؟ الافتراضات مختلفة.. ومتباينة.. وأصابع الاتهام تتجه إلى أكثر من موقع واحد، ولكن الأمر الذى لاخلاف فيه، أن تل أبيب تلعب فى هذه العملية دوراً هاماً وخطيراً، بل ومستقلا عن القوى الدولية الكبرى، وهى ترسم لنفسها خطاً متميزاً. وبطبيعة الحال، لايجوز لنا أن نغفل عن القوة الصهيونية بأن نبالغ فى فاعليتها، لكننا يجب أن نعترف بواقعية بمدى نجاحها فى هذا المجال.

جميع هذه الحقائق يجب أن تكون واضحةً فى الذهن، ونحن نطرح **موضوع «الإسلام» وتوظيفه فى تحطيم التماسك العربى وإفساد القوة العربية**.. فلنتابع الموضوع من منطلقاته الحقيقية.

الإسلام.. والصراع القومى:

أول ما يجب أن يُلفت النظر حقيقة العلاقة بين الإسلام والتخريب الذاتى، والداخلى للمجتمع العربى.

استخدام الإسلام كورقة فاعلة فى الإرباك المحلى، وتعميق التناقضات الفكرية، والمذهبية، موضوع ولابد أن يثير الكثير من الحساسيات، ويجب أن نتعامل معه بهدوء وعقلانية. إن أول ما يجب أن نتذكر أن الاستراتيجية الأمريكية تصورت ولا تزال استخدام الإسلام كأداة فى عملية التصدى للتطور الاشتراكى ولا يخلُف المد الشيوعى أو اليسارى.

الفكرة الأساسية تدور حول أن العداوة للإسلام درجات. وإذا كانت الحضارة الغربية

قد عادت ... وتعادى الإسلام، إلا أن هذه العداوة أقل خطورة من العداوة للشيوعية.. فالشيوعية تعنى الإلحاد **الإسلام والكاثوليكية** كلاهما يعبر عن **أديان سماوية** (1) تقف ضد الإلحاد، وتتخذ منه موقف العداوة الميتة. هذا التحالف ولو فى المواقف يفسر ضرورة أن الإسلام **يجب أن يتحالف مع الدين المسيحى فى حربه الضروس العقائدية ضد رفض العقيدة الإلهية**.

وهكذا يصير الإسلام فى التصور التقليدى الأمريكى أداة حاسمة فى حرب العقائد ضد الشيوعية الدولية.

وقد برز ذلك التصور واضحاً فى الخمسينات، وأثناء وجود «**فوستر دالاس**» مسؤولا عن السياسة الأمريكية.

ولكن ما سبق هذا التصور وما لحقه يختلف اختلافاً كلياً فى عملية توظيف الإسلام فى المنطقة لخدمة القوى الدولية.

أول تصور تاريخى، صورة عكسية، **وهو توظيف القومية العربية لإضعاف الإسلام. سبق وأن رأينا ذلك أثناء الربع الأول من القرن الحالى. وخلال الأعوام الأخيرة من القرن الماضى، عندما حاولت القيادات الغربية وبصفة خاصة البريطانية، إضعاف تماسك الدولة العثمانية**.

فالخلافة الإسلامية التى تتمركز فى القسطنطينية، هى تعبير غير حقيقى عن الانتماء العربى. تدعيم القومية العربية، وتشجيع **القيادات المتعصبة** فى الانتماء العربى، كان لابد وأن يُضعف من علاقة الترابط بين الخلافة الإسلامية والمفهوم العربى للوجود السياسى. برزت فى خلال تلك الفترة فكرة تحويل (**الإمبراطورية العثمانية**) إلى دولة متعددة القوميات، تذكرنا «بسويسرة» حيث تتجمع قوميات ثلاث: فرنسية وإيطالية وألمانية.

بل إن الثورة العرابية فى مصر تلقفت بعض هذه المفاهيم بشىء من السذاجة. ولكن قادة القومية العربية ورغم أنها لم يكن من بينهم أحد على مستوى الفهم الحقيقى لنظريةالقومية، لم يفهموا الخلفيات الحقيقية لهذه الأفكار. وما عدا ذلك سلوك الحركات التركية المتعلقة بإعادة بناء الدولة. الذى يعنينا أن نذكّر به أن العلاقة بين **الإسلام والعروبة** ظهرت ولأول مرة فى إطار غير دقيق خلال هذه الفترة.

(1) حقيقة لايوجد فى الشرع «أديان سماوية» وإنما دين الله واحد فى الأرض وفى السماء. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: 19]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، راجع كتاب «أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء، د. جمال عبد الهادى مسعود وآخرون - دار الوفاء المنصورة ودار طيبة الرياض.

فى أعقاب مجيء عبد الناصر إلى السلطة، وُظفت هذه العلاقة بمعنى عكسى، والواقع أنه فى الستينات وبصفة خاصة تحت تأثير **كلام الناصرية والبعثية**، بدأت تبرز واضحة مفاهيم أساسها الاستقلال الكامل فى العلاقة بين **العروبة والإسلام**، برز هذا الاستقلال إن لم يكن التعاونى والثقافى فى سياسة مصر قبل حرب 1967 وبصفة خاصة مع حركة الإخوان المسلمين. مما لاشك فيه أن أكبر أخطاء عبد الناصر العداوة مع القيادات الإسلامية والتى لن يستطيع المؤرخ أن يغفرها لنظامه، هذه هى العداوة التى وصلت إلى حد الاستئصال، والخروج عن جميع **التقاليد السياسية فى المنطقة**.

ورغم هزيمة حرب 1967 فإن البعثية بدورها سارت فى نفس الطريق، أولاً فى دمشق.. ثم فى بغداد.

حرب الأيام الستة، ورغم أنها أعادت للقيادةالمسؤولة شيئاً من الوعى لم تمنع من أن تعود الأمور إلى سابق عهدها، وتتبلور وبصفة خاصة خلال الأعوام اللاحقة لحرب أكتوبر فى **سياسة صدامية عنيفة** مع الحركات الإسلامية.

الظاهرة نفسها تكررت فى بغداد فى صورة لاتقل عنفاً.

يعنى الروايات تؤكد أن عضو حزب البعث الذى كان «**يدخل المسجد**» يُدرج اسمه فى قائمة خاصة. حرب الخليج أعادت لتلك القيادات وعيها الحقيقى.. ولكنها لاتزال فى مرحلة تخبط .. وتردد.

الصدام بين العروبة والإسلام فى هذه النظم لم يكن سوى صدام بين قوة فى السلطة ضعيفة.. وقوة خارج السلطة قوية، والأولى تحاول أن تقضى على الثانية، لخوفها من أن تسحب منها القيادة يوضح ذلك عناصر ثلاث:

أولاً: **القومية العربية** (1): لم تكن تملك إطاراً فكرياً متكاملاً، يستطيع أن يتصدى للإسلام على أى مستوى من مستويات التعامل الفكرى.

ثانياً: **القناعة المرضية**: بأن العلمانية (2) ضد الدين، وحيث إن العروبة هى حقيقة

---

(1) إن فكرة القومية العربية: هى فكرة خالية من العقيدة، بل من الأيديولوجية، فهى ليست إلا نعرة عصبية فارغة لايقرها الإسلام، تمخضت عن جسد ميت يُدعى «الجامعة العربية»، يحاول البعض - لأغراض خفية - نفث الروح فيه دون جدوى. فكان التسليم لإسرائيل وأطماعها، خطوة خطوة، منذ عام 1947 .. وحتى الآن.

كتاب «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أ.ح.د. فوزى محمد طايل، مصدر سابق ص 316. راجع أيضاً مقالات حامد ربيع فى مجلة الطليعة العربية بفرنسا تحت عنوان [سوف أظل عربياً] المقالات رقم 15، 16، 24.

(2) العلمانية Secularism تعنى اللادينية ولا تعنى العلمانية.

علمانية، فلابد وأن تصطدم بالدين.

ثالثاً: **انتشار فكرة سائدة وثابتة** من أن الدين الإسلامى ضد التحديث. إنه ينتمى إلى الماضى ولن يستطيع بناء الدولة العصرية.

هذان النموذجان من نماذج التعامل من حيث العلاقة بين الإسلام والعروبة، يعكسان استراتيجية واحدة. (**إضعاف الإسلام من خلال العروبة**).

فى التطبيق الأول: اختفت الإمبراطورية العثمانية، وانتهى الطريق بتمزيق تلك الإمبراطورية.

فهذه الإمبراطورية تقوم على الإسلام، والعروبة فى انتماء عنصرى يختلف عن الإسلام. هذا المفهوم نبع أولا فى الأوساط غير الإسلامية العربية، والواقع أن المتتبع لتاريخ الإسلام لايستطيع فى أى مرحلة من مراحله أن يكتشف ذلك التعاون أو التناقض بين المفهومين، كلاهما يكمل الآخر، ويحدد للثانى دائرة معينة، فالعروبة مفهوم حضارى، يمتد تاريخيا قبل الإسلام، ويساير الإسلام عقب ذلك، فهو فى جوهره تعبير عن لغة مسموعة، ترتبط بينبوع أو تميز أدبى. والإسلام هو دعوة دينية نزلت بلسان عربى.. وفى أرض عربية.. ولكنها سرعان ما اتسعت وأضحت عالمية. لم يبرز هذا التعاون الذى يجعل أحدهما ينفى الآخر، أو يصطدم به، ويستقل عنه، إلا مع محاولة تحطيم الإمبراطورية العثمانية، فهى حقيقة إسلامية، ولكنها ترفض[1] العروبة. بهذا المعنى (الأقليات الغير إسلامية تشعر بذاتها فى إطار العروبة)، ولكنها تجد نفسها فى مرتبة ثالثة فى نموذج التعامل الإسلامى.

فى التطبيق الثانى: انتهى العالم العربى بالهزيمة المنكرة فى حرب 1967، كانت هناك قوى إسلامية تتمنى للنظام الناصرى الهزيمة، كل من عاصر تلك الفترة يذكر ذلك ويعرفه. على أن أخطر شىء كان يجب أن نسجله هو أن «ناصر» نتيجة سياسته اللا إسلامية دخل حرب يونيو، وقد تخلت جميع القوى التى يمكن أن توصف بأنها إسلامية، والتخلى حدث أولا من حيث الواقع؛ لأن الثلاثين ألف مسلم الذين وضعوا فى السجون، كانوا من حيث الحقيقة هم القوة الحقيقية الضاربة بسبب تاريخها القتالى.

إنها هى القوة التى نازلت البريطانيين فى منطقة القناة، والرأى العام المصرى الحقيقى لم يكن يرى أمامه أملا إلا فى حركة الإخوان المسلمين. وهكذا كانت هذه السياسة المقدمة الحقيقية لإفلاس العروبة السياسية،وإذا كان هذا لم يحدث فى بغداد نتيجة عدم

---

(1) كتاب أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادى وآخرون، ج1، ج2، دار الوفاء المنصورة، لقد كان العثمانيون يُعلّمون أبناء الدولة اللغة العربية جنباً إلى جنب اللغة التركية التى كانت تكتب بالحروف العربية؛ وما ظهر العداء للغة العربية وحروفها إلا بعد الانقلاب العسكرى الماسونى الأتاتوركى الذى ألغى اللغة العربية والتركية التى تكتب بالحروف العربية.

الهزيمة، إلاأنه لاتزال حقيقة الواقع الفكرى المتعلقة بالعلاقة بين العروبة والإسلام تعكس نفس الإفلاس.

الذى يعنينا أن نذكر به: هو أن عدم و ضوح العلاقة بين الإسلام والعروبة لايزال على الواقع السياسى فى منطقة الشرق الأوسط.

محاولة تنظير العلاقة بين الإسلام والعروبة:

أى محاولة حقيقية لتنظير العلاقة بين الإسلام والعروبة لا وجود لها.

المجتمع الشرق أوسطى لم يكن فى حاجة إلى ذلك، عندما كانت العلاقة بين كليهما واضحة تعبر عن تناسق طبيعى، ولكن منذ تسربت بين هذين المفهومين، عناصر التناقض، كان لابد من التصدى لهذه العلاقة، وكان ذلك يفرض حركة مزدوجة: توجه المفكر الإسلامى نحو العروبة يُستَشف من خلالها حقيقة التصور المعاصر، وتوجه المفكر العربى نحو الإسلام يستقى منه قيمه ومثالياته. (هذا لم يحدث).

فالمفكر الإسلامى متقوقع خلف مفاهيم التراث يجترها. والمفكر العربى يتسلى بلغة حضارة عصر النهضة الأوربية، ليخلق منها حائطاً يحميه من الصراع الفكرى مع التيارات الإسلامية.

الواقع: أن المحاولات السطحية التى عرفناها حول تنظير العلاقة بين المفهومين انتهت بتدمير تلك العلاقة.

الأول: أى العروبة.. هى قومية تستمد مصادرها من الأصول العنصرية.

الثانى: أى الإسلام.. هو دعوة عالمية أساسها تصور معين لعلاقة الإنسان بربه، كلاهما يعبر عن حقيقة مختلفة بل ومتعارضة.

ما تعيشه المنطقة العربية هو المفهوم القومى، وليس التصورالدينى. بل إن تعميق المفاهيم يقود إلى إبراز كيف أن كل مفهوم يرفض الآخر.

القومية مفهوم علمانى أولا [حيث ما لقيصر لقيصر، وما لله لله]. لا موقع فى القومية للدين الذى يصيّر حقيقة شخصية تتناول العلاقة بين الشخص وربه، ولا صلة لها بالتعامل المدنى اليومى. السياسة لا صلة لها بالدين، كذلك فإن القومية تقوم على (المجتمع القومى) أى الإقليم الذى يرتبط به شعب معين (1).

---

(1) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «دعوها فإنها منتنة»؛ ويقول صلى الله عليه وسلم: «لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى..»، «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية».

أما الدين الإسلامى: فهو مفهوم يستند إلى عنصر الأمة التى تربطها رابطة معنوية معينة.. ولا تعرف لحدودها أى عناصر إقليمية (1).

منذ البداية يجب أن نلحظ كيف أن هذا تشويه للحقيقة. وليس علينا إلا أن نعود لخصومنا نتلمس منهم الإجابة.

هل الصهيونية تنفى أو تتعارض مع اليهودية؟ لقد سبق أن رأينا أنه قد يختلف عمق العلاقة تبعاً للمذهب الفكرى الذى يمكن أن نستند إليه فى تفسير العلاقة.

فالإشتراكية الصهيونية التى سادت الأوساط الإسرائيلية المسؤولة عن حرب 1967، تجعل من اليهودية مصدراً بين مصادر أربع، ساهمت **فى تشكيل الفكر الصهيونى، الصهيونية اليمينية تجعل من اليهودية الوجه الآخر للصهيونية، أى وجه آخر لحقيقة واحدة.**

الصهيونية من ثم، قد أعادت صياغة اليهودية، فأعطتها وظيفة سياسية وبلورت وظيفتها الحضارية على ضوء حقائق القرن العشرين.

لايعنى هذا أننا نطالب الإسلام بأن يتشبه باليهودية لسبب واقعى وعربى هو أنه ليس فى حاجة إلى ذلك. لكننا نتساءل لماذا حدث هذا التناقض الخطير بين المفهومين؟ بحيث يصير أحدهما وقد نا صب الآخر العداء، وأضحى يقف منه موقف الرفض العنيف، بل والذى وصل إلى حد الاقتتال المسلح، السبب الحقيقى هو أن الأحداث خلقت شرخا بين الاثنين، واستطاعت الحركة الصهيونية ومن قبلها الاستعمارالغربى أن يتسلل عبر هذا الشرخ، ليخلق القطيعة ويثير هذه الزوبعة، التى لا نزال نعيش فى داخلها دون قدرة حقيقية على تخطى متغيراتها.

إن ما يجب أن نتذكره أن الإسلام قوة للعروبة (*). لماذا؟

أسباب ثلاثة يجب أن يُدخلها المفكرون فى اعتبارهم، ويعودوا إلى ما تفرضه من معان ونحن نسعى لتنظير العلاقة بين العروبة والإسلام.

السبب الأول: أن الإسلام يقدم للعروبة نظاماً للقيم، ومن ثم للتعامل اليومى، وهو نظام ليس فقط ينبع من تقاليدنا وتاريخنا، بل هو نظام يمثل تكاملاً ورُقياً حقيقياً فى تاريخ الصراع الحضارى. هذا النظام، بغض النظر عن عناصر قوته - يمثل المتغير المعنوى لكل من ينتمى إلى تلك الحضارة.

---

(1) فإن الإسلام جمع بين محمد العربى وبلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى.

(*) أين كان العرب على خريطة العالم قبل الإسلام؟ عمال يعملون لحساب الفرس أو الروم، يقاتل بعضهم بعضاً. وأحياناً على بكر أخينا إن لم نجد إلا أخانا. وبعد الإسلام صاروا سادة الدنيا، حينما أقاموا حكم الله بعد أن أسقطوا إمبراطوريتى الروم والفرس، حيث كانتا أقوى دول العالم.

وما يعنينا أن نُذَكّر به أن العروبة لم تقدم له بديلاً. إنها حركة سياسية، ترمى إلى أقصى قوتها إلى توحيدمن يتكلم اللغة العربية. ولكن أين نظام القيم الذى تدافع عنه؟ لو نظرنا إلى العالم الغربى، لوجدنا أن المفهوم القومى فى تلك المجتمعات قد تبنى نظامه للقيم المختلفة عن الكاثوليكية، والمتميز عن الدين المسيحى. ولذلك أقبل عليه المواطن الأوربى حيث إن إطاره النفسى، وجد ذلك النظام للقيم قادر على أن يغزوه ويستوعب وجوده المعنوى.

السبب الثانى: إن الإسلام يقدم أيضاً للمجتمع العربى تفسيراً لعلاقات ذلك المجتمع بالعالم الذى يحيط به. ليس فقط بمعنى دول الجوار الجغرافى، التى أيضاً يسودها الإسلام، بل وما هو أبعد من ذلك، حيث نجد التميز الواضح بين كيفية التعامل مع أهل الكتاب وغيرهم ممن يرفضون الدعوة الإلهية، إنه يضع قواعد واضحة وصريحة للتعامل حيث يبرز مفهوم الجهاد بخصائصه الصريحة الناطقة.

السبب الثالث: قوة الإسلام من جانب آخر فى وظيفته الحضارية. وكلمة وظيفة حضارية أكثر اتساعاً مما نتصور. إنها تعنى تصوراً محدوداً لمصير الإنسانية بما ينطوى تحت تلك الكلمة من تفسير للتطور الإنسانى. وهى تعنى كذلك تحديداً للمثالية فى ذلك التصور، ترتفع عن مستوى الحاضر لتربط الماضى بالمستقبل، وهى تعنى أخيراً تحديداً لوظيفة معينة لذلك المجتمع، الذى ينتمى إليه ذلك المفهوم الفكرى.

الإسلام يملك ذلك فى صورة واضحة، ولكن أين العروبة من ذلك؟ إنه دعوة للاستقلال ورفض الاستعمار، الذى أساسه حق تقرير المصير، ثم الاندماج الذى محوره الوحدة. ولكن ما عدا ذلك لا موقع له.

العروبة السياسية: كمذهب وإطار للحركة السياسية ينقصها الكثير، وهى لاتزال تبحث عن فليسوفها العملاق. ويكفى أن نقارن بين قادة الصهيونية كفلسفة قومية (1) وأولئك الذين يمثلون العروبة.

أين «هيرتزل» أو «موسس هس» أو «جابوتنسكى» .. لو اقتصرنا على هذه الأسماء الثلاثة من أولئك الذين تزعموا حتى اليوم المفهوم القومى، لا تعنينا هذه المقارنة إلا لنذكّر بأن الإسلام كإطار فكرى هو قوة للعروبة. ولنتذكر مرة أخرى أن العلاقة بين [الإسلام والعروبة] لم يُقدّر لها بعد الإطار الفكرى المتكامل، كذلك يجب أن نضيف بأن العروبة تكتسب قوة من الإسلام، لو عرفت كيف تُطوِّع مفاهيمها وتصوغ أهدافها وتنظم حركتها على ضوء هذه العلاقة. **ولكن هل سوف يظل هكذا حالنا؟**

---

(1) متى برزت فكرة القومية العربية كبديل للإسلام؟ ومن وراءها؟ وما الهدف منها؟

استخدام الإسلام فى عملية تخريب الجسد العربى:

هذا يقودنا إلى طرح السؤال الذى هو محور هذه الصفحات: كيف استُخدِم الإسلام من جانب الصهيونية المعاصرة والجديدة فى عملية تخريب الجسد العربى؟

* سبق أن رأينا أن هذه العملية أى التخريبية هو الهدف الأساسى من المرحلة السابقة على الصراع المسلح. كذلك رأينا أنه فى الإدراك المعاصر للقيادة الإسرائيلية، فإن عنصر الدين يصير متغيراً أساسياً للتعامل، ومن ثم يصير من الطبيعى استخدام الإسلام ورقة حاسمة فى التعامل: يجب أن يحول هذا العنصر المتغير القادر على أن يخلق التماسك إلى [أداة للتفتيت والتخريب]، بحيث لايحدث فاعلية بل ويكون مصدراً حقيقياً لخلق حالة الشلَلْ فى الجسد العربى.

والمسالك الفكرية بذلك الخصوص أربعة:

أولاً: إذابة القومية العربية فى الدائرة الإسلامية.

ثانياً: تحويل المنطقة إلى أقليات متصارعة من منطلق المفاهيم الدينية السائدة.

ثالثاً: عزل المنطقة العربية عن إطارها الإقليمى المساند.

رابعاً: تشويه الإسلام وإبرازه على أنه مصدر للتخلف (1)، وعدم القدرة على التعامل مع العالم المعاصر.

فلنحاول فهم هذه العناصر الأربع، وكيف تم تطبيقها – وتوظيفها – خلال فترة الأعوام الثمانية الماضية.

أول هذه المسالك يدور حول إذابة العروبة فى الإسلام:

فالإسلام هو الأكثر اتساعاً، والأكثر مدعاة للفخر، والاعتزاز، إن القومية هى تعصب عنصرى، هى استعلاء.

الإسلام هو مساواة، هو تعامل أخلاقى. وهكذا كما حدث باسم القومية أن تم تفتيت الإمبراطورية العثمانية، فباسم الإسلام سوف تتم إذابة المفهوم القومى العربى، وكلاهما

---

(1) وهذا الهدف الذى تساعد وزارة الإعلام عندنا – صحافة – إذاعة – تليفزيون – على تحقيقه.

راجع المسلسلات التليفزيونية التى عُرضت فى رمضان الماضى 1418هـ/ 1997م وبالذات مسلسل «أرابسك».

* راجع كتب «نصر حامد أبو زيد. منها» نقد الخطاب الدينى. سينا للنشر طبعة 1 عام 1992.

* راجع كتب «فرج فودة» منها: «الملعوب» دار مصر الجديدة للنشر طبعة نوفمبر عام 1988.

* راجع كتب «سعيد العشماوى» منها: «الإسلام السياسى» الأهرام للإعلام 1992؛ وكذلك فكر حسنى حنفى وغيرهم كثير.

تعبير عن تعامل مشبوه، وسوء استغلال من جانب القوى المعادية لكلا الإسلام والعروبة. وقد سقط فى هذا المستنقع الكثير من المفكرين فى كلا الجانبين. على أن السؤال الذى يطرحه الفكر الاستراتيجى الإسرائيلى، ورغم أنه يستمد مصادره من هذا الإطار التاريخى إلا أنه مختلف: **هل يمكن استخدام الإسلام أداة من أدوات الإرباك المحلى بحيث يتم ويزداد التخريب الداخلى؟** سوف نرى الإجابة على هذا التساؤل، ولكن المقدمة الحقيقية هى إضعاف قوة العروبة. فإذابة العروبة فى الإسلام يضعف المفهوم القومى واختلاق التناقض بين العروبة والإسلام، لا يقتصر على أن يضعف المفهوم الدينى، بل هو كذلك أداة حاسمة فى إضعاف مفهوم القومية العربية.

دعاة القومية لم يفهموا أنه ليس فى صالحهم، التناقض مع التعاليم الإسلامية.

المسلك الثانى: والذى يستقل استقلالاً تاماً عن المسلك الأول، وإن كان يقود إلى نتيجة واحدة، وهو خلق التناقض بين المفاهيم والقيادات الدينية، مما لاشك فيه أن الخلافات بين التفسيرات الدينية وُجدت فى جميع الشرائع، ولكنها لم تصل إلى حد الصراع المسلح، كما يحدث اليوم على الساحة العربية.

أول تناقض استخدمته الصهيونية هو **بين الإسلام السنى والإسلام الشيعى**، مما لاشك فيه أن التناقض قديم، ويعود إلى أكثر من ثلاثة عشر قرنا. كذلك فإن هذا التناقض ارتبط بقوى سياسية متعددة، ومع ذلك فإن التعايش بين الشيعة والسنة لم ينقطع، وُجِدَت الخلافة السنية فى بغداد مع الخلافة الشيعية(1) فى القاهرة، كذلك فإن الإمبراطورية العثمانية كان سنية، والحكم الإيرانى كان شيعيًا(2)، ورغم ذلك حدود الخلاف لم تكن وصلت إلى حد الصراع المسلح. على الرغم من هذا التناقض(3)، وهذه العداوة أن الشيعة كانت دائماً

---

(1) لم تكن خلافة ولهذا رفض إدراج أسمائهم بين الخلفاء وزعم أن مؤسس دولتهم يهودى مجوسى من سلمية، وإن رفعت شعار الفاطميين. [الطريق إلى بيت المقدس ج1، د. جمال عبد الهادى مسعود، دار الوفاء – المنصورة].

(2) كان هناك اقتتال بين الدولة العثمانية وبين الدولة الصفوية الذين تحالفوا مع البرتغاليين والإيطاليين ضد الخلافة العثمانية وضد العالم الإسلامى. (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أ.د. عبد العزيز الشناوى، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة).

(3) الدولة الشيعية كانت خارجة على الخلافة العباسية، ومناهضة ومقاتلة لها، بل هى التى مزقت العالم الإسلامى إلى كتلتين، ومؤسس الدولة الشيعية قيل – يهودى رافضى، وقيل مجوسى من سُلمية. وفى ظلها حورب أهل السنة والجماعة، وقتل العلماء، وسَبُّ الصحابة على المنابر، وفى ظل حكمهم اغتصبت القدس عام 492هـ، وكان يُدرِّس عقائدهم ابن كلِّس اليهودى فى الجامع الأزهر.

كتاب (الطريق إلى بيت المقدس – د. جمال عبد الهادى، ج1 دار الوفاء ص 60)

ويقول الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ج 12/ 267:الحكام الفاطميون كانوا من أنجس الملوك =

فى موقع القوى المستغلة لصالح الإسلام السنى. أيضاً لم يترتب على ذلك الوضع من عدم احترام مبدأ المساواة، تلك العداوة العنيفة التى عرفناها فقط فى الأعوام الأخيرة. لقد تحول الإسلام الشيعى إلى عدو يسعى إلى تحطيم الإسلام السنى. السبب الحقيقى فى ذلك التطور هو أن هذه (الغزوة الصهيونية) استخدمت لتغذية العداوة عنصرين:

أولهما: المفهوم القومى: لقد أحالت الإسلام السنى إلى عقيدة قومية عربية، والإسلام الشيعى إلى إسلام للقومية الفارسية. ورغم أن هذا يتضمن تشويهاً للحقيقة التاريخية. فإنه وَجَدَ آذاناً صاغية. وبصفة خاصة فى الأرض الإيرانية.

التناقض الثانى: وهو بين الإسلام العربى والإسلام غير العربى. وصف الإسلام بإحدى القوميات أو الأجناس ليس جديداً.

لقد تعود الفقه الفرنسى أن يصف الإسلام فى إفريقيا بأنه (إسلام أسود)، وخرجت علينا التقاليد السوفيتية بوصف الإسلام فى القارة الكبرى (بالإسلام الآسيوى)(1)، ولكن هذا كان يعنى دائماً خلق علاقة إقليمية أكثر منها عنصرية.

الدعاية الصهيونية استغلت ذلك، ووضعت أصولاً للتعامل النفسى أساسه الإسلام العربى، والإسلام غير العربى، وأبرزت الأول على أنه لم يكن سوى استغلال واستعلاء: استغلال لأن القرآن نزل باللغة العربية، واستعلاء لأنه تبرير لسيادة إسلام.. على إسلام. إنه صورة المُتنوع الطبقى الذى يجب وضع حد له.

= سيرة، وأخبثهم سريرة، وظهر فى دولتهم البدع والمنكرات، وكثر الفساد، وقُتِل عندهم الصالحون من العلماء والعُبّاد، ومؤسس دولتهم من أصل يهودى أيضاً، كتاب (تاريخ الخلفاء للسيوطى؛ أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ؛ الطريق إلى بيت المقدس ج1)، بل إنهم - الفاطميين - أرسلوا سفاره إلى معسكر الصليبيين الأوروبيين عند أنطاكية عام 492هـ يعرضون اقتراحاً بتقسيم أملاك السلاجقة المسلمين بالشام بينهم، كتاب ؛ الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج8 / 186 .

والدولة الصفوية كانت شوكة فى حلق الدولة العثمانية، وكانت بينهما منازلات ولا يعنى ذلك أن محاولة رأب الصدع بين السنة والشيعة مستحيلة، بل على العكس إذا صلحت النوايا، وتحاكم الجميع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ولايفوتنا أن نذكر أن اليهود لعبوا على وتر توسيع الشُقّة بين السنة والشيعة منذ عهد عبد الله بن سبأ اليهودى اليمنى، لمزيد من التفاصيل يرجع إلى مؤلفات إحسان إلهى ظهير، وما كتبه الدكتور عبد العزيز الشناوى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، - مكتبة الأنجلو المصرية.

(1) الهدف من إيراد هذه الكلمة هو إشعار القارئ والدارس أن هناك إسلام آسيوى، وإسلام أندلسى، وإسلام عربى، وإسلام فارسى - أى كل على هوان في حين أن الإسلام دين واحد، لايتأثر بالأرض (المكان) بمقدار تأثر المكان به ومن عليه.

التناقض الثالث: ثم جاء تناقض ثالث يفصل ما أسمته العروبة الإسلامية والعروبة غير الإسلامية، محور ذلك التميز بين الأقليات المنتشرة فى المنطقة، والتأكيد على ماضيها العربى المستقل عن الإسلام، والمتعارض مع الإسلام.

أليس الإسلام هو الذى يجعل هؤلاء مواطنين من الدرجة الثانية؟ ونسيت أن هؤلاء عرفوا فى ظل نظام الامتيازات حقوقاً تفوق حقوق العرب والمسلمين. ونسوا أن القومية العربية لم تنبع إلا من صفوفهم، وقد توجهت بهذا الخصوص وبصفة خاصة إلى خمس أقليات، جعلت علاقتها معهم أساسياً، (تفتيت الجسد العربى) وإحلال (الولاء الطائفى) موضع (الولاء القومى). ونسيت هذه الأقليات أنها هى التى دعمت مفهوم العروبة على أنها أداتها لتغطى الانتماء الإسلامى.

هذه الأقليات التى جعلت حوارها مع قياداتها الفُرقة والانفصام، وبناء (الدولة الطائفية) هى:

أ – الأكراد فى شمال العراق.

ب – التوجه المارونى فى لبنان.

جـ – الدروز ما بين سوريا ولبنان.

د– الأقباط فى مصر.

هـ – سكان جنوب السودان.

سياسة إسرائيل فى التعامل مع الأقليات، كانت تسير بأسلوب واحد، أساسه متغيرين أساسيين: تقوية النعرة الطائفية من خلال إبراز التميز العرقى والدينى أو كلاهما **ثم خلق قيادات طائفية وتدريبها فى خارج الوطن العربى** وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية. جمعت هذه القيادات فيما أسمته **المنظمة الدولية للأقليات غير العربية فى منطقة الشرق الأوسط**(1).

ووصلت بهذا الخصوص إلى قمة النجاح، عندما جعلت هذه القيادات الأقليات هى التى تتولى الدعاية **للحركة الصهيونية** فى المجتمع الأمريكى بل الأوربى، وبصفة خاصة فى كندا، أحد هذه الظواهر التى أزعجت الرئيس السادات فى آخر حياته... هى ما صادفه

---

(1) اتخذ الكونجرس الأمريكى هذه المنظمة وغيرها لعمل جلسات استماع عن أوضاع الأقليات غير الإسلامية فى العالم ومنه مصر، ولإتخاذ قرارات بالتدخل فى سياسة الدول لحماية الأقليات المضطهدة. ونسى هؤلاء المجرمون أنهم هم وراء الاضطهاد الذى يتعرض له الإنسان فى العالم كله، الأمريكان السود! مثلاً ، ونسى هؤلاء أنهم الذين أبادوا وشردوا ستين مليون هندى من الأمريكيين أليسوا هم أبناء أوروبا؟ أجداد الأمريكان الحاليين.

من معارضة منظمة فى أثناء زيارته للولايات المتحدة من جانب القيادات القبطية المستقرة فى أمريكا الشمالية.

المسلك الثالث: وهو تشويه الدين الإسلامي، وبصفة خاصة فى الرأى العام الغربى، والأوربى والأمريكي. فالإدراك الإسرائيلي على وعى بأن - الإسلام - قوة، وهو القوة الوحيدة القادرة على التصدى للصهيونية، وبصفة خاصة لو تحققت عناصر معينة:

تجديد .. وتنظيم .. وقيادة وهى تعلم أن الرأى العام الأوربى والغربى بصفة عامة أكثر تعاطفاً مع الحركات القيادات الأوربية، بدأت منذ عدة أعوام قليلة تتحدث بصراحة، وتربط بوضوح بين العديد من أوجه النشاط التى لم تعد تقبلها:

أولاً: **حركة الإباحة الإعلامية** من كتب .. ومجلات .. بل وأفلام .. وغيرها التى لم تصل إلى ذلك المستوى من التحرر، من كل الأخلاقيات فى أى مرحلة تاريخ الحضارة الأوربية، بدأت تربط بصورة صريحة وواضحة بالحركات الصهيونية، لم تتردد أصوات معينة فى مدينة الفاتيكان أن تعلن دون خوف.. أو وجل.

ثانياً: **انتشار المخدرات** وبصفة خاصة فى الأوساط الطلابية والشبابية، بدأت تزكم الأنوف - الأنفس - وتشير إلى شركات خفية تتلاعب بالقدرات، وتسعى للتحكم فى القدرات الاقتصادية للعالم المعاصر، ومن خلفها تقف مصالح صهيونية معينة.

ثالثاً: **تجارة السلاح** بدأت تثير علامات عديدة من الشك حول الأهداف الصهيونية.

رابعاً: حركات الإرهاب وقد ارتبط كل ذلك بالإرهاب الدولي.

وكان من الطبيعى فى عملية المواجهة وتحويل الأنظار إلى أن تلقى بالتبعية على الإسلام(1)، وأن تعمل على تشويه مفاهيمه، وإثارة ما كان التاريخ قد طواه من عداوة.. وكراهية.. وخوف من الدين الإسلامى.

فقط فى هذا الإطار، نستطيع أن نفهم ذلك السيل من الإنتاج الأدبى.. والعلمى.. خلال الأعوامة الثلاثة الأخيرة.

ليست آيات شيطانية سوى صفحة من قصة أوسع من أن تتحدد بكاتب هندى.. أو رأى عام غربى.. **إنها استراتيجية عامة** للتعامل فى سبيل خلق قناعة متعددة الأبعاد:

1 - **الكراهية وتدعيمها** وقد غلفتها من جانب بعنصر الاحتقار، ومن جانب آخر

---

(1) أوربا، أمريكا، الدول الاستعمارية والصهيونية وعلى رأسها حلف الأطلنطى يعتبرون الإسلام عدوهم الأول (الأخضر) وأطلقوا عليه مسمى الإرهاب، وعلى المسلمين إرهابيين ومتطرفين. كما أن أجهزة الإعلام حريصة على تشويه الإسلام وكونه نظام حياة شامل صالح لكل زمان ومكان.. ولكن الله غالب على أمره وهو القائل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ كتاب: المستقبل لهذا الدين، سيد قطب.

بعنصر الخوف والرهبة ضد الحضارة الإسلامية، والمجتمع الإسلامى، فى جميع طبقات الرأى العام الغربى، وبصفة خاصة الأوربى.

2 - **التخلف**: بمعنى أن الإسلام لايمكن أن يقدم نموذجاً قابلاً أو صالحاً للتطبيق فى العالم المعاصر. هذه هى القناعة يُتوجه بها إلى الرأى العام المثقف فى العالم الإسلامي، وبصفة خاصة فى العالم العربى.

3 - **الصهيونية/ اليهودية**: وهى تصل فى حملتها على الإسلام إلى القمة عندما تبرزه على أنه تاريخ قد انقضى.. وتراث قد دخل فى متحف التاريخ.

وهى بهذا توفق بين متناقضين:

أولهما: المنطق السابق ذكره، وهو إبراز الإسلام على أنه تعبير عن حضارة متخلفة.

ثانيهما: إن علماء اليهودية وحتى الخمسينات لم يترددوا فى أن يعترفوا بفضل الإسلام على الحضارة اليهودية. ذلك فى شقين:

الأول: استمرارية تلك الحضارة، حيث إنه فقط فى العالم العربى استطاعت اليهودية أن تستمر فى تطورها الفكرى دون أن تصادف حركات الاستئصال، التى عرفتها فى العالم الأوربى. اليهودية لم تنمو إلا فى مواقع ثلاثة: العالم العربى أولاً، ثم الحضارة الأندلسية ثانياً، وأخيراً الإمبراطورية العثمانية. وهى مواقع سادتها الفطرة الإسلامية.

الثانى: وهو أن عمليات التجديد فى تلك الحضارة لم تحدث إلا انطلاقاً من الفكر الإسلامى.

«**إسحق بن ميمون**»: عاش هذا المفكر، بل ورفض إلا أن يقضى آخر أيام حياته فى الفسطاط عاصمة مصر.

«**كابلان**»: خير من أرخ للحضارة اليهودية، اعترف بأن هذه الحضارة كلما تقوقعت على نفسها لم تجد أمامها إلا التراث الإسلامى، تستقى منه ينابيع المعرفة. كيف يمكن التوفيق بين هذين الاتجاهين بالقول أن الإسلام تراث تاريخى قد انقضى عهده؟!

الإسلام فى المخطط الاستراتيجى الإسرائيلى وأبعاده الحركية:

هذه المناقشات الفكرية فرضت على الفكر الإسرائيلى المعاصر أن يطرح السؤال وبصراحة وفى أكثر من مناسبة:

هل وكيف يمكن استخدام الإسلام أداة من أدوات الإرباك المحلي بحيث يتم .. ويزداد تعميق التخريب الداخلي؟

طرح هذا الموضوع فى أكثر من مناسبة وبصراحة.

إحدى المناسبات كانت لقاء في العاصمة تل أبيب عام 1979 أدير حول موضوع «الدين والحكومة في العالم الإسلامي»، ورغم أن المناقشات التي أثيرت حول هذه التساؤلات، لم تكن بتلك الصراحة، ولم تنشر تفاصيلها، إلا أن الذي نستطيع أن نكتشفه، هو انقسام الرأي بخصوص ذلك الموضوع:

الرأي الأول يرى: أن الإسلام هو ورقة خطيرة بحيث أن تستخدم بأوسع نطاق، وليس فيها معنى لتحطيم التماسك العربي فتفريغ مفهوم العربية من منطلق إيجابي:

* **فالخلاف بين الإسلام السني والإسلام الشيعي أولا.**
* **ثم التعميق للمتناقضات المذهبية داخل الإسلام السني ثانيا.**
* **وإثارة النعرات الطائفية لغير المسلمين.. ثالثا.**
* **ودفع الولاء الطائفي ليبرز على السطح، وليتخطى حالة التسامح الإسلامي.. رابعا.**
* **كذلك تعميق الخلاف والتضارب بين الإسلام العربي والإسلام غير العربي.. خامسا.**

جميعها دوائر عناصر استغلالها متوفرة، وليست في حاجة إلا إلى الإعداد النفسي لحرب تشنها بذكاء أجهزة الإعلام الإسرائيلي.

هذه هي الدوائر الخَمْس، تكملها دائرة سادسة، وهي مرتبطة بعملية التحديث، والتجديد وإبراز الإسلام على أنه نوع من الجمود الرجعي[(1)]، الذي لن يؤدي إلا إلى تنمية التخلف والتخلي عن مواكبة الركب الحضاري للتقدم. هذا التوجه وجد صدى له في قادة أحد المراكز الاستراتيجية الهامة في الوطن العربي. لاشك أن هذه القيادة غير واعية بهذه الحقيقة، ولكن أليس من المؤسف أن يصير رجال مركز دراسات استراتيجية وقد استغلته كأدوات لها **استراتيجية معادية**؟ على أن هذا موضوع سوف نعود إليه في مكان آخر، لنرى أن الاستراتيجية الإسرائيلية تفعل ذلك منذ كان جمال عبد الناصر يجلس بغير منازع على عرش الفراعنة.

الذي يعنينا بهذا الخصوص أن هناك رأياً ثانياً في القيادة الإسرائيلية يخالف التوجه السابق، وقد بدأت تظهر ملامح وجوده خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة.

خلاصة الرأي: إن هذه الورقة خطيرة ومن الممكن أن تأتي بنتائج مخالفة، الإسلام

---

(1) مراد هوفمان «سفير ألمانيا في المغرب» الذي أسلم وله مؤلفان تؤكد أن الإسلام هو دين أوروبا في القرن القادم.

* الإسلام كبديل، نُشر بالألمانية وترجم إلى العربية والإنجليزية (مؤسسة باراڤيا) عام 1993.
* الإسلام عام 2000 ترجمة عادل المعلم، مكتبة الشروق عام 1995.

ورقة تُلهِب النفوس، وقد أثبت قوته في أكثر من مناسبة واحدة. والعنصر الذى يربط الإسلام بالعروبة هو العداوة الصهيونية، وبصفة خاصة بصدد مشكلة القدس واللعب بالإسلام، هو تعامل مع دائرة أكبر من إمكانيات الصهيونية، وهى قادرة على أن تقدم من النتائج ما لايمكن أن نتوقعه، إنها كاللعب بالنار. فلماذا تثير وتتعامل مع هذه الورقة بكل ما تعنيه من عناصر استفهام؟ هذا الرأى الثاني – رغم ذلك – لم يجد بعدُ آذاناً صاغية لأكثر من سبب واحد:

السبب الأول: لأنه لايتفق مع السياسة الأمريكية بصدد استخدام الإسلام كورقة حاسمة فى سبيل إيقاف المد الشيوعى.

السبب الثانى: أن الثورة الخمينية أتاحت لإسرائيل فرصة لاتعوض.

السبب الثالث: بل وقبل ذلك وجدت السياسة الإسرائيلية من الرئيس السادات أداة طيبة غير واعية، ينطلق من مفاهيم تكون واحدة، رغم ذلك، فإن حقائق أربع بصدد هذه الورقة تبرز للعيان:

أولا: فشل المخطط الإسرائيلى فى التعامل مع حرب الخليج.

ثانياً: بروز الإسلام السنى كقوة ثورية، وليست فقط قوة محافظة.. قوة تتصدى.. وتنتزع من الإسلام الشيعى دعواه، بأنه القوة اليسارية الوحيدة. وهو أمر أيضاً يقرب الإسلام السنى من الإسلام الشيعى، ويمهد ليجعل منهما حائطاً حقيقياً فى المواجهة وبصفة خاصة فى مصر.

ثالثاً: بروز الإسلام كقوة دافعة فى الانتفاضة، لم تقتصر على غزة، بل تعدت ذلك إلى نفس الفلسطينيين فى الأرض المحتلة قبل عام 1987.

رابعاً: ما يحدث فى لبنان، حيث نجد تحت السطح ظاهرة قوى تخلق الأمل.. وهى تدور حول التقارب بين جميع الأقليات على مستوى رجل الشارع، وهى الأداة الحقيقية التى سوف يتعين على إسرائيل أن تتعامل معها، وهى تعلم ذلك، وقد بدأت تخطط على ذلك الأساس.

كيف؟ سؤال آخر لم يحن بعدُ الوقت.. للتصدى له بصراحة سوف تكون موجعة».

انتهى كلام حامد ربيع رحمه الله

تعريف بالمؤلف:

* **الدكتور حامد عبد الله ربيع .**
* ولد فى 1924/4/24 م .
* حصل على ليسانس الحقوق عام 1946 م .
* حصل على الدكتوراه الخاصة فى فلسفة السياسة جامعة روما 1952 م .
* حصل على الدكتوراه الخاصة فى العلوم جامعة روما 1952م .
* حصل على الدكتوراه الخاصة في العلاقات الدولية جامعة فلورانس ١٩٥٤م .
* **الأعمال التى باشرها المؤلف :**

ـ أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية كلية الاقتصاد . جامة القاهرة .
ـ أستاذ ورئيس قسم الدراسات القومية بمعهد الدراسات العربية .
ـ أستاذ خارجي بجامعة « الخرطوم ـ بغداد ـ روما ـ باريس ـ لندن ـ الكويت » .
ـ عمل مستشاراً لوزير التربية والتعليم ، وفى رئاسة الجمهورية 1960 .
ـ عين أستاذاً للنظرية السياسية فى كلية الاقتصاد 1967 .

* مؤلفاته : له مؤلفات تزيد عن الخمسين مؤلفًا ، وعشرات الأبحاث والمقالات والرسائل العلمية التى أشرف عليها :

أ ـ فى مجال التحليل السياسى وأهمها :
1ـ الدعاية الصهيونية . 2 ـ البترول العربى . 3 ـ العنصرية الصهيونية .

ب ـ مؤلفات ذات طابع علمى وأهمها :
1 ـ مستقبل الإسلام السياسى . 2 ـ الإسلام والقوى الدولية .
3 ـ سلوك المالك فى تدبير الممالك (تحقيق) .

جـ ـ مؤلفاته ذات طابع أيديولوجى أهمها :
1 ـ ما نشرته مجلة الموقف العربى « امتى والعالم » .
2 ـ ما نشرته مجلة الطليعة العربية بفرنسا « سوف أظل عربيًا » .

د ـ مؤلفات على شكل مذكرات للطلبة أهمها :
1 ـ الفكر الإسلامى وبناء النظرية . 2 ـ نظرية القيم .
3 ـ الإسلام والقومية .

هـ ـ مؤلفات باللغات الأجنبية « ثلاثة عشر » بالفرنسية وبالإيطالية .

** توفى يوم الأحد 10 سبتمبر 1989 ، وقيل أنه اغتيل على يد المخابرات الصهيونية، ـ جريدة الوفد فى عددها 18 يناير 1995 ـ تحت عنوان [ربيع وجمال حمدان نهايات مفتوحة] أحمد المسلمانى .

المراجع

1 ـ أزمة شيشان، لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل ـ مركز الإعلام العربى، ط1 عام 1994.

2 ـ أهداف إسرائيل التوسعية، لواء. محمود شيت خطاب ـ دار الاعتصام ـ القاهرة.

3 ـ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ومحاورات جارودى بالقاهرة ـ دار الغد العربى ـ ط2، 1997.

4 ـ الأهرام الاقتصادى (كتاب 1988) ـ بقلم دينا جلال «المعونة الأمريكية لمن؟ لمصر أم لأمريكا؟».

5 ـ الدولة العثمانية «دولة إسلامية مفترى عليها» أ. د. عبد العزيز الشناوى (3 أجزاء) مكتبة الأنجلو المصرية.

6 ـ الطريق إلى بيت المقدس. د. جمال عبد الهادى مسعود ـ جزء ثان ـ دار الوفاء ـ المنصورة.

7 ـ النظام السياسى فى إسرائيل ـ لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل ـ دار الوفاء طبعة 2، عام 1992.

8 ـ أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، ذرية إبراهيم عليهم السلام والمسجد الأقصى، د. جمال عبد الهادى مسعود، د. وفاء محمد رفعت، دار الوفاء ـ المنصورة.

9 ـ العالم الإسلامى، إفساد التعليم لمصلحة من؟، سعيد عبد الحكم زيد، مكتبة وهبة، القاهرة.

10 ـ البعد الإسلامى فى أزمة الخليج، ترجمة وتعليق: لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل. تقديم أحمد رائف.

11 ـ المؤامرة على التعليم والمعلم ـ صلاح الدين محمود وآخرون ـ دار الوفاء ـ المنصورة.

12 ـ احتواء العقل المصرى، والتى نُشرت فى كتاب تحت عنوان: «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية، (الاستعمار والصهيونية وجمع المعلومات عن مصر) الكتاب الرابع.

13 ـ جذور البلاء، عبد الله التل، المكتب الإسلامى، دمشق 1978.

14 ـ «جارودى والإسلام وغضب الصهيونية» محمد فوزى ـ المركز العربى للنشر والتوزيع.

15 ـ جريدة عرب تايمز، العدد 107، بتاريخ 11 : 20 ديسمبر 1992، ص 38.

ـ جريدة الفيجارو، بتاريخ 26 أبريل 1996.

ـ جريدة ليبراسيون الفرنسية، بتاريخ 3 مايو 1996.

16 ـ جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ 18 يونيو 1996.

17 ـ جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ 23 يوليو 1996.

18 ـ جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ 30 يوليو 1996.

19 ـ كارثة الخليج وأزمة الشرعية فى العصر الأمريكى د. محمود عصفور ـ دار القارئ العربى.

20 ـ مقالات د. حامد عبد الله ربيع ـ الأهرام الاقتصادى، الأعداد 734: 739 تحت عنوان: احتواء العقل المصرى.

21 ـ مجلة استراتيجيًا الأعداد: 97 السنة التاسعة، مارس 1990.

98 السنة التاسعة، أبريل 1990.

100 السنة التاسعة، يونيو 1990.

101 السنة التاسعة، يوليو/ أغسطس 1990.

102 السنة التاسعة، سبتمبر/ أكتوبر 1990.

104 السنة التاسعة، يناير/ فبراير 1991.

106 السنة التاسعة، مايو/ يونيو 1991.

107 السنة التاسعة، يوليو/ أغسطس 1991.

108 السنة التاسعة، سبتمبر/ أكتوبر 1991.

111 السنة التاسعة، مارس/ أبريل 1992.

112 السنة التاسعة، مايو/ يونيو 1992.

22 ـ نحو نهضة أمة (كيف نفكر استراتيجيًا) لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل، مركز الإعلام العربى، طبعة أولى عام 1997.

23 ـ نظرية الأمن القومى العربى، د. حامد عبد الله ربيع ـ دار الموقف العربى.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة